



جامعة الملك عبد العزيز
مكة المكرمة
كلية الشريعة والدراسات الإسلامية
قسم اللغة العربية
فرع الأدب

٢٢٩٥

المقام في الأدب السبئية في عصر الطوائف والمرابطين

رسالة مقدمة لنيل درجة الماجستير في اللغة العربية
فرع الأدب



٢١٢

إعداد الطالب
ساهر عوض الكفاوين

بإشراف الأستاذ الدكتور

ناصر بن سعد الرشيد

١٤٠٠ - ١٤٠١ هـ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

فهرس الموضوعات

	المقدمة
١٧ - ١	التمهيد
٢٦ - ١٨	الباب الأول : نشأة المقامات في الشرق
٢٦ - ١٩	أولاً : تعريف المقامة لغة واصطلاحاً
٥٩ - ٢٧	ثانياً : أول من أنشأ المقامة
٧٣ - ٦٠	ثالثاً : أثر بديع الزمان نسي من خلفه
٧٧ - ٧٤	رابعاً : خصائص المقامة المشرقية
١٨٣ - ٧٨	الباب الثاني : المقامات الأندلسية
٩٠ - ٧٩	الفصل الأول : انتقال فن المقامة الى الأندلس
١٣٤ - ٩١	الفصل الثاني : المقامات الأندلسية التقليدية
	الفصل الثالث : الموضوعات المقامية بين المشرق
١٤٧ - ١٣٥	والمقامة الأندلسية التقليدية
١٨٣ - ١٤٨	الفصل الرابع : المقامات الأندلسية التقليدية
	الباب الثالث : الرسائل الأدبية في الأندلس ،
٢٧١ - ١٨٤	انواعها وسماتها
	الفصل الأول : رسائل السخرية والهزل والمناظرات
٢٤٩ - ١٨٥	ورسائل العاطفة والوصف
٢٧١ - ٢٥٠	الفصل الثاني : رسالة التواضع والزواج
٢٧٤ - ٢٧٢	الخاتمة :
٢٨٨ - ٢٧٥	المصادر والمراجع :

” مقدمات ”

الحمد لله الذي خلق الانسان علمه البيان ، والصلاة والسلام
على سيدنا محمد الأمين الذي أنزل عليه الكتاب بلسان عربي مبين ،
ليكون بشيرا ونذيرا للعالمين .

أما بعد : فان الأدب الأندلسي لم يلق من الباحثين العناية
الكافية التي تناسب ما هو عليه من الجودة والقوة فهو لا يزال بحاجة الى
الدراسات الجادة التي تكشف عن أسرار وكنوز هذا التراث الذي خلقت به
حضارة الاسلام التي عاشت ردا من الزمن في الأندلس فأصبحت هذه
الجزيرة مركز اشعاع وسط تلك الظلمات الحالكة التي كانت تتخبط فيها
أوروبا كلها في ذلك الوقت .

ولعل من أهم الأسباب التي صرفت الباحثين عن دراسة هذا
الأدب والتعمق فيه قلة المصادر القديمة التي وصلت اليها منه بالإضافة
الى أن معظمها لا يزال مخطوطا في مكتبات العغال المختلفة مما
يجعل البحث فيها يحتاج الى جهد كبير وتفرغ لا يستطيعه الكثيرون
كما أن الذين اهتموا بدراسة الأدب في الأندلس - على قلتهم - انصرفوا
الى دراسة الجانب الشعري باعتباره الأظهر والأشهر في محاكاة
المشاركة ، لذا فقد اخترت ان يكون بحثي هذا في الجانب النثري من
هذا الأدب لعلي أعل رحما مقطوعة ، وأقدم بعض الخدمة لتراث
القرنوس المفقود .

أما لماذا المقامات والرسائل بالذات ؟ فلأمور منها :

ان المقامة فن نشأ في الشرق وتأصلت قواعده هناك على يد بديع
الزمان والحريري ، فهل عرفته الأندلس ؟

وان كانت قد عرفته فهل عرفته بنفس الخصائص المشرقية أم بخصائص
جديدة ؟ أم بهما معا .

ثم ان المقامة كانت منذ دراستي الأولى لها في الجامعة ترتبط في ذهني - كما ترتبط في أذهان الكثيرين - بنزعتها اللفظية والبلاغية وليس وراء ذلك أغراض أو معان يقصدها كاتبوها . فرحت أدرسها دراسة موضوعية مرات ، ومرات وحتى وجدت فيها ما يستحق الدرس ان أنها تحوى من النقد اللاذع لأحوال تلك المجتمعات المهترئة المفككة - التي كانت في وقت انشائها - ما لا يمكن التعبير عنه بأفضل مما عبرت عنه المقامات وذلك لسلوكها الأسلوب الفني الذي يغلب عليه طابع الهزل والسخرية . وفي اعتقادي ان هذه السخرية والصور الهزلية ما عي الاستاريختفي وراءه كاتبوا المقامات خوفا من البطش والتنكيل الذي يتعرض له كل منتقد لتلك الأوضاع علانية .

أما الرسائل الأدبية فقد قرنتها مع المقامات في هذه الدراسة للتعرف على أنواعها وخصائصها في الأندلس وهل تختلف عن الرسائل الديوانية والاخوانية ؟ .

وقد حصرت دراسة هذين اللونين النثرين في فترة حكم ملوك الطوائف والمرابطين في الأندلس لأن هذه الفترة - بحق - من أزهى عصور الأدب بالاضافة الى ان فن المقامات وصل من المشرق - عن طريق الهجرات واتصال المد الثقافي - الى الأندلس في هذه الفترة وان اكثر النصوص الذي اعتمدنا عليها في دراسة المقامات عاش صاحبها السرقسطي في عصر المرابطين حيث توفي سنة ٥٣٨ هـ .

وقد حاولت في هذه الدراسة أن أجمع اكبر عدد ممكن من النصوص المقامية والرسائل الأدبية التي كتبت في عصرى الطوائف والمرابطين وذلك من المصادر المطبوعة وأهمها الذخيرة لابن بسام الشنتريني وقلائد العقيان للفتح بن خاقان . وقد وجدت من هذه المصادر رعاء كبيرا حيث انها كتبت بطريقة مسجوعة وكثيرا ما يطفئ السجع والمحسنات البديعية على المعنى فيلتبس الأمر على الباحث وقد ينقلب الأمر الى نوع من الانشاء الحافل بالمبالغات التي يضيفها المؤلفون على كل شاعر أو كاتب كقول ابن بسام عن ابن زيدون : " ١ " كان ابو الوليد صاحب منشور ومنظوم وخاتمة

شعراء مخزوم ، أخذ من جر الأيام جرا وفات الأنام طرا وصرف
السلطان نفعا وضرا

ويقول عنه ابن خاقان : "أ" . . . الذي بهر بنظامه وظهر
كالبدر ليلة تمامه فجاء من القول بسحر وقلده أبهى نحر لم يصرفه
الابن ربحان وراح ، ولم يطلعه الا في سماء مؤنسات وأفراح .

كما أن هذه المصادر تغفل كثيرا من الأحداث الهامة في حياة
الأديب أو في تاريخ عصره ، كما تخلط أحيانا بين الشخصيات
التاريخية كخلطها بين ابن جمهور الأب وأبي الحزم وابن جمهور
الأبن أبي الوليد وبين المعتضد والمعتد وتمزج بين أبي حفص بن
برد الجند والحفيد وما إلى ذلك .

أما المصادر المخطوطة فقد اعتمدت عليها كثيرا لان النص
المقامي الذي وصلنا كاملا وعود المقامات اللزومية لا يزال مخطوطا
بالاسكوريال ومنه نسخة بمعهد المخطوطات في القاهرة حصلت عليها .

وهناك مخطوطات أخرى على شكل مجموعات وجدنا في ثناياها ما يتعلق
ببحثنا من المقامات والرسائل الأدبية . وكانت الصعوبة تكمن في قراءة هذه
النصوص حيث أنها كتبت بالخط المغربي بالإضافة إلى صعوبة الألفاظ
التي كان كتاب المقامات يعتمدون غرابتها ، والتي يضطرونهم السجع
اليها أحيانا . كما أن ما يلحق بهذه المخطوطات من السقط والتأكل
والتحريف تجعل الباحث مضطرا إلى أن ينصرف عنها يائسا أحيانا .

وقد جعلت من منهجي في هذا البحث الاعتماد على النصوص
قدر المستطاع ولم أطلق لنفسي العنان في اصدار الاحكام بدون أدلة
أو اثباتات فان أصبت فهذا ما أقصد اليه وان أخطأت فلي عذر المجتهدين

وقد درست هذا الموضوع حسب خطة تحتوي على ثلاثة أبواب مسبوقة بتمهيد عرضت فيه للأوضاع السياسية التي كانت سائدة أيام الطوائف والمرابطين ومالها من الآثار على الناحية الاجتماعية والفكرية وهذا ما صورته المقامات الأندلسية وعبرت عنه فعرضت لفساد الحكام وتسلطهم وهضمهم لحقوق الأمة مما ينتج عنه وجود طبقة من الفقراء والمشردين والمهاجرين المكدين ، كما عرضت للأخلاق التي كانت سائدة ونقدتها بأسلوب هزل ساخر .

أما الباب الأول :

فقد تحدثت فيه عن تعريف المقامة لغة ثم تتبعت المراحل التي مرت بها هذه اللفظة وتطور مدلولها حتى وصلت إلى ما هي عليه الآن وأشرت إلى أنها كانت بداية لظهور القصة في الأدب العربي ثم عرضت لأول من أنشأ المقامة وناقشت رأي الحصري الذي قال بأن ابن دريد هو رائد هذا الفن وقلده بعد ذلك بديع الزمان الهمداني وعنه أخذ الحريري ثم تتابع كتابها عبد العصور ، وقد ملت إلى هذا الرأي بعد أن ناقشت رأي الدكتور زكي مبارك الذي تولى هذه القضية ، ونقدته في بعض ما ذهب إليه واستدركت عليه بعض ما فاتته من أحاديث ابن دريد ودلائلها على أصل المقامات . ثم بينت خصائص المقامة المشرقية وما تمتاز به من مميزات ثابتة بقيت هي قوام هذا الفن كالراوى والبطل والمعقدة والكديه والسخرية وغيرها .

وأما الباب الثاني :

قسمته إلى أربعة فصول ، كان الفصل الأول عن انتقال الفن المقامي من المشرق إلى الأندلس حيث كان الاتصال مستمرا بالإضافة إلى الزيارات التي كان يقوم بها العلماء والأدباء الأندلسيون إلى المشرق للتزود من العلم وأداء فريضة الحج ، وهجرة العلماء والأدباء المشاركة إلى الأندلس طلبا للشهرة أمثال صاعد اللغوي وأبي علي القالي وغيرهم فكان جوعلاء يحملون معهم أنفس الكتب والمؤلفات وكان من ضمنها

المقامات وبالأخص مقامات الحريري .

والفصل الثاني أفردته للحديث عن المقامات التقليدية وهي التي سارت على نفس النموذج المشرقي ، وأهم هذه المقامات مقامات السرقسطي الذي اقتفى بها أثر الحريري ولكنه زاد عليه بلزومه ما لا يلزم فيها . وقد حوت هذه المقامات من الموضوعات والأغراض ما جعلني أدرسها حسب هذه الأغراض السياسية ، والاجتماعية والخلقية ، والأدبية والنقدية ، وقد كان أشهر كتاب المقامات النقدية في الأندلس ابن شرف القيرواني ، حيث كانت له نظرات عميقة في نقد الشعراء وشعرهم خاصة ما يتعلق - بالناحية النفسية عند الشاعر ، وقد حاولت إبراز هذه الناحية عنده وان أخذت عليه بعض الأمور التي سيلاحظها القارئ لهذه الرسالة . كما كان هناك أديب يسمى عبد الرحمن بن فتوح كتب مقامة نقدية ولكنها قصيرة وتعرض فيها لأنباء وشعراء الأندلس فقط وقد تميز بهذا عن سواه .

أما الفصل الثالث من هذا الباب فقد جعلته مقارنة بين موضوعات المقامة التقليدية والمقامة الشرقية وتعرضت فيه للموضوعات المشتركة بينهما كما كانت هناك بعض موضوعات امتازت بها التقليدية الأندلسية كتعرضها للحب العذري ، ووصف المدن ، والحديث من الرحلات البحرية .

والفصل الرابع تحدثت فيه عن نوع من المقامات سميتها بغير - التقليدية وذلك لأنها فقدت بعض مقومات المقامة الشرقية فلا راو لها ولا بطل ولا عقده تدور حولها المقامة ، بل أصبحت تروى على لسان كاتبها وحده كما أصبحت تتناول موضوعات شعرية كالمدح والهجاء والوصف والرحلات وما إلى ذلك فقدت كثيرا من عناصر السخرية والتشويق والمغامرات التي كان يقوم بها البطل والتي كانت تضفي على المقامة جوا خاصا يميزها عن فنون النثر الأخرى على أن أصحاب هذه المقامات لم يولفوا كتبها بذلك وإنما اكتفوا بتأليف مقامة أو مقامتين يظهر فيهما براعته في استعمال الأساليب البلاغية المتنوعة وامتلاكه للغة وسعيه حصيلة من الثقافة العربية والإسلامية .

الباب الثالث :

درست في هذا الباب الرسائل الأدبية وجعلته في فصلين مسبوقين بتمهيد بسيط عن ماهية الرسالة الأدبية وبم تخالف الرسائل الديوانية والأخوانية وغيرها من ناحية الأغراض والأساليب .

أما الفصل الأول : فتعرضت فيه لأنواع متعددة من الرسائل الأدبية كرسائل السخرية والهزل أمثال رسالة ابن زيدون الهزلية وقد حاولت الربط بين هذه الرسائل وجذورها في المشرق وبينت مدى التأثير والتأثير من خلال النصوص والعبارات ، وهناك رسائل العاطفة والوجد الديني ، ورسائل وصف المطر بعد القحط . كما أن هناك رسائل المناظرات والمفاخرات بين أنواع الأزهار والورود وبين المدن الأندلسية وقد حللت هذه الرسائل وكشفت ما بها من الرمز الاجتماعي والسياسي .

ولعل هذه الرسائل كانت متأثرة بعلم المنطق والجدل الذي شاع في المشرق واستعمل في المناظرات الدينية ثم انتقل إلى الأندلس فتوسعت دائرته هناك .

كما كان هناك نوعا من الرسائل يحمل طابعا رمزيا على لسان طير يسمى بالزرزور فسميت بالزرزوريات وهي أشبه بالشفاعات التي يبعث بها من له حظوة عند الحكام لأجل بعض الشعراء والأدباء وذلك عندما ضعف الاهتمام بالأدب وزاد الاهتمام بأصحاب السيوف الذين يحمون البلاد .

والفصل الثاني تناولت فيه رسالة ابن شهيد المسماة برسالة التواضع والزواجع والتي يخلق فيها إلى آفاق بعيدة عن أرضنا حيث يكون مسرحه في أرض الجن فيلتي بشياطين الشعراء والكتاب وينتزع منهم الإجازة والاعجاب ، وقد حللت هذه الرسالة ودرست تأثيرها بالمقامة البليسية لهديع الزمان الهمداني كما أوضحت أنها كانت سابقة على رسالة أبي

العلاء المعري " رسالة الغفران " . في الزمن فيند وأن أبا العلاء هو المتأثر ، كما أوضحت الأسباب التي دعت ابن شهيد لكتابتها ، والنحو بها هذا المنحى .

وفي الخاتمة قارنت بين الرسالة الأدبية والمقامة ووضحت التقارب بينهما ، وما امتازت به كل منهما مع اعطاء صورة مبسطة للبحث بعامة من خلال ذلك .

وفي الختام لايسعني الا أن أقدم جزيل شكرى وعظيم امتنانى لسعادة الدكتور ناصر بن سعد الرشيد المشرف على هذه الرسالة والذي لم يدخر وسعا في التوجيه والارشاد ، وأعطاني من وقته الثمين وعلمه الفزير ما ساعدني على انجاز هذا البحث . فنسأل الله أن يجزيه خير الجزاء وأن يوفقه لما فيه خير الاسلام والمسلمين .
وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

بسم الله الرحمن الرحيم

تمهيد :

الوضع السياسي في عصرى الطوائف والمرابطين وأثره
الاجتماعي والفكرى على المجتمع الأندلسي :

كانت سنة ٣٩٩ هـ شوفا في تاريخ الأندلس ، حين أطاحت
الفتنة البربرية بكل وحدة للدولة ، فقد اشتمل الصراع باديء ذي بدء
داخل البيت الأموي الحاكم على السلطة نتيجة استغلال الضعف لتحقيق
المصلحة الشخصية دون تفكير فيما يجرى للأمة من سوء العواقب ، كما
فعل محمد بن هشام بن عبد الجبار الأموي الطبق بالمهدى عندما
أراد أن يتخلص من الدولة العامرية التي قامت واستبدت بالأمر زمن
الخليفة المستضعف هشام المويدي . . . وبالفعل تمكن من قتل عبد الرحمن
ابن أبي عامر آخر حكام بني عامر وهاول أن ينصب نفسه خليفة ، ولكن
سرعان ما نازعه في ذلك أموي آخر هو سليمان المستعين ، فجمعا
حشودا من البربر حوله ودخل قرطبة وقتل كثيرا من أهلها وفر المهدى
وأصبح الأمر للمستعين ولكن الى حين حيث يرجع المهدى مرة أخرى
مستعينا بقوة النصارى ، وتستمر هذه الحالة الموصفة من الصراع والتسي
ازدادت حدته عندما دخل حلبة النزال أيضا رؤساء البربر لينازعوا
الأمويين على السلطة ، فطفت شهوة الحكم على الجميع ، فوصل الأمر
الى الاستجداء بالنصارى الذين كانوا يتحفزون لاستغلال مثل هذه
الفرص وبالفعل سقطت في أيديهم كثيرا من المدن الأندلسية ، بل ان
واسطة عقد الخلافة الإسلامية "قرطبة" ابيع للجنود الصليبي الداخل
مع الفريق المنتصر . وقد كانت آثار هذه الفتنة هالا ودمارا للحضارة
الإسلامية بالأندلس فكانت كما وصف ابن حيان "أ" " سنينا

شدادا نكادات ، صعبا مشغومات ، كرهيات الهدأ والفاحة ، قبيحة المنتهى والخائبة ، لم يعدم فيها حيف ولا فورق فيها خوف ، ولا تم سرور ، ولا فقد محذور

ويفتتحي الأمر أخيرا بالفناء الخلافة نهائيا سنة ٤٢٢ هـ بعد أن حكم في هذه الفترة البسيطة أربعة عشر خليفة من الأمويين والبربر^١ . وقد خلفت هذه الفترة مجتمعا قلقا غير مستقر ، مضطربا القوم .. ملوئا بالمرارة والضياح ، وخاصة مجتمع قرطبة الذي توالى عليه الخلفاء من أمويين وبربر ، مع تعدد الجيوش الداخلة والمنسحبة والتي تشيع موجة عنيفة من السلب والنهب والدمار في قرطبة والزهراء وغيرها من المدن الأندلسية ، فكان من جراء ذلك أن أخذت على الناس الأقطار ، فأظلمت الدنيا ، واهلس أهلها ، وغشيبهم من أمر الله ماغشيبهم ، فلزموا البيوت ، وتطربوا فسي بطون الأرض ، حتى قل بالنهار ظهورهم ، وغلت أسواقهم ، فاذا دنسا المساء وكف الطلب عنهم انتشروا تحت الظلام لبعض حاجاتهم^٢

وبذلك توقف النمو في جميع المجالات الصناعية والتجارية والعلمية ، وجف الزرع في الحقول ومع البلاد شبح المجاعات والأوبئة واكتست لهيبا من الكوارث المحرقة ، التي شملت كل شي^٣

هذه الحالة من الفوضى والاضطراب ، وتفتت وحدة الدولة السياسية ، مكنت الطامحين من القادة والزعماء المحليين من الانتزاع على السلطة كل في منطقته ، فاذا بنا أمام عشرين دولة مستقلة استقلاللا تاما في ادارتها وجيشها وحياتها الفكرية والأدبية ، وبهذا يظهر فسي تاريخ الأندلس السياسي من تسميهم بملوك الطوائف ، ومن أشهرهم :

(١) رسالة التوايح والزوايح ، تحقيق بطرس البستاني ،

ص ١٢ - ١٦ .

(٢) الذخيرة ١٠٠/١/١ .

(٣) ابن غذارى ، البيان المغرب ؛ ١٠١/٣ - ١١٥ ، وصف للحالة بالتفصيل .

في شرق الأندلس (أي في المرية وموسيه وبلنسية ودانية) موالى
العامرية مثل خيران العامري ، وزهير العامري ، ثم مجاهد العامري ،
حتى استوى عليها المرابطون سنة ٤٨٤ هـ ، وفي قرطبه موالى
الأمويين (بنو جهور) ، وفي غرناطة ومالطة وطليطلة قام البربر بالحكم
وهم (بنو زيري ، وبنو الافطس ، وبنو ذى النون) ، وفي اشبيلية
وسرقسطه واليونت نجد العنصر العربي (بنو حاد اللخميون ، وبنو
هود الجذاميون ، وبنو القاسم الفهريون ، وبنو حمود الحسنيون "١")
وهذه الامارات والممالك تسلك كلها تقريبا نهجا سياسيا واداريا
واحدا ، فالسلطان مطلق يمسك بزمامه الأمير أو الملك باحكام وينحو
به نحو استبداديا قاسيا لامجال معه للشورى أو للمعارضة ، وكان هم
ذلك المتسلط (قصر بينيه ، وعلق يقنتيه ، وميدان من اللذة يستولي
عليه ويمرز فيه) .

أما ادارته فتنظر في المقام الأول الى جباية الضرائب من الأمسة
البائسة لتصرف على الجند المستأجر لحماية العروش المزيفة المتهاوية
وعلى اللذات وأسباب الترف والتمتع .

نستثني من ذلك نظام الشورى الذى طبقه أبو الحزن بن جهور
المتوفى سنة ٤٣٥ هـ على مجتمعه بقرطبه والذى أعطى جزءا كبيرا من
السلطة لفضلاء الناس ليساعده في ادارة البلاد ، فكان مثلا يجمع الأموال
ويمطي كلا ما يستحقه ثم يترك الباقي بأيدي الثقات ، فاذا سأل سائل
قال : (ليس لي عطاء ولا منع هو للجماعة وأنا أمينهم) "٢" .

-
- (١) عبد الحميد العبادى ، المجلد في تاريخ الأندلس : ١٥٤ -
١٥٥ ، ط القاهرة ١٩٦٤ م ، عهد العزيز سالم ، تاريخ مدينة
المرية الاسلامية : ٥٧ - ٥٨ ، ط بيروت ١٩٦٩ م ، وانظر
تفاصيل أكثر في الذخيرة ق ١ ج ١ ص ٧٨ ، ص ٣٦١ ،
١١٤/٢/١ ، ص ٤٢٩ .
(٢) انظر أخبار ابن جهور في الذخيرة ١١٤/٢/١ - ٦٠٤ . ت عباس

ومما زاد الأمر سوءاً تناحر هذه الإمارات أو الدويلات وتحميلها للغرض في سبيل التوسع على حساب بعضها ، بالإضافة الى الصراع الداخلي في الإمارة الواحدة على كرسي الحكم ، كل ذلك أدى الى ضعف هذه الدويلات وجعلها غنيمية سهلة للنصارى في الشمال ، وشجع النورمان على غزوها .^١

والأدهى من ذلك أن هذه الصراعات انتهت الى واقع مـزرى من حيث الاعتماد على دعم قوة النصارى في محاربة المسلمين واستحدثت بدعة مريضة في تاريخ الحضارة الاسلامية ، وهي أن يدفع حاكم مسلم الجزية لحاكم نصراني كافر .^٢

ولا بد لدارس تاريخ هذه الحقبة في الأندلس أن يقف عند أحداث ثلاثة كان لها أثر كبير ومباشر في موضوعات الأدب الأندلسي ، فقد كانت أحداثاً جساماً مريرة أشاعت في النفوس ضربها من القلق والتوتر مزوجاً بأحاسيس من الضياع والحزن الذاتي العميق على ضيعة الاسلام وهو أن أمره على الناس .

وأول هذه الأحداث استيلاء النورمان على بريشتر^٣ سنة ٤٥٦ هـ بعد معركة أفنت كثيراً من المسلمين قتلاً وأسراً وخنم فيها جيش الكفار من الغنائم مالا يكاد يحصى ، فقد زعموا أنه " حصل لأكبرهم في حصته نحو ألف وخمسمائة حارية أبقار ، ومن أوقار الامتعة والحلي والكسوة خمسمائة جمل " .^٤

يحصل كل هذا وملوك الطوائف مشغولون بأمور توافه من شرب خمير

-
- (١) ابن أبي دينار : المومنين في اخبار افريقيا وتونس : ١٠٠ - ١٠١ ، ت محمد شحام ، ط تونس ١٩٦٧ م .
 - (٢) انظر تفصيل ذلك في الذخيرة ق ٣ ج ١ ص ٢٤٨ وما بعدها .
 - (٣) بريشتر : مدينة تقع على فرع صغير من أفرو نهر ابره بين مدينسة لارده روشقه في الشمال الشرقي لسرقسطه ، أنظر عنان ، دول الطوائف : ٢٦٤ - ٢٦٦ .
 - (٤) أنظر ، احسان عباس ، تاريخ الأدب الأندلسي (عصر الطوائف والمرابطين) ص ٢٠ .

واقْتناء القيان وارتكاب المعاصي وسماع العيذان ، والكل منهم يلهست من أجل كسب رضى الانقوش "١" الذى أرهقهم بالأتاوات حتى أصبح له عمالا يجبون له الأموال من ملوك الطوائف ، وفي مقدمتهم أعظمهم شأنًا فى الأندلس المعتد بن عباد "٢" . ورغم هذا الذل والاستعباد الذى كان يسود صحائف أولئك الملوك ، اتخذوا الألقاب الفخمة كالمقتدر ، والمعتضد ، والمعتد ، والمتوكل ، والمؤمن . . . الخ مما جعل ابن رشيقي القيرواني يزهد فى الأندلس قائلاً : "٣"

ما يزهدني في أرض أندلس

أسماء معتضد فيها ومعتد

ألقاب مملكة في غير موضعها

كالهريحي انتفاخا حولة الاسد

وثاني الأحداث وأشدّها خطراً استيلاء الانقوش على طليطلة "٤" سنة ٤٧٨ بمساعدة أحد حكام الطوائف وهو القادر بن نزي النون السدي كان يطمع أن يعيده الانقوش الى حكم طليطلة بعد أن طرد منها " لكن

-
- (١) الانقوش : هو انقوش بن فولقد بن غرسين بن شانجه ، ملك النصراني ، كان أشجع اخوته ، ويورد بلفظ الفونسو ، هلسيك بطليطلة سنة ٥٠٢ هـ وكان ملكه ثيفا وخمسين سنة . انظر : البيان المغرب : ٥٠/٤ - ٥١ .
 - (٢) السلاوي ، الاستقصاء لاخبار دول المغرب والاقصى : ١١٢/١ - ١١٤ ، ط الدار البيضاء ١٩٥٤ م ، الوفيات : ٢٧/٥ - ٢٨ .
 - (٣) الخريدة : ق ٤ ، ج ٢ ص ٥١ .
 - (٤) طليطلة : مدينة كبيرة كانت تسمى مدينة الملوك ، يتصل عملها بعمل وادي الحجاره وهي على شاطئ نهر تاجه ، وبينها وبين قرطبه سبعة أيام للفارس وعلى مسافة ٩١ كم جنوب غرب مدريد : ياقوت الحموي ، معجم البلدان : ٣٩/٤ - ٤٠ .

خاب ظنه عندما أحكم عدو الله قبضته على المدينة وراح " يأسر ويقتل ، ويحرق ويمثل . وسما الشعر ، وتفاقم الأمر ، وأنكرت الموارد والمصادر ، وبلغت القلوب الحناجر . . . وقضى قضاءه باستباحة الحرم ، واستئصال الراحل والمقيم واتلاف الموجود والمعدوم . . . " ١ " وطفق أهل طليطلة يستصرخون من حولهم من ملوك الطوائف ، ولكنهم كانوا يضربون في حديد بارد ، فلم يستجيب لهم أحد ، مما جعل الأذفونش يتعادي في تعسفه فأخذ في تحويل مسجد طليطلة الكبير إلى كنيسة ، مما كان له جرح غائر في نفوس المسلمين بل وجعل الأندلسيين يفكرون في إيجاد حكم بديل ، وبخاصة عندما رأوا أطماع النصارى لم تتوقف عند طليطلة وإنما أخذت تمتد إلى الممالك الأخرى وقد صهر الشاعر ابن العسال عن هذا الخطر أصدق تعبير عندما قال : " ٢ "

حثوا رواحلكم يا أهل أندلس

فما المقام بها إلا من الفلظ

السلك ينثر من أطرافه وأرى

سلك الجزيرة منشورا من الوسط

من جاور الشر لا يأمن عواقبه

كيف الحياة مع الحيات في سقط

والحدث الثالث هو سقوط بلنسية في يد رذريق المسمى بالسيد الكنيطور الذي تربس في بلاط بني هود واستغلوه في حروبهم ، وذلك أنهم لما رأوا جيوش أمير المسلمين المرابطي تحتل الأندلس وتخضع ملوك الطوائف الواحد تلو الآخر ، خاف أحمد بن يوسف بن هود صاحب سرقسطة على ملكه فسلط الكنيطور على بلنسية ليكون عقبة في طريق

(١) أنظر خبر الاستيلاء على طليطلة في الذخيرة ق ٤ ج ١ ، ص

١٦٦ - ١٦٣ .

(٢) ابن العسال : أبو محمد عبد الله بن فرج المصيصي من أهل طليطلة ،

شاعرا مؤلفا ، وعارفا بالتفسير واللغة والآداب توفي سنة ٤٨٧ .

أنظر الصلة : ٢٨٥/١ ، الوفيات : ٢٧/٥ - ٢٨ ، والابيات في

النسخ : ٣٥٢/٤

المرابطين ينضمهم من الوصول اليه ، وبالفعل شدد الحصار عليها واحتلها قبل وصول تجدة المرابطين اليها ، فعث فيها فسادا حتى أنه أضرم النار وأحرق فقهاء المدينة وعلو رأسهم الفقيه الثائر ابن الجحاف () فأضرم هذا المصاب الجليل يومئذ أقطار الجزيرة نارا ، وجلس سائر طبقاتها خزيا وعارا (. . .) " ١ " وقد ظلت بلنسية كذلك حتى استعادها أمير المسلمين سنة ٤٩٥ هـ .

كل هذه الأحداث الجسام جعلت الأندلس تهتكت عن خلاصها في ايجاد حكم بديل يفي الناس فيه الى عدل الاسلام وعزته ، وعند ما أدرك ملوك الطوائف خاصة المعتمد بن عباد أطماع الأذنونش فسي الاستيلاء على كل الاندلس اتجهت الانظار لآخوان العقيدة الاسلامية المتحمسين للدفاع عنها وهم المرابطون بقيادة زعيمهم الفذ الأمير يوسف ابن تاشفين اللمتوني البربري ، فبدأوا يبحثون له الكتب والرسائل تستصرخه وتحثه على تخليص البلاد المسلمة من جور النصارى الذين كلب داوهم " ٢ " ولوأدى ذلك الى استيلاء المرابطين على الاندلس وضمها اليهم ، وهذا مفاد كلام المعتمد بن عباد - عندما خوف مغيبة عبور المرابطين الى الأندلس - حيث قال : " ان ربي الجمال عند المرابطين خير من رعي الخنازير عند الأذنونش " " ٣ " . وقد استجاب

-
- (١) خبر سقوط بلنسية في الذخيرة ق ٣ ج ١ ص ٩٢ - ١٠٣ ، عباس (عصر الطوائف والمرابطين) : ص ٢٣ - ٢٤ .
 - (٢) بمقت المعتمد بن عباد في عام ٤٦٧ هـ الى يوسف يطلب منه الجواز ، وفي عام ٤٧٤ هـ وصل وفد من أهل الأندلس الى ابن تاشفين يشكون سوء أحوالهم ، كما كتب اليه ابن الافطس سنة ٤٧٥ هـ ، وكانت خاتمة هذه المحاولات جواز المعتمد بنفسه سنة ٤٧٩ الى مراکش فأكرمه ابن تاشفين ووعده بالجواز وقد تم ذلك في نفس السنة / انظر : ابن أبي زرع ، روض القرطاس : ص ١٤٢ ط الرباط ١٩٧٢ م ، تاريخ ابن خلدون : ٣٨٠/٦ ، ط بيروت ١٣٩٩ هـ ، المعجب : ١٩٣ .
 - (٣) عنان ، دول الطوائف ص ٣٠٦ ، الحلل الموشية : ٤٥ .

يوسف بن تاشفين لهذا النداء^١ والاستغاثة فجهز جيشا عرمرما وشحنه بالقوارب عابرا البحر - الذي لم يجهده من قبل - الى الاندلس للجهاد في سبيل الله ونصرة المسلمين المستضعفين هناك فاستقبله ملوك الطوائف أو بعضهم استقبالا جيدا وقدّموا لجيشه الميرة والهدايا وأكرمواهم غاية الأكرام وبقي ابن عماد ملازما للجيش المرابطي يعرفه أحوال البلاد وطبيعتها الجغرافية من طرق ومسالك الى غير ذلك بالإضافة الى اعداده جيشا من اشبيلية يحارب الى جانب المرابطين فتكامل عدد جيش المسلمين بمختلف أنواعه زهاء^٢ عشرين ألفا^٣ فزحفوا الى منطقة الزلاقة^٤ حيث لقيهم الأذفونش - لعنه الله - بعدد وافر من الأجناد والعتاد " استنفر الصغير والكبير ... وجاء يجر الشوك والشجر ، وانما كان مقصوده الأعمام قطع تشوف البرابرة عن جزيرة الاندلس والتهب عليهم ... " ^٥

وتم اللقاء الحاسم بين الفريقين يوم الجمعة سفة تسع وسبعين واربعمائة للهجرة فأعز الله جند الاسلام ونصرهم نظرا عظيما فلم ينج من أعداء الله الا قائدهم الأذفونش جريحا وشرذمة قليلة من رهطه فعم الأندلس فرح عظيم وكثر الدعاء لابن تاشفين على المنابر وفضي المساجد ، وانتشر له فيها ثناء عظيما ، ونشأ له الود في الصدور ، وقد صور يوسف بن تاشفين جوازه الى الاندلس وجهاده فيها فنبى رسالة بعث بها الى الناصريدين الله تعيم بن المعز بن باديس بالمهرية يقول فيها : " ... ولما بلغنا من استحوان النصارى ، دمرهم الله - على بلاد الأندلس ومما قلها ، والزام الجزية لروءسائهم ، واستيصال

-
- (١) المعجب : ١٩٣ ، وانظر تفصيل موقعة الزلاقة في السروض
المعطار : ٨٤ وما بعدها ، ت عباس ، ط لبنان ١٩٧٥ م
(٢) الفرلاقة : ارض بالاندلس بالقرب من قرطبة ، معجم البلدان :
١٤٦/٣ .
(٣) المعجب : ١٩٣ ، ت سعيد الحريان ط القاهرة ١٣٨٣ هـ -
١٩٦٣ م .

أقالمها ويطالبهم البلاد دارا دارا لا يخوفون عسكريا يخرج اليهم ،
فيبدون جمعهم ، ويفل حدهم ، وهم مع ذلك كله يقتلون الشيبان
والشبان ، ويأسرون النساء والصبيان ، فحوظنا عن الجواز الى الاندلس
من جميع الاحواز المرة بعد المرة . . . فصرنا على الغزو وجوزنا
للعدو أسودا ضارية ، وسباعا عادية ، شيئا وشيانا ، بسواعد قوية
وقلوب في سبيل الله نقية ، قد عرفوا الحرب وجربوها ، فهي أهمهم
وهم بنوها ، يتلمظون تلمظ الفهود ، ويذرون زمير الأسود . . . "

وتمضي الرسالة شارحة لكل ما حصل من البطولات الاسلامية ، وامداد الله
سبحانه لهم بالنصر والثبات ، وكيف انهزم النصارى مخلفين وراءهم
الغنيمة الوافرة " فثبت الله أقدامنا ، وقوى أفتدتنا ، والملائكة
معنا ، والله تعالى ولي النصر لنا ، فولوا هارجين ، وفروا ذاهبين .
وتساقط أكثرهم بقدر الله تعالى ، دون طمعة تلحقه ولا ضربة تشخه ،
وأضعف الرعب ايديهم ، فطمعناهم بالسهمية دون الوخر بالابر ، وضاعت
بهم الأرض بما رحبت حتى أن هاريمهم لا يرى شيئا الا ظنه رجلا ،
وفتكت فيهم السيوف على رغم الانوف ، فوالله لقد كانت تقع على
الدروع فتفريها ، وعلى البيضات فتجربها . . . الى أن جن الليل
وأرعى سدوله ، ولوا هارمين ، واسلموا رحايلهم صاغرين ، فكم من
دلاص على البقاع ساقطة ، وخيول على البقاع رابضة ، ولقد ارتبط كل
فارس منا الخمسة الافراس أو أزيد ، وأما البغال والحمير فأكثر من
ذلك ، وأما الثياب والمتاع فناهيك " (١)

وبعد هذا الفتح المبين رجع أمير المسلمين الى مراكش بعد أن تجول
في الأندلس على سبيل التفرج والتتزه ، ويبدو أنه قد راقه منظر الأندلس
وغناها وجودة مناخها وطبيعتها ففكر في الاستيلاء عليها ليمنعها من
النصارى الطامعين ومن عملائهم ملوك الطوائف ، ويروي صاحب المعجب ،

(١) الرسالة كاملة نشرها محمد عبد الله عنان في ملحق كتابه عن دول

الطوائف ، ص ٤٢٤ - ٤٢٨ .

روايات تفيد أن يوسف بن تاشفين كان طامحا في الاستيلاء على الأندلس منذ جوازه الأول اليها ومن ذلك قوله عنه "أ" . . . ورجع السي مراكش وفي نفسه من أمر الجزيرة المقيم العقيد ، وبلغني أنه قال لبعض ثقاته كنت أظن أنني قد ملكت شيئا فلما رأيت تلك البلاد صفرت فسي عيني ملكتي فكيف الهيلة في تحصيلها ؟

وقال عنه أيضا انه كان " يسرحسوا في ارتقاء " " ٢" ولعل في هذه الروايات وغيرها التي تنحو هذا الفص كثيرا من مجانية الصواب ، وسبب ذلك عاطفة المراكشي التي كانت مائلة مع ابن عباد في نكته الاخيرة من نفي له ولعائلته وقتل ولديه المعتد بالله والراضي بالله ، وخاصة أن ابن عباد كان شاعرا كبيرا قال من الشعر في نكته هذه ما يلين له الصخر ويمطف عليه كل من سمعه ، بالإضافة الى أن المراكشي الذي انفرد بهذه الروايات مؤرخ موحدى ، فمن غير المعقول ان يدح -

المرابطين ويذكر نزاهتهم وقاتلهم في سبيل الله ، وهم أعداء الدولة التي يعيش فيها ، كما أن يوسف بن تاشفين لم يكن يقطع أمرا الا بمسند استشارة فقهاء المسلمين الذين كانت لهم الصدارة في الدولة ، واذنا علمنا أن الرجل كان " زاهدا ، يأكل من عمل يده ، عزيز النفس ينيب الى الخير والصلاح ، كثير الخوف من الله عزوجل ، وكان أكبر عقابيه الاعتقال ، مفضلا للفقهاء والعلماء . . . يقضي على نفسه بفتياهم " ٣" اذا علمنا هذا أدركنا أن الرجل لم يكن شهرة شهوة الحكم والسيطرة على البلاد لا استهلاك خيراتها والتمتع بطبقاتها ولو على بحر من الدماء

-
- (١) المعجب : ١٩١ ،
 - (٢) المصدر السابق : ١٩٣ وتأويل المثل أن ابن تاشفين يظهر أنه جاء ليخلص الأندلس ويسرف في نفسه الاستيلاء عليها .
 - (٣) الحلل الموشية : ٨٢ .

والجمام وما الى ذلك .

ومهما يكن من أمر فقد استولى العرابطون على الأندلس وأسقطسوا
حكم الطوائف نهائيا سنة ٤٨٤ هـ ونحمت الأندلس في ظلهم - خاصة
في عهد يوسف - بالأمن والمنفعة حيث كان يهدد ملك الروم بقوله :
" انما كان غرضنا في ملك هذه الجزيرة أن نستقدها من أيدي الروم ،
لما رأينا استيلاءهم على أكثرها ، وغفلة ملوكهم واهمالهم للغزو توكلهم
وتخاذلهم ، وايثارهم الراحة ، وانما همة أحدهم كأس يشربها ،
وقنية تسمعه ، ولهو يقطع به ايامه ، ولكن عشت لاعين جميع البلاد
التي ملكها الروم في طول هذه الفتنة الى المسلمين ، ولا ملأنا عليهم ،
خيلا ورجالا لاعهد لهم بالدعة ، ولا علم عندهم برخاء العيش ، وانما
هم أحدهم ، فرس يروضه ويستفرهه ، أو سلاح يستجيده ، أو صرير
يلبي دعوته " .

ويتوفى يوسف ويأتي من بعده ولده علي فيسير على نهج والديه
في تقريب الفقهاء يقول المراكشي في وصف ولته "٢" : " وكان لا يقطع
أمرا في جميع مملكته دون مشاورة الفقهاء ، فكان اذا ولي أحدا من
قضاته ، كان في ما يعهد اليه الا يقطع أمرا ولا يبت حكومه في صفيير
من الأمور ولا كبير الا بمحضر أربعة من الفقهاء فبلغ الفقهاء في ايامه
مبلغا عظيما لم يبلغوا مثله في الصدر الاول من الأندلس " .

والذي يبدو أن هؤلاء الفقهاء قد استغلوا هذا النفوذ
في التسلط على رقاب الناس والحمل لمصلحتهم الشخصية . فضاقت بهم
أهل الأندلس لأنهم أفقدوهم كثيرا من تلك الحرية بل الفوضى التي كانوا
يعيشونها حيث الخمر والاباحية في القول والفعل ، ولعل من أخطأ
الإدارة المرابطية اعطاء قدر كبير من الحرية للنساء في فتراتهم التالية
ما كان له الأثر السيء على الحكم حيث فقد الناس الثقة التي كانت مسن

(١) المعجب : ٢٢٦

(٢) المصدر السابق : ٢٢٨

قبل لدولة المرابطين والتي قامت على أساس ثابت من الجهاد لنشر العقيدة الاسلامية السحاء خاصة ان هؤلاء النسوة اصبح لهن نفوذ كبير في عهد الولاة المباشرين لشئون الاندلس والذين بعدت الثقة بينهم وبين أمير المسلمين العادل ومن حوله من الفقهاء ، ولمعل هذا كان بداية ضعف دولة المرابطين .

يقول المراكشي "١" : " واستولى النساء على الأموال واسندت اليهن الامور ، وصارت كل امرأة من أكابر عتونه وسونه ، مشتتة على كل مفسد وشريب وقاطع سبيل وصاحب خمر وماخور " .

وهذه الرواية على علاتها نستشف منها ان المرابطين في هذه الاونة قد بدأوا يتشبهون بالاندلسيين في التحضر والحفاية في تزوين البلاط بكل فاخر بشكل يحو آثار بساطة الصحراء الذين تربوا فيها على التدين والجهاد والخشونة ، والترف في العادة - هو نذير الدمار والزوال بالاضافة الى ان بعض أمرائهم جنح الى الاستعداد ، وتفضيل قومه البربر وتفويضهم كثيرا من أمور الهلاك مما كان له الأثر السيء في نفوس أهل الأندلس ومن ذلك ماحدث لاهل قرطبه في سنة خمس عشر وخمسائة مع أميرهم أبو يحيى بن رواد المرابطي حيث ثاروا عليه وعلى جنود المرابطين هناك ونهبوا دورهم وقصورهم ، حتى اضطر أمير المسلمين ان يبعث جيشا من عنده لاختام الفتنة . "٢"

هذه الأحداث السياسية المتتابعة منذ عهد الفتنة البربرية الى حكم المرابطين تركت في النفوس آثارا عميقة جعلت كل فرد يطلب خلاصه في مهرب ومتنفس يوجد له نفسه ، فذهب بعض الناس الى اغراق متاعهم وهمومهم في مجالس الشراب والغناء والاستمتاع بالملذات ، وآخرون فروا الى العزلة والأنطواء بعيدا عن الضوضاء ، ونوع ثالث مضى محتما

(١) المعجب : ٢٤١

(٢) الحلل الموشية : ٨٦ .

بذوى السلطان والجاه ، ونوع رابع أثر الهجرة ليحتر الآمه وعذابه
في صمت ، وقد صور الادب حالات هؤلاء الناس على اختلاف
أنواعهم فنجد الشعر والنثر حفل وكثرة بوصف الخمر ومجالسهم
وساقبها مع الاهتمام بالغزل بالمذكر وغير ذلك حتى تحس بأن
الأندلس كلها حانة كبيرة بجانب ذلك نجد نغمة الحزن والشكوى في
أطار من الفلسفة والزهد ، وأهم ظاهرة اجتماعية تعيننا هنا هي ظاهرة
" الهجرة والجلأ " التي تفسر لنا كثيرا من سلوك أبطال المقامات ،
فأحداث الفتنة البربرية كانت " أجلب لنفاز القلوب ، وقرف الندوب ،
وبعد الشرود ، ونبس الحقود " بل كانت " سببا في تفريق البلاد
وتملك أصحاب الطوائف الذين في عهدهم كان الشر سببا فأصبح أسبابا ،
والناس أحزابا " " ١ " . ويطالحننا هذا الجلاء بشكل واضح عندما
بدأ أهل قرطبة يفرون نجاه بأنفسهم لمختلف البلاد الأندلسية عندما
خربت قرطبه على يد البربر كما كانوا يفرون بأنفسهم أيضا في عهد الطوائف
عندما تسقط مدينة من المدن في يد عدو أجنبي كالنصارى .

أما انسياح العلماء والادباء في عهد ابن تاشفين الى مراكش
لتعميرها علميا وجعلها نضوا لبلاطات الأندلس فقد كان اختياريا وطبقيا
لرغباتهم الشخصية . حتى صارت مراكش محقل الحضارات الإسلامية
في المغرب الإسلامي كله " ٢ " .

وظاهرة الانسياح أو الهجرة هذه سواء كانت اجبارية بسبب الفتن
والحروب والظلم أو لطلب الرزق حددت بوضوح معالم شخصية البطل
المقامي في ثوب الرجل الجوال المغامر بكل أشكاله كاتبا كان أو محاربا
أو أدبيا أو شاعرا فكل له سلاحه وضيده ، ولعل وجود مثل هذه
الشخصية متعددة تفسر لنا تطواف البطل المقامي في مختلف المدن
الأندلسية وخارج الأندلس .

(١) الذخيرة : ٣٥/١/١

(٢) المعجب : ٥٢٧

ولا يسعنا في هذه الدراسة أن نخض الطرف عن سطوة الفقهاء الذين كانوا أعددة الدولة وموضع الشورى للخلفاء والامراء في عهد الخلافة ، ولما سقطت الخلافة خفت حدة سلطانهم وانصرفوا إلى التدريس أو الادب والكتابة ، ولكن عندما استولى المرابطون على الأندلس عاد للفقهاء سلطانهم ، وأصبح الفقيه المشاور حاكما مدنيا إلى جانب القائد المرابطي الذي كان حاكما عسكريا ، وقد أثرى هؤلاء الفقهاء فضاق بهم الناس ومن يحمونهم من الحكام وجاهروهم بالعداء ، وهذا ما يفسر لنا تلك السخرية المريرة بهذه الطبقة في المقامات "٢" ، كما سنرى .

وفي مجال الأدب نجد أن عصر الطوائف - رغم التمزق السياسي - كان من أزهى عصور الاندلس الادبية حيث كان التنافس بين اولئك الملوك أو الامراء الصغار على أشده في تزيين بلاطاتهم بفضائل الشعراء ، والكتاب وقد كان هؤلاء الادباء يجدون من الروية والتقدير الشيء الكثير فكانوا يحضرون مجالس أصحاب الأمر ويذخرون بالصلوات الضخمة ، وتدرج أسماؤهم في سجلات الدواوين وتقرر لهم الارزاق ، وتخلع عليهم الوظائف ، حتى لقد كان الواحد منهم يرتجل المقطوعة القصيرة فيبلغ بها الوزارة . "٢"

ومما زاد الاهتمام في هذا الأمر كون بعض اولئك الحكام - من الشعراء الفحول أو الخطباء والنقاد الكبار ، ويكفي أن يقف الدارس عند سيرة المعتمد بن عباد ملك اشبيلية ، واشهر ملوك الطوائف ليتبين مقدار اتساع سلطان الأدب في عهده .

ثم يحل عصر المرابطين في الاندلس ، فيفقد الأدب كثيرا من هذا

-
- (١) أنظر أخبار الفقهاء في النسخ : ١٩٦/٦ ، والبيان المغرب : ٢٥٤/٢ ، عبد العزيز سالم ، قرطبه حاضرة الخلافة في الاندلس : ١٤٥/١ ، ط بيروت ١٩٧١ م .
(٢) غارسيه غومس ، الشعر الاندلسي : ٤٦ ، ط القاهرة ١٩٥٦ م

التشجيع ويتفهم سلطانه كثيرا ، ليحل محله سلطان الفقه وذلك
تبعاً لطبيعة الدولة التي قامت على أسس اسلامية صرفة ، واتخذت
الجهاد سبيلاً لتحقيق مبادئها وأهدافها ، فمن الطبيعي أن يقبل
الاهتمام بالشعر والادب والفنون ، أضف إلى ذلك أن حكام المرابطين
البربر لم تكن لديهم حاسة التدوق الأنثوي كالعرب الذين كانوا
من قبلهم ، وفي هذا يقول ابن بسام^(١) : " فلما سمعت ذكر ملوك
الطوائف بالاندلس طوى الشعر على قمره وما يورى من حلوه ومره " .
ولم يبق منه " الا نفثة مصدر أو التفاتة مذعور " .

وقد أحس الشعراء والادباء بتأخر رتبهم عن الفقهاء فعبثوا عن
ذلك بأشعار كثيرة كقول الاعشى التطيلي^(٢) :

أيا رحمتا للشعر أقوت بهومسه
على أنها للمكرهيات مناسك
وللشعراء اليوم ثلاث عروشهم
فلا الفخر مختال ولا العز تامك
فيادولة الضيم أجملني أو تجاملسي
فقد أصبحت تلك العرى والمراءك
ويا " قام زهد " أعرضي أو تخارضي
فقد حال من دون المنى : " قال مالك "

(١) الذخيرة ٢٢٨/٢/١

(٢) التطيلي : هو أبو جعفر أحمد بن عبد الله بن أبي هريرة ،
له أدب بارع ، ونظر في الغوامض واسع ، وفهم لا يجارى ،
وزهن لا يجارى ، ونظمه كالسحر الحلال ، ونثره كالنجم الزلال ،
وتوفي سنة ٥٢٥ هـ . المخرب : ٤٥١/٢ ، عن الذخيرة ،
القلائد : ٣١٥ ، نكت الهميان في نكت العميان ، للصفدي ،
١١٠ د . ت . والابيات في ديوان التطيلي ص ٩٠ ،
بيروت ، ت عباس سنة ١٩٦٣

وقد قصد يقام زيد الأديباء ولقوله " قال مالك " الفقهاء حيث كان المذهب المالكي هو السائد في الأندلس . فهذه الحياة المتقلبة تبعاً للاحوال السياسية فرضت على الأديب والأديباء وضعاً معيناً يتكيف فيه الأديب وفقاً لميوله النفسية ولما يلقاه من القبول أو الرفض من أمير بلاده ، أو حاكمها ، ولذلك نجد أديباء وشعراء بلغوا أعلى الدرجات في الدولة من طريق الأديب والشعر ، وآخرون اكتفوا بملازمة بلاط بعينه تمنح لهم رواتب أو مكافآت بقدر خدماتهم وطبقة أخيره - يهمننا أمرها - طافت الآفاق لا يقر لها قرار ، تحل بكل ربح وتأنف الإقامة والاستقرار ، ومن هذه الطبقة نجد أصحاب المقامات ، بل ونجد الزجالين أيضاً ^١ كما نجد أيضاً نزعة من الزهد اكتسى بها أديب هذه الفترة والذي تحول فيما بعد الى مذهب أدبي خلقي ، وكان حقلًا طيباً للفن المقامي ، كما كان من الطبيعي أن تومي مثل هذه الفروق السياسية الى نوع من الهجاء الاجتماعي الحاد والساخر يخفف به الأديباء والشعراء حنطة القهر والصراع في أنفسهم ويتلمسون من خلاله مواطن الداء طلباً للعلاج ، كقول الشاعر السميصر :

رجوناكم فما أنصفتوننا وأملناكمم فخذلتوننا
سنصبر والزمان له انقلاب وأنتم بالاشارة تفهموننا ^٢

-
- (١) يلتقي فن الزجل مع القامة في ثلاثة عناصر : القصص ، الكديه ، وخفة الروح .
- (٢) السميصر : أبو القاسم خلف بن فرج الالهميري ، من أعلام شعراء البيرة ، مشهور بالهجاء والافتداع ، وله كتاب في ذلك ذكره المقرئ في التفتح ٤٩٦/٢ ، يسمى " شفاء الامراض في أخذ الاعراض " ذكره ابن بسام بقوله : كان باقعة عصره واعجوبة دهره وهو صاحب مزودج ، وله طبع حسن . الذخيرة : ٨٨٢/٢/١ ، انظر المغرب : ١٠٠/٢ ، والبيتين في الذخيرة ٨٨٥/٢/١

وقول الشاعر أبي بكر الأبيض من شعراء المرابطين بهاجيم
الفقهاء ويهجوهم دون ترفق^(١)

قل للامام سنا الأئمة مالسيك
نور العيون ونزهة الاسماع
لله درك من همام ماجسيك
قد كنت راعينا فعم الراعي
فضيت محمود النقية طاهسرا
وتركتنا قفصا لشر سبياع
اكلوا بك الدنيا وأنت بمحسزل
طاوى الحشا متكفت الاضلاع
تشكوك دنيا لم تنزل بك بمسيرة
ماذا رفعت بها من الأوضاع

هذه بايجاز شديد لمحة سريعة عن أهم المؤثرات السياسية فسي
عصرى الطوائف والمرابطين وما تنحى عنها من عوامل اجتماعية ونفسية
لعبت دورا هاما في تشكيل الادب بمختلف فنونه الشعرية والنثرية كالرسالة
الادبية والمقامة .

(١) الأبيض : أبو بكر محمد بن أحمد الانصاري ، أصله من قرية همدان ،
وتأدب باشبيلية وقرطبة وهو شاعر مشهور ووشاح ، حسن التصرف
هجا ، ولع بهجا ، الزبير المثلث صاحب قرطبة ، المغرب : ١٢٧/٢ ،
ونذكره صاحب المطرب ص ٧٦ بقوله : كان من فحول شعراء المغرب
المذكورين بالسبق في الشعر والادب ومات بعد سنة خمس وعشرين
وخمسائة . وذكره ابو البحر صفوان وذكر له الابيات المذكورة اعلاه .
انظر زاد المسافر ، ص ١١٣ ، تحقيق عبد القادر محداد ،
ط بيروت ١٩٣٩ م . وانظر الخريدة ق ٤ ج ٢ ص ١٦٠ ،
ونذكر وفاته بعد ٥٣٠ هـ .

الباب الأول

نشأة المقامات في المشرق

أولا : تعريف المقامه لفة واصطلاحا :

المقامة لفة :

لقد عرفت المعاجم القديمة والحديثة لفظة المقامة بتعريف متقاربة ، فمن ذكرها من أصحاب المعاجم القديمة أبو منصور الأزهري ان يقول "١" : مقامات الناس مجالسهم ، ويقال للجماعة يجتمعون في المجلس مقامه ، ومنه قول لبيد :

ومقامة غلب الرقاب كأنهم

جن لدى باب الحصير قيام

ويقال : أقمتم بالمكان مقاما واقامة " .

كما نجد هذا المعنى أيضا عند الجوهري حيث يقول "٢" :

" المقامة بالفتح المجلس ، والجماعة من الناس ، والمقامة بالضم الاقامة " .

وجاء في لسان العرب "٣" : " المقامة المجلس ، ومقامات

الناس مجالسهم ، قال العباس بن مرداس أنشده ابن برب :
فأبي وأيك كان شرا فقيد الى المقامة لا يراها

ويقال للجماعة يجتمعون في المجلس مقامه ، ومنه قول لبيد :

ومقامة غلب الرقاب كأنهم جن لدى باب الحصير قيام

(١) تهذيب اللفظة ، مادة " قوم " ، ٣٥٦/٩ ، ت : يعقوب

عبد الغني ، ط القاهرة سنة ١٣٨٤ هـ - ١٩٦٤ م .

(٢) الصحاح ، مادة " قوم " ، ٢١٧/٥ .

(٣) ابن منظور ، ٤٦٨/١٢ ، ط بيروت ، سنة ١٣٧٥ هـ -

١٩٥٦ م .

وقال زهير :

وفيهم مقامات حسان وجوههم
وأنديه ينتابها القول والفصل

والمقام : الوضع الذي تقوم فيه ، والمقامة : الساده " .
ونفس المعنى ورد في القاموس المحيط " ١ " : " المقامة
المجلس والقوم ، وبالضم الإقامة ، كالمقام ، والمقام ، ويكونان
للموضع " .

وكذلك في تاج العروس " ٢ " : " المقامة المجلس ، ومقامات
الناس مجالسهم .. وأنشد ابن بري ومن المجاز المقامة :
القوم يجتمعون في المجلس ، ومنه قول لبيد " .

أما القلقشندى فيقول " ٣ " : " المقامة في أصل اللغة اسم
للمجلس ، والجماعة من الناس ، وسميت الاحدوث من الكلام مقامه ،
كأنها تذكر في مجلس واحد يجتمع فيه الجماعة من الناس لسماعها ،
أما المقامة بالضم ، فيمعنى الإقامة ، ومنه قوله تعالى ، حكاية عن أهل
الجنة ((الذى أحلنا دار المقامة من فضله)) . " .

وفي مختار الصحاح " ٤ " : " المقامة بالضم الإقامة ، والفتح
المجلس والجماعة من الناس ، وأما المقام ، والمقام ، فقد يكون كل واحد
منهما بمعنى الإقامة ، وقد يكون بمعنى موضع القيام ، لانك اذا -
جعلته من قام يقوم فمفتوح ، وان جعلته من قام يقيم فمضموم ، وقسوله
تعالى : ((لا مقام لكم)) اى لا موضع لكم وقوله ((لا مقام لكم))
بالضم لا إقامة لكم " .

(١) الفيروز آبادى ، ١٦٨/٤ ، ط بيروت ، د . ت .

(٢) الزبيدي ، ٣٩/٩ ، ط بيروت ، د . ت .

(٣) صبح الأعشى في صناعة الاشياء : ١١٠/١٤ .

(٤) الرازى ، مادة قوم ص ٥٥٧

وإذا ما انتقلنا إلى المحاجم الحديثة نجد أنها لم تخرج عن
المعنى المتقدم للفظه في المحاجم القديمة ، ومن ذلك ما جاء في أقرب
الموارد "١" : " المقامة المجلس ، والجماعة من الناس ، جمع
مقامات ، وتطلق المقامات على خطب من منشور الكلام ومنظومه ، كمقامات
الحريري . تسمية للكلام بالموضع الذي يقال فيه ، وفي الأساس : قام
بين يدي الأمير بمقامة حسنة ، ومقامات : بخطبه أو عظة أو غيرها ،
والمقامة بالضم الإقامة . "

وفي المعجم الوسيط "٢" : " المقامة : الجماعة من الناس ،
والمجلس والخطبة أو العظة ونحوهما ، وقصة قصيرة مسجوعة تشتمل على
عظة أو ملحمة كان الأدباء يظهرون فيها براعتهم . "

المقامة اصطلاحاً :

الملاحظ على التعريفات اللفوية السابقة للمقامة ، قد يهملها
وحد يثها أنها تجمع على أن معناها المجلس الذي يجتمع فيه الناس
لسماع ما يدور فيه من حديث وأخبار وقصص وأشعار . .

وقد تطور معنى لفظة مقامة عبر العصور الأدبية حتى أصبح
في القرن الرابع الهجري يطلق على فن محين قائم بذاته له قواعده
وأصوله ، ومرّ هذا التطور بمراحل ثلاث :

الأولى : ترجع إلى العصر الجاهلي حيث تستعمل هذه اللفظة
" المقامة " للدلالة على المجلس الذي هو مجتمع القبيلة
العربية وناديتها ، ودلالة الشعر الجاهلي قاطعة في
تصوير ذلك .

(١) سعيد الرشتوني ، مادة " قوم " ، ١٠٥٤/٢ ، ط بيروت

١٨٨٩ م .

(٢) مادة " قوم " ، ٧٦٨/٢ ، ط القاهرة ١٣٩٢ هـ - ١٩٧٢ م

يقول زهير بن أبي سلمى "١" :

وفيهم مقامات حسان وجوههم
وأندية يفتابها القول والفعل
وان جئتهم ألفت حول بيوتهم
مجالس قد يشفى باحلامها الجهل

المرحلة الثانية :

أطلق لفظ مقامة على الحديث الذي يقام في المجلس ، ويجلس لاستماعه كالخطبة والعظة ونحوهما من منثور الكلام ومنظومه ، فأصبحنا نسمع في أواخر القرن الاول الهجرى عن مقامات الخطباء والزهاد ، ومجالس القصاص والوعاظ ، فأصبحت المقامة كما يقول بروكلمان "٢" :
" تقترن بالشعر والادب وأخبار الوقائع القديمة " ، وربما قالوا مقامة ومجلس لان المحدث قد يلقي بعض حديثه قائما ، وبعضه جالسا ، وكذلك المستمعين بين قائم وجالس "٣"

وكان مدار المقامة عندهم على رواية لطيفة مختلفة تنسب الى بعض الرواة ، ووقائع شتى تعزى الى بعض الأعراب ، لفظها ومبناها مناسب للمقام ، وواف بالغرض الذى من أجله اختلقت الوقائع ما تمخض عنه وضع الروايات والاحاديث الغريبة التي نمت الادب في عصرهم والتي كانت عماد مجالسهم وأنديتهم .

ويقول عاشور : " ولا أكون مبالغا انا قلت ان كثيرا مما جاء به الرواة والعلماء في العصر الأموى وفي صدر الدولة العباسية هو المقامات بعينها . "

(١) ديوان زهير : ١١٣ ، ط القاهرة .

(٢) دائرة المعارف الاسلامية ١٧٢ .

(٣) عبد القادر عاشور ، مقال بمجلة المقتطف (نشأة فن المقامة) ،

مج ٧٧ ، ص ٨٥ ، سنة ١٣٤٩ هـ - ١٩٣٠ م .

المرحلة الثالثة :

في أخريات صدر الدولة العباسية ارتقت المقامات وتأثرت بما
تأثر به الأدب العربي عامة من ألوان الحضارة وضروب الخيال ، فأصبحت
فنا يدون ، ويصنف ، ويراعى في تدوينه وتصنيفه من الديباجة ورشاقة
الاسلوب وترصيعه بالحكم الفائقة والنوادر الرائجة واشتماله على غريب
الالفاظ وشوارد اللفظة ، ونوادر الكلام ليكون ذخيرة لطلاب الانشاء
وزاد الدارسي اللفظة وآدابها مع عدم خلوها من الفكاهات الطريفية
والامثال السائدة ، والقصص التي تزيد في عقل القارى وتبني خياله ،
وتكسبه من التجارب ما يفيد التوقى والحذر والتنبؤ بما يطرأ عليه من
نوازل الايام ونكباتها حتى يأمن الوقوع في شركها .

وفي نهاية القرن الرابع الهجرى حمل الموالي لواء الأدب ،
وكان الاضطراب السياسي على أشده في الدولة العباسية ، من ضعف
الخلافة ، واستبداد الوزراء بالسلطة ، وتميزت طبقات المجتمع السوى
فقراء ، وأغنيا ، وكثر المتسولون ، وأصحاب الكديه ، جنحت المقامة
الى تصوير حالة هؤلاء المكدين الذين كانوا يتوسلون الى الاغنيا بكلام
مسجوع ، وكثيرا ما نجد عندهم أمثال عبارة " أرحموا مقامي هذا "
يريدون الموقف ، ثم صار المقام يطلق على ما يقال من الكلام في تلك
المواقف ،

وبهذا نجد هذا الفن في صورته الفنية النهائية على يد بديع
الزمان الهمداني المتوفى سنة ثمان وتسعين وثلثمائة هجرية ، وقلده
الحريدى المتوفى سنة ست عشرة وخمسمائة .

والى هذا يشير الدكتور زكي مبارك بقوله " ١ " : " ومن الموء كسد

(١) النشر الفني في القرن الرابع الهجرى : ١ / ٢٤٦ ط
بيروت ١٩٧٥ م .

أن بديع الزمان ، حين أنشأ المقامات كان يتمثل مقامات السائلين في المساجد والاشواق ، ولذلك نجد راويته - أبا الفتح الاسكندري - مشردا في جميع الأحيان .

وللباحثين المعاصرين تعريفات موجزة للمقامة ، ومنهم الدكتور محمد غنيمي هلال حيث يقول "١" : " المقامة في الاصل المجلس ، ثم اطلقت على ما يحكى في جلسة من الجلسات على شكل حكاية ذات أصول فنية . وموجز هذه الأصول : أنها حكاية قصيرة يسودها شبه حوار درامي ، وتحتوى على مضامير يرويها راو عن بطل ، وقد يكون هذا البطل شجاعا يقتحم أخطارا وينتصر فيها . "٢

وقد يكون ناقدا اجتماعيا أو سياسيا "٣" ، وقد يكون فقيها متضلعا في مسائل الدين ، أو مسائل اللغة "٤" ، ولكنه في حالاته كلها تقريبا متسول ماكر ، ولوع بالمذات ، مستهتر يحتال للحصول على المال ممن يخدمهم ، ثم هو دائما أديب يجيد في أسلوبه عن بديهة وارتجال ،

أما مارون عبود فيعرف هذا الاصطلاح بقوله "٥" : " اطلقت المقامة في ذلك العصر (اى في القرن الرابع) على قصة خيالية انشئت بعبارة مسجوعة غالبا ، محلاة بأنواع البيان والبديع ، مشتملة على كثير من الغريب . بدأ بهذا النوع من الادب بديع الزمان ، وهذا حدوه

-
- (١) الأدب المقارن : ٢٢٤ ، ط بيروت .
 - (٢) كما في المقامة البشرية للبديع .
 - (٣) انظر المقامة الشيرازية للهمداني ، والمقامات رقم ٩ ، ٤٠ ، ٤٥ ، ٥٠ ، للحريري .
 - (٤) انظر المقامات رقم ٥ ، ٨ ، ٣٠ ، للهمداني ، والمقامات رقم ٣ ، ٣٢ ، للحريري .
 - (٥) أدب العرب : ٣١٩ .

الحريري وغيره ، ولا عيب في هذه القصص الصغيرة الا أنها ترمسي غالبا الى الاحتيال ، وطلب الرزق ، عن طريق النصب ، وهي مفيدة بأسلوبها وحفظها الفاظا كثيرة ، الا أنها غير شريفة المبادئ ، لا تعلم عزة النفس .

والملاحظ على هذين التعريفين ان الاول يقول انها حكاية ذات أصول فنية يسودها الحوار والثاني ذكر انها قصة خيالية ، وحاصل التعريفين يمكن أن يستنتج منه ان العقامة كانت تشكل جسرا كبيرا عبرت عليه القصة الى ماهي عليه الآن ، ذلك لأن العقامة في مراحلها السابقة الذكر تشتمل على مبادئ أو عناصر أساسية في القصة الحديثة ، والعقدة والحوار مثلا وان كانا بشكل غير واضح .

وأما ماجاء في كلام عبود المتقدم من انها غير شريفة المبادئ ، وانها لا تعلم عزة النفس ، فلمله مأخوذ من كلام ابن الطقطقا الذي قال : " المقامات لا يستفاد منها سوى التمرن على الانشاء والوقوف على مذاهب النظم والنثر ، نعم وفيها حكم وحيل ، وتجارب الا أن ذلك مما يصغر الهمة ان هو مبین على السوء والالاستجداء ، والتحليل القبيح على تحصيل النزر الطفيف ، فان نفعت من جانب ضرت من جانب . "

والواقع ان ابن الطقطقا قال هذا الكلام في معرض الافتخار بكتابة الفخرى حين ألفه ، والذي وصفه بأنه فاق كتب الاوائل والأواخر ، وانه جمع فيه من العلوم باحوال السلاطين والوزراء ما لا يوجد في غيره . ومن ثم أنحى باللوم على كل ما كان مشتهرا من الكتب في زمنه وأهمها المقامات .

ولا أدل على ذلك من قوله : " هو الفخرى انفع من المقامات التي الناس فيها معتقدون وفي تحفظها راغبون . . "

أضف الى هذا أن الغرض من كتابة المقامات ليس هو تعليم
الهمة ولا تصوير الاخلاق الفاضلة ، وانما جاءت لتعبر عن الواقع بكل
ما فيه من سعادة أو شقاء ، وبؤس ممثلا في الكدية التي شغلت حيزا كبيرا
فيها وخاصة في مقامات البديع ، كما كان من أهدافها تعليم الانشأ
بتشيط ذهن القارى لها بما فيها من اغراب في اللغة وزخرفة الفاظ
مسجوعه وغير ذلك .

ويعرف عمرضا كحالة المقامة بقوله "١" : " وتطلق لفظة المقامة
اصطلاحا على قصة نثرية وجميزة مشتملة على ملحمة يرويها الكاتب على لسان
شخص فرضي ، وقد تكون طويلة أيضا ، وقد تورد في خلالها أشعار
كثيرة لتزيد المتكلمين قوة ، والمترسلين بلاغة ، ولا بأس بأن تكون
لصاحب المقامة أولفيره ، ومن ملتزمات المقامة أن يضع الكاتب فيها
غرائب اللغات وشواردها ، ويذكر حظا وافرا من الكلمات ، ويكثر عداد
الألفاظ ، ويبدل واضح المقامة كل همتة في تزيينها وتحسينها ، ويأتي
بنوادير التركيب ، ويبالغ في الصناعة اللفظية والمصنوية ، ويزينها بما
استطاع من الحكم والأمثال . وان ملاك المقامات وقوامها قصة حادثة
تقتصر على رجل معين لا تتجاوز منه أبدا وهو خيالي في الأغلب " .

ويبدو أن هذا التعريف من أشمل ما عرفت به المقامة بصورتها
النهائية ، فقد جمع فيه الكاتب معظم خصائص المقامة وقواعدها
الأسلوبية .

ثانيا : أول من أنشأ المقامة :

كان السائد في الأوساط الأدبية الى عهد قريب أن بديع الزمان المهداني أحمد بن الحسين المتوفي سنة ثمان وتسعين وثلثمائة للهجرة هو مبتدع فن المقامات في الأدب العربي ، وحتى اكتشفت حديثا ، اشارات في بعض المصادر القديمة تدل على أن هناك من سبق البديع في هذا المضمار .

ومن ذلك ما جاء في كتاب زهر الآداب عند ذكر المهداني حيث قال " ١ " : " أبو الفضل أحمد بن الحسين المهداني ، بديع الزمان ، وهذا اسم وافق مسماه ، ولفظ طابق معناه ، وكلامه غص المكاسر ، أنيق الجواهر يكاد الهوا يسرقه لظفا ، والهوى يمشقه ظرفا . ولما رأى أبا بكر محمد بن الحسين " ٢ " بن دريد الأزدى أغرب بأربعين حديثا ، وذكر أنه استنبطها من ينابيع صدره واستخبها من معادن فكره ، وأبداها للابصار والبصائر ، وأهداها للأفكار والضائر ، في معارض أعجمية والفاظ حوشية ، فجاء أكثر ما أظهر تنبوء عن قبوله الطباع ولا ترفع له حجبها الأسماع ، وتوسع فيها ، وصرف ألفاظها ومعانيها في وجوه مختلفة ، وضروب متصرفه ، عارضها بأربعمائة مقامة في الكدية تدوب ظرفا ، وتقطر حسنا ، لا مناسبة بين المقامتين لفظا ولا معنى ، وعطف مساجلتها ووقف مناقلتها بين رجلين سعى أحدهما عيسى بن هشام ، والآخر أبا الفتح الاسكندري ، وجعلهما يتهاديان الدر ، ويتنافثان السحر في معان تضحك الحزين وتحرك الرصين ، يتطلع منها كل طريفه ، ويوقف منها على كل لطيفه وربما أفرد أحدهما بالحكاية ، وخص أحدهما بالرواية " .

ومؤدى هذا النص أن بديع الزمان المهداني ليس هو المبتكر لفن المقامات ، وإنما كان يحاكي ابن دريد في أحاديثه الأربعين المذكورة .

(١) الحصرى ، زهر الآداب ، ٣٠٥/١

(٢) هو محمد بن الحسن وليس الحسين كما جاء في نص الحصرى ، انظر : الاعلام : ٣١٠/٦ ، نزهة الالباء : ٩٦ ، خزانة الادب : ١١٩/٢

ويذكر الدكتور زكي مبارك^١ أنه أول من لفت الانتباه الى هذا النص الفريد الذي لم يذكره أى مصدر آخر والذي أثار الدهشة لدى المسيو مارسيه استاذ مبارك وتمجيب من اتفاق الناس الى اليوم على أن البديع هو منشيء من المقامات ، وقد ساءل عن امكانية الشك في نص الحمصى السابق فأجابه مبارك بقوله^٢ : " ان الحمصى تحدث بأسلوب يدل على أنه كان مفهوما في أوائل القرن الخامس أن بديع الزمان انما عارض ابن دريد وحاكاه . . . "

ومما جعله يطمئن الى هذا الرأى أيضا أنه وجد ياقوت الحمصى ينقل هذا النص عن زهر الآداب ويثبتته دون تحليق أو نقد وذلك علامة قبوله^٣ ثم نجد الدكتور مباركا يطلع طه حسين على اكتشافه هذا فيندعش لذلك ويقول^٤ : " ان ابن دريد كان رجلا لغة ورواية ولم يصرف عنه أنه كان كاتبها ممتازا ، فكيف أثار بديع الزمان بما ابتكر من الأحاديث ؟ ؟ ثم عاد فقال : ارجع الى كتاب الأمالي للقالى وانظر الأحاديث التي نقلها عن الاعراب ، فان رأيتة يروى عن ابن دريد - وكان استاذة - فاعلم ان أن الأريحيين حديثا التي ذكر صاحب زهر الآداب انه اخترعها لم تكن شيئا آخر غير هذه القصص التي احتواها مرويه عن ابن دريد من ذلك مثلا حديث البنات اللاتي وصفن أزواجهن ، وحديث العاشق الجميل ، وقصة خنافر الكاهن ، والرواد الذين أرسلتهم مذهج لوصف بعض أقطار الجزيرة العربية ، وكذلك يمكن المضي في استقصاء ما ذكره القالى من القصص العربية المسجوعة ، وان كان هذا لا يعني انها نفس القصص التي عارضها بديع الزمان . "

-
- (١) النشر الفنى في القرن الرابع الهجرى : ٢٤٤/١
 - (٢) نفس المرجع والصفحة .
 - (٣) معجم الأدباء : ١٦٩/١
 - (٤) النشر الفنى : ٢٤٤/١

وبعقب مبارك على هذا الكلام بقوله "١" : " وعندي أن من أسباب غفلة مؤرخي الأدب عن كشف هذا الخطأ ان ابن دريد سمى قصصه أحاديث في حين أن بديع الزمان سمى قصصه مقامات " .

والملاحظ أن مباركا رغم ترجيحه محاكاة البديع لأحاديث ابن دريد إلا انه لايسلم ان كل الاحاديث التي رواها القالي في مواضع شتى من كتابه الأمالي هي التي ذكر الحصري - كما تقدم - بان ابن دريد أغزب بها ، بل انه بصدده اثبات وصول طائفة منها اليها عن طريق أبي علي القالي وكتابه الأمالي ، فيعود للفكرة مرة ثانية ليجليها ، ويحاول دحض كل ما يدور حولها من شكوك وشبهات بادئا بالرد على شكوك الدكتور طه حسين فيقول "٢" : " ان الذي كان يريب الدكتور طه حسين من ابن دريد هو روايته عن عهد الرحمن ابن أخي الأصمعي ، وكان يرى في كلمة ابن أخي الأصمعي ماثرا للشك ، وقد رأيت أن أتمقب هذه الفكرة عند الحربي فوصلت الى أن رواة العسرب كانوا يستعملون مثل هذا التعبير فاننا نجد الاصفهاني ينقل : " حدثني أبو مسلم عن ابن أخي زرقان " .

وكان ماثرا للشك ان عهد الرحمن هذا لم يذكر أحد من أبوه ، وقد وصلت بعد البحث أنه عهد الرحمن بن عهد الله ذكره ابن خلكان "٣" ، وذكره ابن الانباري "٤" من بين من أخذ عنهم ابن دريد وفي معجم ياقوت قال أبو حيان "٥" : " وكان يختلف الى مجلس أبي سعيد علي بن المستنير وكان هذا ابن بنت قطرب " وكلمة ابن بنت قطرب تدل على أنهم كانوا يعطون قيمة لمن يتصل بكبار العلماء اتصال قرابة ، ومثل هذا ما نقل ياقوت "٦" : " حديث يموت بن المزرع عن خاله الجاحظ " .

- (١) نفس المرجع السابق والصفحة .
- (٢) الاغانى : ٦٩/١
- (٣) وفيات الأعيان : ٣٤٠/٢
- (٤) نزهة الألباء : ٢٥٧
- (٥) معجم الأدباء : ٧٨/٦
- (٦) نفس المصدر السابق والصفحة

ثم ينتقل زكي مبارك الى حديث آخر جديد - غير التي ذكرها
من قبل - مركزا على أنه جزء من الأريسين حديثا التي ابتكرها
ابن دريد وذلك هو حديث " حج أبي نواس " يقول " ١ " : " حديث
ابن دريد في حج أبي نواس كتب بطريقة روائية تصلح تمام الصلاحية
لأن تكون أساسا لفن العقامات ، ولست أشك الآن أن هذا الحديث
جزء من الأريسين التي ابتكرها ابن دريد " . وهذا الحديث مشهور
أورده جامع ديوان أبي نواس حمزة بن الحسن الاصبهاني بقوله " ٢ " :
" حدثنا محمد بن الحسن بن دريد ، قال : حدثني مخلد بن
القاسم المعتكي ، قال : حدثني اسماعيل ، قال : قال أبو نواس :
" حججت مع الفضل بن الربيع حتى كنا بارض فزاره في أوان الربيع ،
نزلنا منزلا بازاء باديتهم ، ذاروض أريض ، ونهت غريضي ، وتسررب
كترب الكافور حتى اكتست الارض بحميم نهاتها الزاهر ، واتسرت
بمحض عشيها الناظر ، والتحف بأنواع زخرفها الباهر بما يقصر عنه
النمارق المصفوفة ولا يداني زهرتها الزبابي العثوثة ، فراقت بنضرتها
الأبصار وارتاحت ليزجها القلوب ، واشتاق الى نسيمها الصدور
وابتهجت ببهائها النفوس ، فما لبثنا ان اقبلت السماء فأشفت برهايتها ،
وتداني من الارض ركام حتى اذا كان كما قال حميد بن ابرص :

دان مسف فويق الأرض هيد بسه

يكاد يدفعه من قسام بالسراج

همت السماء برذان ثم بطش ثم برش ثم بوابل ثم هتنت حتى
اذا تركت الربي كالوهاد ربا تقشعت فأقلمت ، وقد عادت الغدران
مترعة تدفق ، والقيمان ناضرة تآلق ، تحديق بحدائق مرنقة ورياس
رايقة وغياض من عرفها فايحة تتحاك بأنواع النورالفضي الذي اذا هممت

(١) النشر الفني : ٢٨٢/١ - ٢٨٣ .

(٢) ديوان أبي نواس : ٥٦ - ٥١ ، ط مصر سنة ١٨٩٨ م

بتشبيهه بشيء حسن اضطرك حسنه الى رده اليه ، فاذا تفت اليه
تضوع طيب لم تجد معولا في الذكاء الا عليه ، فسرحت طرفي را مقسط
في أحسن منظر ، واستنشقت من رباها أطييب من المسك الا نذر شم
قلت لزميلتي : وهيك امض بنا الى هذه الخيمات فلعلنا نلقي بمض من
نوءثر عنه خيرا نرجع به الى بغداد ، فلما انتهينا الى أولها اذا نحن
بخباء على بابها جارية مبرقة تدنو بطرف مريض الجفون ، وسنان
النظر ، قد حشي فتورا ، وطوي سحرا ، قد مدت يدا كأنهما
لسان طائر بأطراف المداري ، وخضاب كأنه عم . . . " وبقية
الحديث ان أبا نواس ورفيقه سحرا جمل الفتاة ، فطلبا منها أن
تسقيهما الماء ففعلت ، وبدأ الحديث والغزل ، ولكن طبول الرحيل
أعجلت أبا نواس عن الظفر بشيء من تلك الجارية ، وعندما رجع من
الحج مرّ بتلك الخيمات فوجد تلك الجارية في رهط من صويحاتها ،
وكلمهن من الجمال والأدب بمكان رفيع ، فحادثن ساعة لعله يظفر
ببغيتته منهن فأظهرن له قبول ذلك ، ثم دبرن له مكيدة خرج على
اثرها يجر أنيال الخزي والخيبة وهربن وتركته .

ثم يقرر الدكتور مبارك بعد ذلك أن " أ " الأحاديث التي
نقلها القالي عن ابن دريد تشتمل على طائفة من القصص المسجوعة
تقرب في وضعها من قصته عن حج أبي نواس وتصلح أيضا أن تكون أساسا
لفن المقامات ، فلا بأس من الاطمئنان الى أنها شطر من الأرميين
حديثا التي عارضها بديع الزمان .

ويعلق الدكتور محمد رجب البيومي على هذا النص بقوله " أ " :
" ان مارواه القالي عن ابن الانباري والاصمعي والكلي وأبي عبيدة
وغيرهم يشمل انماطا من القصص المسجوعة التي تقرب من قصة أبي نواس

(١) النشر الفني : ٢٨٢/١

(٢) مجلة الثقافة المصرية ، عدد ٧٤ ، سنة ١٩٧٩ م ، مقال
بعنوان " من رائد فن المقامة " .

فلم يذهب ابن دريد وحده بفضل الابتكار ؟ ولم لا يكون اذن رواية
القصص المسجوعة كلهم رواة اللبديع ؟ ثم ما معنى لا بأس هذه في قوله
" لا بأس من الاطمئنان الى انها شطر من الأربعمين حديثا " أيكون للكلمة
لا بأس موضع في قضية ذات دليل ؟ "

والحق أن نقد الدكتور البيومي لكلام زكي مبارك جاء في موضفه
ان أن مباركا لم يبين لنا الخصائص الفنية لهذه الاحاديث التي تجعلها
صالحة لتكون اساسا لفن المقامات البديعة ، بل انه اكتفى بذكر
اشتمالها على القصص المسجوعة بدون تفصيل ، ولعله ما يشفع للدكتور
مبارك في تخصيصه ابن دريد دون غيره من كتاب القصص المسجوعة أنه
رأى معظم القصص والحكايات في الأمالي مرويه عن ابن دريد ، وليس
هناك الا القليل تروى عن غيره كالاصمعي وابن الانباري والكبيسي
وغيرهم .

ثم يأتي مبارك بحجة أخرى تؤيد ما ذهب اليه من وصول أحاديث
ابن دريد او بعضها اليها عن طريق كتاب الامالي فيقول " ١ " : " يلاحظ
أن اكثر ما روى القالي عن ابن دريد من الاحاديث جرى على السنة
ناس مجهولين : فأشخاصه يكونون حيناً من الاعراب ، وتارة يكونون من
أقبال اليمن الذين لا يعرف لهم اسم ولا يحفظ لهم تاريخ وأعياناً يكونون
من النكرات التي لا يعرف لها وجود وهذا دليل على الوضع والاختراع " .
ويرد ف هذا بدليل آخر استنبطه من نص الحصري في زهر
الآداب ، ولعله يكون أكثر أدلته وضوحاً ودلالة على فكرته فيقول " ٢ " :
" لاحظ صاحب الزهر أن الاربعين حديثاً التي ابتكرها ابن دريد
جاء أكثرها مما تنسب عن قبوله الطباع ولا ترفع له حججها الاسماع . . .

(١) النشر الفني ، ٢٨٢/١ ،

(٢) نفس المرجع ص ٢٨٣ ج ١

ولو أننا تتبعنا ما نقله القالي من تلك الأحاديث لوجدنا الضميمة والاعراب
ظاهرين فيها كل الظهور ، وربما ساغ لنا أن نفترض أن ابن دريد
تعمد أن يدس في أحاديثه بعض الألفاظ التي أتهم بافتعالها
وتوليدها ، وكان همه إذن أن يجرى ما أتهم بافتعاله على السنة
الأعراب لتسقط عنه تهمة الاختلاق .

وممن أتهم ابن دريد بادخال ما ليس من كلام العرب في كلامها
أبو منصور الأزهرى حيث يقول "١" : " ومن ألف في عصرنا الكتب
فوسم بافتعال العربية وتوليد الألفاظ التي ليس لها أصول ، وادخال
ما ليس من كلام العرب في كلامهم : أبو بكر محمد بن الحسن بن دريد
الأزدى صاحب كتاب الجهميرة ، وكتاب اشتقاق الاسماء ، وكتاب
الملاحق وحضرته في داره ببغداد غير مرة ، فرأيته يروى عن أبي حاتم
والرياشي ، وعند الرحمن بن أخي الأصمعي ، فسألت ابراهيم بن محمد
ابن عرفه المقلب بنفطويه عنه ، فاستخف به ولم يوثقه في روايته .

وقال عنه المسمودي "٢" : " . . . وأورد أشياء في اللفظة لم
توجد في كتب المتقدمين " وما ذكره ابن خلكان في ترجمته لابن
فريد قوله "٣" : " كان واسع الرواية لم ير أحفظ منه ، وكانت تقرأ
عليه دواوين العرب فيسابق الى تمامها من حفظه ، وسئل عنه الدارقطني
أثقة هو أم لا ؟ فقال : تكلموا فيه ، وقيل انه كان يتسامح في الرواية
فيسند الى كل واحد ما يخطر له ، قال الأزهرى : دخلت عليه فرأيته
سكرانا فلم أعد اليه ، وقال ابن شاهين : كنا ندخل عليه ونستحي
ما نرى من العيدان المعلقة والشراب المصفى .

-
- (١) مقدمة تهذيب اللغة : ٨ ، ط القاهرة سنة ١٩٦٤ م ، تحقيق
عبد السلام هارون .
 - (٢) مروج الذهب : ٣٢٠/٤ ، ط بيروت ، سنة ١٩٧٣ م
 - (٣) وفيات الاعيان : ٣٢٦/٤ ، ط بيروت ، تحقيق احسان عباس .

ومن هذه النصوص يتضح لنا أن ابن دريد كان يدخل في لفظة العرب ما ليس منها ، ويولد الالفاظ التي تروى غليله فسي طلب وتتبع غريب اللغة ، كما أنه كان غير ثقة ، سكيراً ووضاعاً يضع الكلام وينسبه الى من شاء من الاعراب ، فلا يستبعد ان أن تكون هذه الأحاديث المذكورة أو بعضها هي احاديث ابن دريد التي أشار اليها صاحب زهر الآداب خاصة حديثه عن الرجل الذي "١" من مقال حمير ، وما بينه وبين ابنه عندما كبرت سنه وفيه حوار يدور على اسئلة من جانب الأب يجيب عليها الابنان ، وذلك عن أحب الرجال اليهما ، والنساء ، والحياد ، والسيوف . . . الخ ونجد هنا أن هدف هذا الحديث هو الوصف المقصود لذاته ، لذلك نلاحظ حشداً ضخماً من الصفات لكل ما تقدم تظهر فيها الصنعة اللفظية والحسنات البديعية بالاضافة الى ما حوته من غريب الالفاظ ، وحديثه أيضاً عن قيل من أقوال حمير "٢" منع الولد دهرًا ثم ولدت له بنت فبنى لها قصراً ووكل بها نساءً من بنات الاقيال يوم بنها ، ويخذ منها حتى كبرت ، فأشرف عليها بالزواج . الخ وهو يسير أيضاً على نفس الاسلوب الذي اتبعه ابن دريد في الحديث السابق ، وربما ان بديع الزمان الهمداني قد اطلع عليها فاستهوتته فعارضها بمقاماته ، ولكن قد يرد اعتراض على هذه الروايات ، وهو ان ابن دريد يروي هذه الاحاديث عن أشياخه بسند طويل ، فكيف يقال انه استخرجها من ينابيع صدره ، واستخبها من معادن فكره ؟

فمثلاً نجد في الحديث الأول المذكور في أعلى الصفحة يروي ابن دريد بالسلسلة التالية "٣" "حدثنا الاشعناناني عن التوزي عن ابي عمر بن العلاء" . والثاني قال ابن دريد "٤" : "اخبرنا

(١) القالي ، الامالي : (١/٤٥٢ - ١٥٤) ط بيروت - سنة

١٣٩٨ هـ - ١٩٧٨ م .

(٢) نفس المرجع ج ٢ ص ٨٠ - ٨١

(٣) نفس المصدر السابق : (١/١٥٢) .

(٤) المصدر نفسه : ٨٠/٢ .

السكن بن سعييف عن محمد بن عباد عن ابن الكلبي عن أبيه * ،
وحدِيث خناظر الكاهن عن ابن دريد قال "١" : " أخبرنا عبد الرحمن
عن عمه " ، وحدِيث الحجّ أبي نواس مروى عن ابن دريد قال "٢" :
" حدثني مخلد بن القاسم العتكي قال ؛ حدثني اسماعيل " .
ويمكن المضي مع باقي الأحاديث على هذا النحو كحدِيث البنات الثلاث
اللواتي وصفن أزواجهن ، وحدِيث رسل مذحج وغير ذلك ، على
أن الدكتور مبارك لم يتنبه إلى هذا الأمر ، ولكن لعلنا نستطيع القول
أن هذا السنن الذي يأتي به ابن دريد مأهول مجرد ستار يضيفه
على قصصه وأحاديثه ليقبلها الناس وليسلم من تهمة الاختلاق كما مر
سابقا ، أضف إلى ذلك تأخر ابن دريد بطريقة رواة الحدِيث النبوي
الشريف .

والى هذا يعيل الدكتور شوقي ضيف حيث يقول : " . . . فابن
دريد يبدأ أحاديثه دائما بالسند ، وفي نص الحصرى السابق ما يشير
إلى أن أحاديث ابن دريد من مخترعه ، ومحتوى ذلك أن سندها ممن
مقترحه ، وكان ابن الكندي وغيره ممن يسند إليهم أحاديثه ليسوا أكثر
من رمز إلى سنة الرواة ، أما في حقيقة الأمر فلا رواية ولا راو وإنما هي
من عمل ابن دريد ومن نسج خياله . " ، وإذا جازلنا أن نعترض
على الدكتور مبارك في قوله أنه أول من اكتشف نص الحصرى السابق
ولفت الانتباه إليه وبنى عليه بالتالي سبق ابن دريد إلى ريادة فن
المقامات ، وذلك أن النص المذكور في شرح الشريشي لمقامات الحريري "٤"

-
- (١) المصدر نفسه (١/٣٨) .
 - (٢) ديوان أبي نواس : (٥١) ، ط القاهرة ١٨٩٨ م
 - (٣) كتاب المقامة : ٢٤ ، ط القاهرة ١٩٢٦ م
 - (٤) انظر ج ١ ص ٢٤ .

وفي وفيات الأعيان "١" ، وفي معجم الأديباء "٢" ، فلم يكن النص
اذن مخبواً في مكان يصعب الوصول اليه .

كما أننا يمكن أن نستدرك عليه بعض الاحاديث الدريدية التي
لم يشر اليها مع أنها قرية الشبه جداً بالمقامات بل يمكن القول أنها
تصلح لأن تكون من أصول المقامات وبالتالي يترجح أنها جزء من
احاديث ابن دريد الاربعين ، ومن ذلك ما نقله ابن خلكان بقوله "٣" :
" قال المرزباني : قال لي ابن دريد : سقطت من منزلي بفارس ،
فانكسرت ترقوتي فسهرت ليلتي ، فلما كان آخر الليل غمضت عيني
فرايت رجلاً طويلاً أصفر الوجه كوسجا ، دخل عليّ ، وأخذ
بعضادتي الهاب وقال : أنشدني أحسن ما قلت في الخمر ، فقلت :
ماترك أبونواس لأحد شيئاً ، فقال : أنا أشعر منه ، فقلت : ومن
أنت ؟ قال : أنا أبو ناجيه من أهل الشام وأنشدني :

وحميراً قبل المزج صفيراً بمسده
أتت بين ثوبي نرجس وشقائق
حكمت وجنة المشوق صرفياً فسلطوا
عليها مزاجياً فأكست لون عاشق

فقلت له : أسأت ، فقال : ولم ؟ قلت : لاني قلت حميراً
فقدت الحمرة ، ثم قلت : " بين ثوبي نرجس وشقائق " فقدمت الصفرة
فهلا قدمتها على الأخرى ، فقال : ما هذا الاستقصاء في هذا الوقت
يا بغيض ؟ ،

(١) ١٩٧/١ تحقيق عباس .

(٢) ج ١ ، ص ١٦٩ .

(٣) وفيات الأعيان : ٣٢٧/٤ ، المرزباني ، نور القبس ،
ص ٣٤٣ ، تحقيق رودلف زلهاميم ، ط بفسيدان ، سنة

وجاء في رواية أخرى أن الشيخ ابا علي الفارسي النحوي قال :
أنشدني ابن دريد هذين البيتين لنفسه وقال : جاءني ابليس في
المنام ، وقال : أغرت علي ابي نواس ؟ فقلت : نعم ، فقال :
أجدت الا أنك أسأت في شيء ثم ذكر بقية الكلام الى آخره .

هذه الحكاية التي صنعها ابن دريد تذكرونا بالمقامة الابليسية^(١)
من مقامات بديع الزمان الهمداني التي تدور حول لقاء تم بين عيسى بن
هشام زاوي مقامات الهمداني وبين شيخ يجلس في أرض خضرة مصردة
الأنهار - وذلك في أثناء بحث الأول عن ابل له أضلها - فيسأل
الشيخ ابن هشام أن ينشد له ما يحفظ من أشعار العرب ، فأنشد
له من شعر امرئ القيس ، وطرفة وابيد وغيرهم ، فلم يطرب فحشيء
من ذلك ثم ينشده الشيخ من شعره :

بان الخليط ولو طوحت ما بانسا

وقطعوا من هبال الوصل أقرانا

فيتعجب عيسى بن هشام منه ويقول : " يا شيخ هذه القصيدة
بجرير قد حفظها الصبيان ، وعرفها النسوان ، وولجت الأهنبية ،
فيخبره انه هو الذي أملاها على جرير ، وأنه الشيخ أبو مره شيطان
جرير " .

ومن المقارنة بين النصين يتضح الشبه الكبير بينهما من ناحية
الاسلوب ، والهدف الذي هو تحقيق فكرة شياطين الشعراء واملائها
الشعر عليهم ، وهي فكرة قديمة آمن بها العرب في الجاهلية .

(١) محمد محي الدين عبد الحميد ، شرح مقامات الهمداني :
٢٥٣ ، ط القاهرة ١٣٨١ هـ ، ١٩٦٢ م .

وكذلك حديث ابن دريد من سؤال الاعرابي في المسجد الجامع
بالبصرة ، رغم قصره الا انه يشبه الى حد كبير سؤال أبي الفتح الاسكندري
- بطل الهمداني - في المقامة البخارية ، ولناخذ نمونجا من كسل
قال أبو علي القالي "١" : " حدثنا أبو بكر رحمه الله قال :
أخبرنا أبو حاتم عن أبي عبيدة عن يونس قال : وقف اعرابي في المسجد
الجامع بالبصرة فقال : قل النيل ونقص الكيل وعجفت الخيل ، والله
ما أصبحنا ننفخ في وضح "٢" ، ومالنا في الديوان من وشمه ، واننا
لعيال "٣" جربته ، فهل من مصين ، اعانه الله ، يعين ابن سبيل
ونضو طريق وفك سنه ، فلا قليل من الأجر ولا غنى عن الله ولا عمل
بعد الموت ، "

وفي المقامة البخارية ، حدثنا عيسى بن هشام قال رُفِعَ : " اجلني
جامع بخارى يوم وقد انتظمت مع رفقة في سمط الثريا ، وعين احتفل
الجامع بأهله طلع اليثاندو طمرين ، قد أرسل صوانا واستتلى طفلا
عريانا يضيق بالضر وسعه ، ويأخذه القر ويدعه ، لا يملك غير القشرة
بردة ، ولا يكفي لحماة وعده ، فوقف الرجل وقال : لا ينظر لهذا
الطفل الا من الله طفله ، ولا يرق لها الضرا الا من لا يأمن مثله ،
يا أصحاب الجدود المفروزة ، والاردية المطروزة ، والدور المتجره ،
والقصور المشيدة ، انكم لن تأمنوا حادثا ، ولن تخدموا وارثا ، فبادروا
الخير ما أمكن ، وأحسنوا مع الدهر ما أحسن ، فقد والله طعمنا السكاج "٥

-
- (١) الامالي : ١٩٧/٢ .
 - (٢) الوضح : اللين سعي كذلك لبياضه ؛ انظر اساس البلاغة :
 - مادة وضح ص ١٠٢٧ .
 - (٣) الجربه : الجماعة ، عيال جربة أي المتساوون في الكبير
فلا صغير فيهم . لسان العرب (مادة جرب) ج ١ ص ٢٦٢ ،
ط بيروت سنة ١٣٨٨ هـ - ١٩٦٨ م
 - (٤) شرح مقامات الهمداني : ٩٥ - ٩٦ .
 - (٥) السكاج : لحم يطبخ بالخل ، المهلاج ؛ الدابة السريعة في
سيرها ، انظر المصدر السابق ونفس الصفحة .

وركبنا الهملج ولبسنا الديباج ، وافتشنا الحشايا بالعشايا ، فما
راعنا الا هبوب الدهر بفدوره ، وانقلاب العجن لظهره " . . .
فالتشابه واضح في عرض حال كل من السائلين فكلاهما يشكرو
تقلبات الأيام التي اضطرتهم الى السووال بعد أن كان من أهل النعمية
واليسار كما نلاحظ التقارب في استعمال السجعات القصيرة الحادة
مع ميل ابن دريد الواضح الى البحث عن الغريب ، بينما يعيل البديع
الى وصف الكدية واساليها حيث أنها أصبحت صناعة في عصره ، فالشيخ
السائل يسحب خلفه غلاما أشعث أغبر كي يثير الشفقة والعطف من
الناس لتمنال عليه الدراهم ، ولعل الهدف عند الاثنين كان تلميحيا
ولكنه عند البديع يمتزج بتصوير حالات المجتمع وما يدور فيه من أمور
سياسية واجتماعية أهمها ظاهرة الكدية والتسول .

وهناك أيضا حديث وصف الفرس الذي جاء في الامالي يشبه الى
حد كبير وصف الفرس في المقامة الحمدانية .

ففي الحديث ، قال ابن الاعرابي واصفا أعضاء الفرس : " ١"
" التسعة الطوال عنقه وخذاه ووظيفه رجله ويطنه وذراعه وفخذه . . .
وتسع غلاظ . . . والسبع الرقاق . . . وعريض الثمان . . . الخ " .
وفي مقامة البديع المذكورة يقول : " ٢ " " طويل الاننين ، قلييل
الاثنين ، واسع المراث ، لين الثلاث ، غامض الاربع . . . لطيف
الخمس . . . رقيق الست . . . غليظ السبع . . . عريض الثمان . . .
قصير التسع . . . بعيد العشر . . . الخ " .

وهكذا يمكن للباحث أن يجد كثيرا من الاحاديث ذوات الصلة
بالمقامات كحديث الاعرابي السائل في المسجد الحرام " ٣ " المسروى

-
- (١) الامالي : ٢٥٢/٢ - ٢٥٥ .
(٢) شرح مقامات الهمداني : ٢٠٩ .
(٣) الامالي : ١١٣/١ .

في الامالي ، وحديث المرأة التي سكنت الهادية قريبا من قيسور
أهلها "أ" وغير ذلك .

ولعل الذي جعل الباحثين يترددون في الجزم بأن الهمداني
حاكي أحاديث ابن دريد هو اختلاف وحدة الموضوع بين الاحاديث
والمقامات ، ذلك أن احاديث ابن دريد لا يربط بينها من ناحية الموضوع
وهذا راجع الى الهدف التي صيغت من أجله الاحاديث وهو تتبع
وطلب شوارد اللغة وغيرها بينما صيغت المقامات على نمط واحد ،
وبأسلوب واحد تهدف بجانب تعليم الانشاء الى تصوير واقع حياة
الناس كما يظهر ذلك من تقلبات شخصية ابي الفتح الاسكندري بطول
المقامات الهمدانية ، ولعل هذا هو الذي حدا بالدكتور عبد الوهاب
عزام الى القول "أ" : () وفي كتب الادب كثيرا من القصص الصغيرة
المصنوعة في اسجاع مختارة ، وكلمات منتقاة ، ولكن مهما يقل فبديع
الزمان فيما نعرف ، مخترع هذه القصص الخيالية التي عرفت في
الادب العربي باسم المقامات ، وأما روايات اللغويين فقد رويت على
أنها حقائق ، واريد بها رواية اللغة قبل أي شيء آخر ، وحديث
الراوي فيها مرسل لا صناعة فيه ، ولا يقصد في الرواية على حين يستوى
في القامة او يتقارب من حيث البلاغة والقصاحة حديث عيسى بن هشام
وكلام الاسكندري .

ونذهب بعض الادباء والنقاد الى أن بديع الزمان الهمداني كان
محاكيا او مقلدا لاديب ظهر في عصره هو ابوالمظهر الازدي في حكاياته
"أبي القاسم الهمداني" وأبوالمظهر هذا رجل غامض التاريخ
والسيرة فلم استطع العثور على شيء من أخباره في كتب التراجم القديمة

-
- (١) المصدر السابق ج ٢ ص ٧٠
(٢) مجلة الرسالة ، مج ١ ، العدد ٤٦ ، مقال بعنوان :
(بديع الزمان الهمداني) ص ٨٦٢ ، السنة الثانية ١٩٣٤ م

والحديث الا اني وجدت بعض اخباره وطرفا من حكايته تلك في كتاب
النثر الفني لزكي مبارك^١ الذي يشير الى ان الازدي كان يعيش
في صميم القرن الرابع ، وأنه الف هذه الحكاية في أواسط القرن الرابع
لانه يتحدث فيها عن مجلس أنس قضاء مع ابن الحجاج واليمقوي
وابن سكره وهو " من أهل القرن الرابع ، أما عن الحكاية فيقول
مبارك^٢ : " وليست حكاية أبو القاسم البغدادي التي وضعها
أبو المظهر الازدي الا فنونا من القول أراد بها وصف المجون وتصوير
الماجنين من أهل بغداد وأصفهان . . . وهي مجلس واحد يطرد فيه
القول من فن الى فن في دعاية وظرف ، وأبو القاسم بطلها رجل جمع
أدوات النصب والاحتيال والنفاق ، وهو يشبه من بعض الوجوه ابنا
الفتح الاسكندري في مقامات بديع الزمان ، فانا نراه يداوى أهل المجلس
ويناقهم فيليب ثوب التقى والصلاح ، حتى اذا رأهم على استعداد للمهزل
انقلب لاعبا متمردا عارفا بفرائب الخلاعة والمجون " . أما عن منهج
الازدي في حكايته فيقول^٣ : (. . . أما الذي اختاره من الادب
فالخطاب البدوي ، والشعر القديم العربي ، ثم الشوارد التي اقتترعتها
خواطر المتأخرين من اعلام الادباء والنوادر التي اخترعتها قرائح المحدثين
من أعيان الشعراء ، هذا الذي أحصله من أدب غيري وأقتنيه وأتحملي
بهوأدعيه ، وأرويه من ملح ما تنفسوا فيه ، ويصدق شاهد على
اسفار لنفسي دونتها ورسائل سيرتها ومقامات حضرتها ، ثم أن هذه
حكاية عن رجل بغدادى كنت اعاشره برهة من الدهر فيتفق منه ألفاظ
مستحسنة ومستخشنة ، ومجارات من أهل بلده مستفضة ومستفضحة ،
فأثبتها خاطري لتكون كالتذكرة في معرفة أخلاق البغداديين على
تباين طبقاتهم ، وكالانموذج المأخوذ عن طاداتهم وكأنها قد نظمتهم
في صورة واحدة يقع تحتها نوعهم ، وتشترك فيها أشخاص ذلك النوع على
أحد واحد بحيث لا يختلفون فيه الا باختلاف المراتب " .

(١) النثر الفني : ٤١٦/١ - ٤٢٢ .

(٢) نفس المرجع : ٤١٧/١ .

(٣) نفس المرجع والصفحة .

ويتضح من هذا أن مؤلف هذه الحكاية يقصد الى تصوير جانب من حياة البغداديين وهو جانب العبث والمجون الذى شاع في عصره ، ولعله هنا أشبه البديع في أخذه جانب من حياة مجتمعه وهي الحكاية التي أدار عليها مقاماته ، ولكن الخلاف في الشكل واضح فحكاية الازدى رواية تتسلسل حوادثها بتتابع موضوعي مطرد بينما مقامات البديع مشاهد متعددة ومختلفة وكثيرا ما تنسب المقامة الى البلد التي يجوبها ابو الفتح الاسكندرى ، كالبغدادية والكوفية والاهوازية والانديجانية ... الخ .

وانا أتينا لاستعراض هذه الحكاية نجد أن بطلها أبا القاسم البغدادى يقضى يوما كاملا ابتداء في دار أحد الأكابر باصفهان حيث دخل متاوتا يظهر النسك والتقوى ويحيى بالسلام في خشوع ويقرأ آيات القرآن ... ثم يعلم أن رواد المجلس من الشيعة فيأخذ في مدح الامام علي كرم الله وجهه ثالبا معارضيه ... ثم يسأل عن صاحب الدار فيوصيه بوصايا الكرم والتبذير ويدعو الى المبالغة في الأكل والمشرب استكمالا للسعادة ، داعيا الى معاقرة الخمر والتمتع بالجوارى والغلمان ، ثم ينتقل الى سب اصفهان وأهلها شعرا ونثرا ، وهو لا يزال ضيفا عند كرامها ويمدح بفداد ... ثم العكس يمدح اصفهان ويذم بفداد ... وهكذا تستمر الحكاية على هذا النحو المتهتك ، ثم نرى أبا المطهر يرينا صورة من صور النفاق الاجتماعى حيث جعل أبا القاسم يتصدر مجلسا يلقي فيه حديثا فيميل الى من يجلس عن يمينه ويقول "أ" : " ياسيدنا ذوالله ليس كلام البشر انما هو سحر يولسه القلوب والاسماع ، كلام والله كهو الشراب ، ويرد الشباب ، بل كالنسيم الحاضر ، والشباب الناضر ، قطع الزهر ، وعقد السحر ، ماهو الا كالبشرى بالولد الكريم الى سمع الشيخ الحقيم ، حسن الديباجة صافي الزجاجة ، حلو المساغ ، يعافى به المريض ، ويجبر به المهيب ... "

فيقول الذي على يساره : في أي شيء أنتم ؟ فيفهم اليه بعينه ويقبل عليه ويقول : " ياسيدنا ، أنا في محنة صليماً بلا طاقية شعر ، في كلام اثقل من الجندل وأمر من العنظل ، هذيان المحموم ، وسواد المهوم ، لمثله يتسلى الاخرس عن كلمه ، ويفرح الاصم بصمه ، كلام والله يصدى الخاطر ، ان لم يحش الناظر . . . " .

ثم يأخذ المتحدث فينشد شعراً ، فيلتفت البغدادى الى الذي عن يمينه ويقول " ١ " : اعينه بالله ؟ ما أصفى نظره وأنقى دهره ، واغزر بحره ، وأحكم نحته ونحره ، لو جعل خلعه على الزمان لتحلى بها مكثراً ، وتحلى فيها مفاخرها ، شعر والله يختلط بأجزاء النفس ، الأذان والله تصير أصدافاً لهذا الدر .

ويلتفت عنه مرة أخرى الى صاحبه الايسر ويقول : " ياسيدنا : أما كنت تسمع ذا الشعر البارد العبارة ، الثقيل الاستعارة وتلك الاشارة الفاترة ، ياسيدنا بلا حلاوة ولا طراوة ، ليس الا اقواء وابطاء وأخطاء لو شعر ، اعزه الله بالنقص لما شعر " وهكذا يستمر الحديث الذي يظهر فيه البطل بمواقف متناقضة حسب ما يقتضيه حاله فيمدح الشيء ثم يذمه في نفس الوقت . حتى ضجر منه أهل المجلس وتشاوروا في الخلاص منه ، فيلجأون الى اتخامه بالشراب حتى يهمد ثم يفيق ، فيتبين مشاعر الكراهية في جلسائه ، فيصبح بهم ياكلاب ، يانئاب ، يايهود يابقايا عاد وشمود . . وما يزال يهذى حتى تألق نور الصباح فيصبح : مرحباً بالنهار الجديد والكاتب الشهيد ، ثم يعابث الجماعة بالنكات قبل أن يفارق غير مشكور .

وفي وصف الثقيل يقول : " يا أول ليلة الخريب ، انا بعد الحبيب ، ياطلعة الرقيب ، يايوم الاربعا في آخر صفر ، يالقاء الكابوس في وقت السحر ، ياخراجا بلاغله ، وياسفرا مقروننا بعله ، يا أبغض

من قدح اللبلاب في كف المريض ، وأنكر من نظر المفلس في وجهه
الغريم البفيض . . الخ " .

كما يصف أيضا جمال النساء والغلمان بأوصاف حوت كثيرا ممن
ألوان المجون والخلاعة . ويقول زكي مبارك معلقا على حكاية الأزدى " أ :
" وفي الكتاب قصص كثيرة عن مجون أهل بغداد وخلاعة مغنيهم
، وأوصاف ساهخة لسهراتهم وجالس لهوهم وأنسهم ،
ذلك كله بأسلوب جميل جذاب يحمل القارئ على تشهيه اللهو
والمجون .

وكأنما أراد المؤلف أن يجعل تلك القصة مرجعا لاكثر المعاني
الهزلية ، فلم يترك بابا من أبواب الدعابة الا طرقه ، ولم يدع معنسى
من معاني الخلاعة الا ألم به ، وأحسبه حشر في كتابه أقدر ماروى من
الشعر الماجن الخليع .

ولعلنا من هذه النصوص نلاحظ ان هناك بعض الشبه فسي
الاسلوب بين حكاية الأزدى ومقامات الهديع من ناحية التزام السجع
واستعمال المحسنات كالازدواج ولطيف الجناس والطباق بالاضافة
الى البراعة في الظهور بالمواقف التي يتطلبها المكان أو الزمان الذي
يكون فيه البطل ، واجادة الوصف اجادة تامة كما رأينا في وصف الأزدى
للثقل فقد استعمل في ذلك كل محفوظة من الاوصاف والامثال المشهورة
عند الناس كقوله : " أخلق من طيلسان ابن حرب " أبرد من الشمال
في كانون ، أقدر من طين السماكين . . الخ " .

كما أن مواقف أبي القاسم البغدادي وتصرفاته مع الناس تشبهه
مواقف أبي الفتح الاسكندري الى حد ما .

يقول الدكتور العماري "١" : " ولعل التشابه في التسمية بين هاتين الشخصيتين الخرافيتين بالإضافة الى تشابه الافعال ، له دلالة على التأثير والتأثير " .

وهناك عملا آخر ربما استمد منه الديدع زادا لمقاماته ، ذلك هو حديث الجاحظ عن أهل الكدبة واصنافهم وأوصافهم ونواديرهم وغير ذلك ، فنجد من اصنافهم مثلا "٢" : " المخطراني : الذي يأتيك في زى ناسك ، ويريك ان بابك قد قور لسانه من أصله لانه كان مؤذنا هناك ، ثم يفتح فاه كما يفتح من يتثاقب ، فلا ترى له لسانا البتة ، ولسانه في الحقيقة كلسان الثور ، وأنا أحد من خدع بذلك ، ولا بد للمخطراني أن يكون معه واحدا يعبر عنه او لوح أو قرطاس قد كتب فيه شأنه وقصته ، والكاغاني : الذي يتجنن ويتصارع ويزيد ، حتى لا يشك انه مجنون لا دواء له لشدة ما ينزل بنفسه وحتى يتعجب من بقاء مثله على مثل علقته ، والبانوان : الذي يقف على الباب ، ويسد الفلق ، ويقول : بانوا ، وتفسير ذلك بالعربية : يامولاي ، والقرسي : الذي يعصب ساقه وذراعه عصبا شديدا ويبيت على ذلك ليلة ، فاذا تورم واختنق الدم مسحه بشي من صابون ودم الأخوين (نبات أحمر) وقطر عليه شيئا من سمن ، وأطبق عليه خرقة ، وكشف بعضه ، فلا يشك من رآه ان به الاكله أو يليه شبه الاكله . والمشقب . . والفلو . . والعواء . . الى آخر هذه الاصناف الكثيرة . " .

ويذكر البيهقي في هذا المجال فصلا طويلا يروي عن الجاحظ ، ويبدأه بمحاورة بين شيخ من أهل الكدبة وشاب منهم حديث العهد بهذه الصناعة ، وقد سأله الشيخ عن حاله ، فسب الكدبة وصناعتها ، فغضب الشيخ وثار لصنمته وأخذ يتحدث عن فضلها وشرفها ويصف حال المكدي بقوله "٣" : " . . . فهو على بريد الدنيا ومساحة

-
- (١) مجلة الأزهر ، حج ١٦ : ص ١٣٥ - ١٣٧ سنة ١٣٩٤ هـ .
 - (٢) البخلاء : ٧٦ - ٧٨ ، ط بيروت .
 - (٣) المحاسن والمساوي : ٥٨٠ - ٥٨٢ ، ط بيروت ١٣٩٠ هـ .
- ١٩٧٠ م .

الأرض ، وخليفة ذى القرنين الذى بلغ المشرق والمغرب حيثما حل
لا يخاف البؤس ، يسير حيث شاء ، يأخذ أطايب كل بلدة ، فهو
رضي الحال ، حسن البال ، لا يفتن لأهل ولا مال ، ولا دار ،
ولا عقار

ثم يقص على الشاب انه دخل بعض بلدان الجبل ووقف فسي
مسجدها الأعمم وعليه فوطة قد ائتزربها وتحم بحبل من ليف ويده
عكاز فنادى في الناس فاجتمعوا اليه فقال " ا " : " يا قوم : رجل من
أهل الشام ، ثم من بلد يقال له المصيصة ، من أبناء الغزاة المرابطين
في سبيل الله من أبناء الركاضه وحرسه الاسلام ، غزوت مع والدى أربع
عشرة غزوة ، سبعا في البحر وسبعا في البر ، وغزوت مع الأرمي :
قولوا رحم الله ابا الحسين ، ومع عمر بن عبيد الله قتلوا رحم الله
ابا حفص ، وغزوت مع البطل بن الحسين ، والرزداق بن مدرك ،
وعمدان بن أبي قطيفة ، وآخر ما غزوت مع يازمان الخادم ، ودخلت
القسطنطينية ، وصليت في مسجد مسلمة بن عبد الملك ، من سمع باسمي
فقد سمع ، ومن لم يسمع فأنا أعرفه نفسي ، أنا ابن الغزيل بن الركان
المصيصي المعروف المشهور ، في جميع الشخور ، والضارب بالسيف ،
والطاعن بالرمح ، سد من أسداد الاسلام ، نازل الملك على باب
طرسوس ، فقتل الذراري وسبى النساء واخذ لنا ابنان ، وحملوا الى
بلاد الروم فخرجت هاربا على وجهي ، ومحيي كتب من التجار فقطع
علي ، وقد استجرت بالله ثم بكم ، فان رأيتم أن تردوا ركننا من أركان
الاسلام الى وطنه وبلده ، فوالله ما أتست الكلام حتى انهالت علي
الدراهم من كل جانب وانصرفت ومحي أكثر من مائة درهم ، فوثب اليه
الشاب ، وقبل رأسه ، وقال : أنت والله معلم الناس الخير ، فجزاك الله
عن اخوانك خيرا " ، ولعل البديع أطلع على ما كتبه الجاحظ في هذا

الشأن فان التأثر واضح بين كلام الشيخ صاحب الكدية وبين كلام أبي الفتح الاسكندري في المقامة السجستانية فيذكر الراوى عيسى بن هشام انه ذهب الى سجستان في حاجة له ولما نزل الى السوق ليختار له منزلا سمع رجلا على فرسه يقول "١" : " من عرفني فقد عرفني ومن لم يعرفني فأنا اعرفه بنفسي : انا باكورة اليمن واحد وثمة الزمن ، أنا أديعة الرجال ، وأحجية ربات الجمال ، سلوا عني البلاد وهصونها ، والجبال وحزونها ، والاودية ويطونها ، والبحار وعيونها ، والخيل ومتونها ، من الذى ملك أسوارها وعرف أسرارها ، ونهج سماتها ، وولج حرثها ؟ سلوا الملوك وخزائنهم والأغلاف ومعادنهم ، والأموال وبواطنهم والعلوم ومواطنهم ، والخطوب ومخالفهم . . . والحروب ومضايقتهم من الذى أخذ مخترعها ولم يوشئ ثمنها ؟ . . . انا والله فعلت ذلك وسفرت بين الطوك الصيد ، وكشفت أستار الخطوب السود . . . " .

وهكذا يمضي في مدح نفسه مشيدا بمصلاحه وتقواه ، وبالتالى فان عنده دواء لا بد أن يعرضه في الاسواق ليشتري منه المسلمون وهو امانة في عنقه لا يستطيع كتمان منافعه عن عباد الله ، فيبتز أموال الناس بهذه الطريقة الماكرة .

والمقامة الجرجانية ايضا تسير على نفس النمط "٢" . ولا أدل على صلة الهديع بالجاحظ وقراءة أدبه ونقده من مقامته التي سماها الجاحظية وفيها يشير الى أن الجاحظ غير متكامل البلاغة لقصوره في الشعر عن النثر فيقول "٣" : " ياقوم لكل عمل رجال ولكل مقام مقال ، ولكنل دار سكان ولكل زمان جاحظ ، ولو انتقدتم لهطل ما اعتقدتم . . . ان

(١) شرح المقامات الهمدانية : ٢٦

(٢) نفس المرجع : ٥٦

(٣) نفس المرجع : ٨٦

الجاحظ في أحد شقي البلاغة يقطف وفي الآخر يقف ، والبليغ من لم يقصر نظمه عن نثره ، ولم يزر كلامه بشعره ، فهل تروون للجاحظ شعرا رائعا ، قلنا : لا ، قال : فهلما الى كلامه فهو يعيسد الاشارات قليل الاستعارات ، وقريب العبارات ، متقاد لحيان الكلام يستعمله ، نفور من معتادة يهمله ، فهل سمعتم له لفظة مصنوعة أو كلمة غير مسموعة ؟ قلنا : لا وبعد ذلك يسمعون البطل من شعره هو مقابل خلعة يخلعها عليه أحدهم . ومن هذا النص نتبين روح البديع المستعلية فهو يحاول أن يرتفع بنفسه وأدبه في أعين الناس عن طريق الحط من قيمة امام الأدب الجاحظ الذي كان قد ملأ على الناس اسماعهم ، وطبقت شهرته آفاقهم ، فينتقده بمقاييس جودة الاسلوب والبلاغة في القرن الرابع الذي كان يقوم على الصنعة ، الثعلب والفوص وراء الغريب وكثرة الاقتباس وضرب الامثال السائرة ، والتسي لم يكن يقصدها الكتاب المترسلون في عصر الجاحظ .

ويضاف الى تأثيرات الجاحظ تأثيرا آخر لا يقل أهمية من سابقه ، وهو بروز طائفة كبيرة من أصحاب الكدية ، في عصر البديع وهم الذين كانوا يعرفون بالساسانيين نسبة الى ساسان ، ولا بد أن تكون هذه الطائفة من الأصل الفارسي الذي امتزج بالعرب في ذلك القرن ، ذلك لان العرب منذ الجاهلية لم يعرفوا الكدية بهذا الشكل الذي يجمع كل صنوف الاحتيال والشر والشعوذة والمخرقة في سبيل العيش ، بل ما عرفه العرب قديما فهو الصعلكة التي تعتمد على القتل والسلب والنهب ، والفرق بينها وبين الكدية ان الصعلكة بسط اليد قوية عزيزة بينما الكدية بسطها بالسؤال ضارعة ذليلة ، وتختلف الروايات في ساسان هذا ؟ فمن قائل انه ساسان بن اسفنديار كان من حديثه انه لما حضرت أباه الوفاة فوض أمر الحكم الى ابنته ، فأنف ساسان من ذلك واشترى غنما ، وجعل يرعاها ، وعير بأنه راعي الغنم ، فقيل : ساسان الراعي ، وساسان الكردي ، ثم نسب اليه كل من تكدى ، اي تسول فيقال فلان من بني ساسان ، وقيل كان ساسان ملكا من ملوك العجم حاربه دارا

ملك الفرس ، ونهب كل ما كان له واستولى على ملكه فصار رجلا فقيرا
يتردد في الأحياء ، ويستعطي ، وضرب به المثل ، وقيل انه كان
رجلا فقيرا بصيرا في استعطاء الناس والاحتياال ، فنسبوا اليه . " ١ "

ولعلنا نستشف من ظهور هذه الطائفة المكية في أواخر الدولة
العباسية مدى ما وصلت اليه الحالة الاجتماعية تبعا للتعزق السياسي الذي
حل بالدولة فكثر الفقر المدقع بجانب الغنى المفرط وقلة الوازع الديني
عند الناس . كما يمكن أن نتبين ان هذه الطائفة شعرت بأنها نهبت
من المجتمع وهرمت العيش الكريم ، لذلك فهي تحاول أن تبتز أموال
الناس بشتى الوسائل وتسخر منهم حتى عن طريق الوعظ الديني الذي
يستر تحته لهيب التلطف لجمع المال وممارسة الشهوات بأنواعها ،
وهذا ما نلاحظه على الاسكندري بطل مقامات الهديع عندما يوقع
انسانا بشرك نصبه له يكون في مفتوى السعادة مفتخرا بكيده وهنكته ،
كما في المقامة البغدادية ، حينما رأى سوادى من أهل ريف العراق ،
واحتال عليه وأوهمه أنه يعرفه ، وكناه بأبي زيد ، وانه كان رفيق
والده حتى يوصله الى السوق فيأكلان من اللحم المشوى والحلوى حتى
انما استوفيا خرج الاسكندري موهما ابا زيد انه سيأتي بما يشعشع
بالتلج ، فلم يعد بل جلس بعيدا ينتظر مصير أبي زيد —
الشواء يقول " ٢ " : فلما أبطأت عليه ، قام السوادى الى حمارة ،
فاعتلق الشواء بازاره ، وقال اين ثمن ما أكلت ؟ فقال أبو زيد :
أكلته ضيفا ، فلكم لكعة وثنى عليه بلطمة ، ثم قال الشواء : هاك
ومتى دعوناك ؟ زن يا أخت القحة عشرين ، فجعل السوادى بيكسي
ويحل عقده بأسنانه ويقول كم قلت لذلك القريد أنا أبو عبيد وهو
يقول : أنت أبو زيد " ثم ينشد الاسكندري بهذا ذلك :

اعمل لرزقك كل آله
وانهض بكل عظيمة
لا تثقن بكل حاله
فالمرء يحجز لامحالة

وفي المقامة الأصفهانية^(١) : ، نجد أبا الفتح الاسكندري يقوم
خطيباً واعظاً في أحد المساجد باصفهان ، فيحدث عن رؤيته
لرسول الله صلى الله عليه وسلم في المنام كالشمس تحت الضمام ، والبدر
الثام ، ويسير والنجوم تتبعه ، ، ثم يمطري أبا الفتح وصية للأمة
فيكتبها على أوراق بخلوف ومسك وزعفران ، فمن استوهبه مني وهبته ،
ومن رنّ عليّ ثم القرطاس أخذته ، فتتال عليه الدراهم من كل جانب ،
ثم يخرج فيسأله عيسى بن هشام راويته ، كيف اهتديت الى هذه الحيلة ؟
فتبسم وأنشأ يقول :

الناس حمر فجنوز
حتى اذا نلت منهم
وابرز عليهم ويرز
ما تشتهيهم ففروز

فانظر الى هذه السخرية بالناس ، بحد أن حبسهم ساعة يرغبي
ويزيد ، ونال عطاياهم ونهب دراهمهم ، وهذا كثير في المقامات حتى
اننا نجد الاسكندري يسم المجتمع كله باللوم لان الكريم أصبح فيه
فقيراً كقوله في آخر المقامة البصرية^(٢) :

والفقر في زمن اللئام
م لكل ذي كرم علامه
رغب الكرام الى اللئام
م ، وتلك اشراط القيامه

ثم نراه في المقامة^(٣) الساسانية ساخطاً على الزمن حتى انه ليندم
العقل ويمجد الحمق ، وانه هو سبب جمع المال لديه من اولئك
الناس اللئام الذين بيدهم الأموال :

(١) نفس المرجع : ٦٣ - ٦٥

(٢) المرجع السابق : ٧٦ - ٧٧

(٣) شرح المقامات الهمدانية : ١٠٩

هذا الزمان مشهور كما تحراه غشوم
الحق فيه مليح والعقل عيب ولوم
والمال طيف، ولكن حول اللثام يحوم

وقد اشتهر من شعراء بني ساسان في القرن الرابع شاعران كبيران يعاصران البديع وهما : والاخنف العكبرى ، وأبو دلف الخزرجي ، شاعر المكدين وظريفهم ، ومليح الجملة ، والتفصيل منهم ، وقرأت للمصاحب فضلا في ذكره فأوردته وهو : لو أنشدتك ما أنشدنيه الأخنف العكبرى لنفسه ، وهو فرد بني ساسان اليوم بمدينة السلام ، وحسن الطريقة في الشعر لا مثلاً عجبا من ظرفة واعجابا ينظمه ، ولا أقبل من ايراد موضع افتخاره فانه يقول من النهج :

على اني بحمد الله في بيت من المجد
باخواني بني ساسا ن أهل الجد والحسد
لهم أرض خراسان فقاشان الى الهند
الى الروم الى الزنج الى البلقار والسند
اذا ما أغور الطرق على الطراق والجنيد
حذارا من أعاد يهم من الاعراب والكرد
قطعنا ذلك النهج بلا سيف ولا غمد
ومن خاف أعاد يسه ينافي الروح يستمدى

ولهذا البيت الاخير معنى بديع ، وتفسيره : يريد ان نوى الثروة وأهل الفضل والمروءة ان وقع أحدهم في أيدي قطاع الطريق وأحسب التخلص قال : انا مكدي ، فانظر كيف خاص وابرز هذا المعنى الممتص .
أما أبو دلف (١) فهو : مسعر بن مهلهل الخزرجي الينبوعي ، من ينبع البحر ، وينتسب الى الخزرج أنصار رسول الله صلى الله عليه

(١) عبد المنعم خفاجي ، أبو دلف ، ص ١٩ .

وسلم ، قال فيه الثعالبي " ١ : " شاعر كثير الملح والظرف ، مشحون
المدية في الجدية ، خنق التسمين في الاطراب والاعتراب ، وركوب
الاسفار الصعاب ، وضرب صفحة المحراب بالجواب ، في خدمة العلوم
والآداب ، وفي تدويخه البلاد يقول - من أبيات أنشدنيها أبو الفضل
الهمداني :

وقد صارت بلاد الله في ظمئي وفي حلبي
تفايرن بلبثي و تحاسدن علي رجلي
فما أنزلها الا على أنس من الأهل

وكان ينتاب حضرة الصاحب بن عباد ، ويكثر المقام عنده ، ويكثر
سواد غاشيته وحاشيته ، ويرتفق بخدمته ، ويرتق في جملته ، ويتزود
كتبه في أسفاره ، فتجرى مجرى السفانج في قضا أوطاره ، وكان
الصاحب يحفظ مناكاة بني ساسان حفظا عجيبا ، ويمجبه من أبي
دلف وقور حظه منها ، وكانا يتجاذبان أهدابها ويجريان فيما لا
يخطين له حاضرهما ، ولما أتخفه أبو دلف بقصيدته التي عارض بها
داليه الاحنف العكبري في المناكاة وذكر المكدين والتنبيه على فنون
حرفهم وانواع رسومهم ، وتنادر بادخال الخليفة المطيع لله في
جملتهم ، وقد فسرهما تفسيراً شافياً كافياً اهتز ونشط لها وتبجح بها
وتحفظ لها وأجزل صلته عليها " . وهي قصيدة طويلة حشد فيها
اصطلاحات الساسانيين وافعالهم وما اخترعوه من لغة خاصة يتفاهمون
بها ، كما أنه أورد الخليفة العباسي المطيع لله من ضمن المكدين ،
وهذا يدل على الحالة المتردية التي وصلت اليها الخلافة العباسية في
هذا العهد قالخليفة لا يملك غير اللقب والدعاء له على المنابر ، أما
أمر البلاد فهو للوزراء المستبدين كالصاحب وابن بويه وغيرهم .

ومن هذه القصيدة يقول أبو دلف :^(١)

على اني من القوم البهاليل بني الضمير
بني ساسان والحامي الحمير في سالف العصر
تفرنا الى أنبا تنادينا الى شهر
فطل البين يرميننا نوى بطنا الى ظهر
كما قد تفعل الريح بكثب الرمل في البر
فنحن الناس كل النبا س في البر وفي البحر
أخذنا جزية الخلق من الصين الى مصر
الى طنجة بل في كل أرض خيلنا تسرى
لنا الدنيا بما فيها من الاسلام والكفر
ومنا شعراء الارض ض أهل البدو والحضر
ومنا سائر الانبا ر والاشراف من فهر
ومنا قيم الدين المطيع الشائسح الذكور
يكدي من ممز الدر لة الخبزل على قدر

وتشير الدراسات الحديثة التي تناولت ابا دلف الخزرجي الى أن تأثيره كان جدا كبيرا في عمل بديع الزمان ومن ذلك ما يذكره الدكتور غنيمي هلال حيث يقول "٢" : " . . . وهو متأثر في اختراعه بنموذج واقعي لمقاماته وهو الشاعر أبو دلف الخزرجي البيهوي مسمر بن مهلهل وهو محاصر للبيديع ، وقد كان مثال الجوال جواب الأفاق المحتال على كسب الرزق بالأدب والشعر والحيل الاخرى الكثيرة التي تنبوع عن الخلق الكريم " . بل ان هناك من يذهب الى أن ابا دلف هو نفسه الاسكندري بطل مقامات البيديع يقول الاستاذ عبد المنعم

(١) يتيمة الدهر : ٣٥٥/٣

(٢) الادب المقارن ، ٢٢٤ ، ط بيروت

خفاجي "١" : " ورأى الذي أذهب إليه اليوم هو ان ابا الفتح
شخصية تاريخية معروفة في عصر البديع وهو أبو دلف الخزرجي ، وهذا
الرأى لم يسبقن إليه باحث ، ودليلنا عليه هو مقاله الثعالبى فسي
يتيمة الدهر : أنشدني بديع الزمان لابي دلف ونسبه في بعض
في بعض مقاماته الى أبي الفتح الاسكندرى :

ويحك هذا الزمان زور فلا يفرنك الفرور
زوق ومخرق وكل وأطبق واسرق وطلبق لمن ينزور
لا تلتزم حالة ولكن در بالليالي كما تدور

ومن هذا النص نعرف الحقائق التالية :

- ١ - انشد البديع الثعالبى شعرا لابي دلف وهذا الشعر نسبه
البديع الى ابي الفتح في المقامة القريضية فتكون النتيجة
أن ابا الفتح هو ابا دلف نفسه باقرار البديع .
- ٢ - كان البديع راوية لشعر أبي دلف ، ويبدو لي أن البديع
كان ينزل ابا دلف عن نفسه منزلة الاستاذ والمعلم ، وان
يكون امامنا رأى جديد نجزم به هو ان البديع حين كتب
مقاماته اختار ابا دلف ، استاذه وصديقه ومعاصره بطلا
لمقاماته وكفى عنه بأبي الفتح ، وكان أبو دلف أروع نموذج
ساساني يصلح بطلا للمقامات لان حياته وشخصيته وتجاربه
مطابقة تماما للنموذج الذى صوره البديع في المقامات فسي
شخص أبي الفتح الاسكندرى ، ولان شهرة وتجارب أبي
دلف كانت تصلح معينا يستقي منه البديع كل ما يريد أن يصور
به ابا الفتح ذلك ما قد كان . بل اني اضيف الى ذلك أن
البديع الهمداني حين سمع قصص أبي دلف الشيخ الحكيم

المجرب عن رحلاته وتطوافه في البلاد ، واستمع الى فكاهات هذا الشيخ وسمعه في مجالس الملوك والامراء والوزراء رأى أن هذه الصورة الفنية تصلح أساسا لفن جديد ابتكره وسمّاه المقامة .

ومع أن هذا الاستنتاج جيد في مجمله إلا أننا نجد من القدماء من يشير الى أن شخصية ابي الفتح نكرة مجهولة من اختراع بديع الزمان ، فهذا الحريري المتوفى سنة ست عشرة وخمسمائة يذكر في مقدمة مقاماته عند كلامه عن مقامات البديع " . . . وعزا الى ابي الفتح الاسكندري نشأتها والى عيسى بن هشام روايتها ، وكلاهما مجهول لا يعرف ونكرة لا تتعرف " . " ١

ويرى بعض المستشرقين امثال Thomas Chenery

مترجم مقامات الحريري الى اللغة الانكليزية " ان اساطير التوراة عند اليهود وقصة لقمان وبعض الاساطير في اللغة السنسكريتية والبهلوية قد أوحى الى بديع الزمان بفكرته " ٢ " ، وهذا الكلام فرض بعيد لا يقوم عليه دليل ان لم يعرف عن البديع انه عرف السنسكريتية أو اطلع على التوراة ونصوصها حتى يتأثر بها .

-
- (١) المقامات الادبية : ع ، ط القاهرة ١٩٥٠ م
(٢) مصطفى الشكعة ، بديع الزمان الهمداني ، ٢١٣ ، القاهرة ١٩٥٩ م

أبرز الموهثرات في مقامات البديع :

إذا تأملنا جملة الموهثرات أو الأعمال الأدبية التي سبق ذكرها، نجد انها جميعا ذات مساس بالمقامات بعضها شديد التأثير اللغوي حد المحاكاة وبعضها ضعيفة وذلك من حيث شكل المقامة واسلوبها ، وموضوعها .

ولكنني أكاد أجزم بأن ثمة عاطلين كان لهما دور بارز في ذلك :

أولهما أحاديث ابن دريد حيث التشابه من حيث الاسلوب والهدف ، ف كلا الرجلين كان يهدف الى تعليم طلابه اللغة بفريتها وشواردها ، وتمرينهم على الانشاء ، وسلكا لذلك سبيل الحكايات والاحاديث ، فابن دريد كان يأتي بالحديث مسندا بسند مختلف من عنده جزيا على السنة المتبعة آنذاك عند المحدثين والقصاص ، ويكسبون الحديث عن اناس مجاهيل لا يعرف له تاريخ ولا شخصية ، وقد يطول الحديث ويقصر وربما كان يحتوي على قصيدة شعرية فقط مما له أعظم دلالة على قصد اللغة ولا شيء غيرها ، يؤيد ذلك تلك الشروح التي أوردها القالي للمفردات في ذيل تلك الاحاديث سواء أكانت تلك الشروح من صنع القالي أو من ابن دريد نفسه .

أما البديع فربما كان أحذق من ابن دريد في اختياره فقد جعل عمله حكايات طريقة وشيقة ضمنها الاخبار الممتعة والنكات والاشعار الرائعة على لسان أبي الفتح الاسكندري مما جعلها تلقى قبولا واستحسانا كبيرا لدى الناس بالرغم من أن هدفها كان تعليميا اكثر من أي شيء آخر ، فقد روى انه كان يختم بها مجلسه مع تلاميذه في نيسابور "١" ، ولا بد أنه كان يلقي على تلاميذه مسائل لغوية وأدبية ،

خاصة وانه تلميذ أحمد بن فارس اللغوي المشهور ، وربما كان فيسا يلقبه عليهم احاديث ابن دريد .

ويذهب شوقي ضيف الى أبعد من هذا كلف فيقول "١" : " وكثير من الادعية والمواعظ في المقامات يتصل اتصالا مباشرا بما في الأمالي ، ونفس الحكم والامثال والوصايا كل ذلك نجد صوره واضحة عند بديع الزمان ، وبين مقاماته مقامة تسمى الوصية ، وأخرى تسمى الوعظية ، وليس ذلك فحسب فقد تكون الفكرة التي أدار حولها مقاماته ونقص الكدية او الشحاذة استندها مباشرة من خطبة الاعرابي السائل في المسجد الحرام والتي رواها صاحب الامالي عن ابن دريد " . أما الحديث المذكور فهو "٢" : " حدثنا ابو بكر رحمه الله ، قال : أخبرنا أبو حاتم ، قال : أخبرنا أبو زيد قال : بينا أنا في المسجد الحرام ان وقف علينا اعرابي فقال : يا مسلمون ان الحمد لله ، والصلاة على نبيه ، اني امرؤ من أهل هذه الملطاط الشرقي ، المواصي اسياف تهامة ، عكفت علي سنون محش فاجتبت الدرى وهشمت العرى ، وحشمت النعم وأعجبت اليهم ، وهمت الشم ، والتحيت اللحم ، وأحجنت المعظم ، وغادرت التراب مورا ، والماء غورا ، والناس أوزاعا والنهط قعاعا ، والضهل جزاعا والمقام جمعاعا فهل من أمر بمير أوداع بخير وقاكم الله سطوة القادر وملكة الكاهن وسوء الموارد . " .

والواقع اننا نجد شخصية الاسكندري واضحة في هذا النص الا أن الاغراب الشديد في الكلمات الواردة على لسان السائل يجعلنا نقطع بأن تأشير احاديث ابن دريد في مقامات البديع كان في أغلبه من ناحية الهدف التعليمي اللغوي وان كانت لغة البديع يمتزج فيها الفريب بالقرب ، والى ذلك يشير الشيخ محمد عبده في شرحه للمقامات

(١) المقامة : ١٨

(٢) الامالي : ١١٣/١ - ١١٤

فيقول "١": "ومن اشرف ما امتاز به كلامه انه يياهي كلام أهـل
الوير رصانة ورفعة ، ويمتاز بطباع أهل الحضرة ورواه صنعة ،
فبينما يخيل لسامعه انه بين الأجنبية والخيام ، ان يترامى له أنه
بين الأبنية والاطام ."

والمؤثر الثاني هو بزوز تلك الطائفة الساسانية التي احترفت
الكدية في القرن الرابع الهجري وفي زمن البديع وان كان بزوز هذه
الطائفة تمت جذوره الى ايام الجاهل كما مر سابقا الا أنها تبلورت ،
وأصبحت فنا ورواية ، ولها أصولها التي لا بد من اجادتها حتى يصبح
المرء كدء ناجحا أصبحت كذلك في عصر بديع الزمان ولها أصولها
التي لا بد من اجادتها ."

يقول الشكعة "٢": "ولا بد للمكدي أن يكون محتالا ذكيا فطنا ،
فصيحا ، شجاعا ، يتقن الحيلة ، ويجيد النزال ، ويحسن القول
أمام السلطان ، ويتحمل المتاعب ، ولا يتهم بقيد الأسر أو تعذيب
السجون ، فمن لم يحسن ذلك كتب عليه الفشل والخيبة ."

ولاشك أن هذه الطائفة أمدت البديع بمادة حية لمقاماته ،
كما أن زعماء هذه الطائفة من أمثال أبي دلف والمكبري كانوا يمشلون
ابطالا للمقامات من خلال تصرفاتهم وتقلباتهم ومناذمتهم لبعض الأمراء
والسلاطين ، وهم في ذلك يشبهون شخصية أبي الفتح الاسكندري .

ولعل هذه الطائفة وملاحظة البديع الفاحصة لاعمالها جعلته
يتخذ الكدية مدارا لمقاماته .

ومهما يكن من أمر وايا كانت التأثيرات التي استفاد منها البديع
في وضع مقاماته فانه يظل هو البديع الحقيقي لغن المقامات بهذه
الصورة التي وصلتنا عنه ، فقد نهج بها نهجا خاصا جعلها تقتصر
باسمها في تاريخ الأدب العربي ، فهو الذي أطلق عليها اسم مقامه ،

(١) انظر مقدمة شرح المقامات الهمدانية ص (٨ - ٨) ، ط بيروت ١٩٢٤م

(٢) بديع الزمان الهمداني : ٢٢٠

ووضع لها هيكلها المحدد واختط لها الاسلوب الذي سارت عليه
المقامة بعده قرونا طويلة .

يقول الدكتور زكي مبارك "١" : ومع ان ابن دريد هو المبتكر
لفن المقامات ، فان عمل بديع الزمان في هذا الفن أقوى وأظهر وطريقته
في القصص تختلف عن طريقه ابن دريد ، والذين كتبوا مقامات بمسند
ذلك لم يكن في اذهانهم غير فن البديع ، فهو بذلك منشيء هذا
الفن في العربية ، ولم تسم تلك القصص بعد ذلك أحاديث كما
سماها ابن دريد وانما سميت مقامات كما سماها بديع الزمان .

ويقول مارون عيود "٢" : " ان خطة المقامات من عمل البديع
فهو الذي ألبسها هذا الطراز ، وعلى طريقه هذا التي شقها
سارت عجلة الادب الف عام ، وحيث نحاول العثور على اثر الخطة
عند غير البديع " .

فهذه النصوص تدل على أن بديع الزمان أجاد في هذا
الفن اجادة أحلته منه محل الزعيم ، ولا غرو فقد كان البديع آية عصره
في الذكاء والحفظ وسرعة البديهة يقول فيه الثعالبي "٣" : " . . . فرد
الدهر ، وغرة المصر ، ومن لم يلق نظيره في ذكاء القريحة ، وسرعة
الخاطر ، وشرف الطبع ، وصفاء الذهن ، وقوة النفس ، ومن لم يدرك
قرينه في ظرف النثر وملحه ، وغرر النظمه ونكته ، ولم ير ، ولم يرو أن
أحدا بلغ مبلغه من لب الادب وسره ، وجاء بمثل اعجازه ، وسحره
فانه كان صاحب عجائب وبدائع وغرائب . . . الخ " .

-
- (١) النثر الفني : ٢٤٤/١
 - (٢) كتاب بديع الزمان الهمداني : ٢٤
 - (٣) يتيمة الدهر : ٢٥٦/٤ .

ثالثا : اثر بديع الزمان في من خلفه :

منذ أن أملى الهمداني مقاماته ، وداعت بين الناس ، استقبلوها بالاستحسان والاعجاب وأصبح لها من المنزلة ما يباهي منزلة الشعر ، ولا سيما عند الخلفاء والوزراء فتنسابق الأدباء في التسج على منوالها اظهارا للقدرة والبراعة اللغوية والفنية ، وكانني بالمقامات أصبحت مقياسا للفن والادب الرفيع ، لذلك لم نجد عصرا من عصور الادب منذ عهد البديع ، وحتى القرك التاسع عشر الميلادي يخلو من مقامات .
وأول من تأثر خطوات البديع ابن نباتة السعدي^(١) ، وأشار الثعالبي الى ذلك بقوله "٢" : " وله مقامات كمقامات الحريري اطلعت على شي منها " ، ولكن هذه المقامات لم يصل منها الينا شيئا ، غير ان بروكلمان يقول في معرض كلامه عن ابن نباتة : " ولم تحفظ عنه الا مقالة واحدة في برلين تحت رقم ٨٥٢٦ " "٣" .

ثم جاء بعد ذلك ابن نafia عبد الله بن محمد بن الحسين ، أبو القاسم ، يقول ابن خلكان "٤" : " شاعر ، مترسل ، لغوي . . . ومن كتبه ملح الممالحة ، وتفسير الفصح لثعلب ، والجمان في تشبيهات القرآن ، ومقامات في الأدب . . . " ويقول صاحب

(١) هو ابن نصر ، عبد الله بن عمر بن حمدا بن نباتة السعدي عاش من سنة ٣٢٧ هـ - ٤٠٥ هـ ، وهو من شعراء سيف الدولة الحمداني قال فيه ابو حيان : " شاعر الوقت لا يدفع ما أقول الا حاسدا أو جاهلا أو معاندا . . . " الامتاع والموانسة : ١٣٦/١ . وانظر : الاعلام : ١٤٨/٤ ، الخطيب البغدادي تاريخ بغداد : ٤٦٦/١٠ ، ط بيروت .

(٢) المنتحل : ٣٣١

(٣) تاريخ الادب العربي : ١١٦/٢ ،

(٤) وفيات الاعيان : ١٨/٣ .

الاعلام "١" : " جاء في مقدمة مقاماته ، قال الاستاذ الفاضل أبو القاسم عبد الله بن محمد بن ناقي بن داود . . . وهي تسع مقامات طبعست في استنابول سنة ١٣٣١ هـ . "

ثم جاء بعد ذلك "٢" الحريري وهو أشهر من هذا حدو البديع فألف خمسين مقامة بلغ بها قمة الجودة الأدبية التي أكسبته شهرة عريضة امتدت قرونا طويلة بعد وفاته يتضح ذلك من عدد الشراح الذين اعتسوا بها شرحا وتعليقا ، فقد أحصى صاحب كشف الظنون أكثر من خمسة وثلاثين شارحا ، من أشهرهم الشريشي أحمد بن عبد المؤمن القيسي المتوفي ٦١٩ هـ "٣"

يقول ياقوت مشيدا بصنع الحريري لمقاماته "٤" : " ان الحريري أبريكتاب المقامات على الأوائل وأعجز الأواخر . . . ويضيف قائلا "٥" : " لقد وافق كتاب المقامات للحريري من السعد مالم يوافق مثله كتاب فانه جمع بين حقيقة الجودة والبراعة ، واتسمت له الالفاظ وانقادت له البراعة . . . حتى لو ادعى بها الاعجاز لما وجد من يدفع في صدره ولا من يرد قوله ولا يأتي بما يقارنها فضلا عن أن يأتي

(١) ٢٦٦/٤

(٢) هو أبو محمد القاسم بن علي الحريري ولد سنة ٤٤٦ بالمشان ، قرية قرب البصرة وتأدب بها ، وعين صاحب الجند بالبصرة الى أن مات سنة ٥١٦ هـ ، كان غاية في الذكاء والفطنة والقصاحة ، ومن مؤلفاته غير المقامات " درة الفواص في أوهام الفواص " و " ملحمة الاعراب في صناعة الاعراب " . أنظر :

ياقوت ، معجم الادباء : ٢٦١/١٦ - ٢٦٢ .

(٣) حاجي خليفة ، كشف الظنون ١٧٨٧/٢ - ١٧٩٠ .

(٤) معجم الادباء : ٢٦٢/٢٦ .

بمثلها ، وقد رزقت - مع ذلك - من الشهرة وبعد الصيت ، والاتفاق على استحسانها من الموافق والمخالف ما استحقت وأكثر . " ومع هذه الاجادة وهذا الابداع نجد الحريري يرد الفضل لأهله فيمتدح بسبق البديع في هذا المجال ، وانه مقلد له فيقول في مقدمة مقاماته " : " وبعد فانه جرى في بعض أندية الأدب الذي ركزت في هذا العصر ريعه ، وخبت مصابحه ، ذكر المقامات التي ابتدعتها ، بديع الزمان وعلامة هذان - رحمه الله تعالى - وعزا الى أبي الفتح الاسكندري نشأتها والى عيسى بن هشام روايتها ، وكلاهما مجهول لا يعرف ونكرة لا تتعرف ، فأشار من اشارته حكمه وطاعته فتم الى أن أنشئ مقامات أتلقونها تلو البديع ، وان لم يدرك الظالم شأو الضليع . . . وأنشأت على ما أعانيه من قريحة جامدة وفطنة خامدة ، وروية ناضجة ، وهموم ناصبة خمسين مقامة تحتوى على جد القول وهزله ورقيق اللفظ وجزله ، وغرر البيان ودرره ، وطح الأدب ونوادره الى ما وشحتها به من الآيات ومحاسن الكنايات ورصعته فيها من الأمثال العربية ، واللطائف الأدبية والاحاجي النحوية ، والفتاوى اللغوية ، والرسائل المبتكرة ، والخطب المحبره ، والمواعظ الحكية والاضاحيك الملهية ، مما أملت جميعه على لسان أبي زيد السروجي واستندت روايته الى الحارث ابن همام البصرى . . هذا مع اعترافي بأن البديع رحمه الله - سباق غايات وصاحب آيات ، وان المتصدى بعده لا نشأ مقامه ولو أوتى بلاغة قدامه ، لا يفترق الا من فضالته ، ولا يسرى ذلك المسرى الا بدالته ، ولله در القائل :

فلو قبل بكاهها بكيث صبابسة

بسعدى شفيت النفس قبل التندم

ولكن بكت قبلي فهبج لي الهكسا

بكاها فقلت الفضل للمتقدم "

ولكن هذا التواضع الذي يظهره الحريري أمام عمل البديع ماهو
الا تمهيد لاطهار فضل مقاماته ، رغم تأخرها في الزمن عن مقامات
البديع فيقول على لسان بطله السروجي :

ان يكن الاسكندري قبلي فالطل قد بيدو أمام الويل
والفضل للوايل لا للطل

أما سبب انشاء الحريري لمقاماته ، فقد نقل ياقوت الحموي
عن عبد الله بن حمد بن أحمد النور البزاز ببغداد قال : " سمعت
الرئيس ابا القاسم بن علي الحريري صاحب المقامات يقول " ا " : " أبو زيد
السروجي كان شيخا شاعرا بليغا ومكذبا فصيحاً ، ورد علينا البصرة
فوقف يوماً في مسجد بن حرام فسلم ثم سأل الناس ، وكان بعض السؤلة
حاضراً ، والمسجد غاص بالفضلاء ، فأعجبهم فصاحته ، وحسن صياغته
كلامه ، وملاحظته ثم ذكر أسرار الروم ولده . . . واجتمع عندي عشية ذلك
اليوم جماعة من فضلاء البصرة وعلمائها ، فحكيت لهم ما شهدت من ذلك
السائل ، وما سمعت من لطافة عبارته ، وتحقيق مراده ، وظرافته
اشارته في تسهيل ايراد ، فحكى كل واحد من جلسائه انه شاهد
من هذا السائل ومجلسه مثلما شهدت وأنه سمع منه في معنى آخر
فصلا أحسن مما سمعت منه وكان يغير في كل مسجد شكله وزينه ،
ويظهر في فنون الحيل فضله ، فتمجسوا من جريانه في ميدانه
وتصرفه في تلون احسانه ، فأنشأت المقامة الحرامية ثم بنيت عليها سائر
المقامات وكان أول شيء صنعته . "

وقد اختلف فيمن كتب الحريري له المقامات فذكر ابن الجوزي
الحكاية المتقدمة وزاد فيها : " ان الحريري عندما أنشأ المقامة الحرامية
صعد بها الى بغداد وعرضها على أنوشروان بن خالد وزير السلطان
المسترشد فاستحسنها ، وأمره أن يضيف اليها مشاكلها

فأتمها خمسين مقامة . " ١ "

ويذكر ابن خلكان أنه رأى " ٢ " في بعض شهور سنة ست وثمانين وستمائة بالقاهرة المحروسة نسخة مقامات وجميعها بخط مصنفها الحريري ، وقد كتب أيضا بخطه على ظهرها أنه صنفا للوزير جلال الدين عميد الدولة أبي الحسن علي بن أبي العزبن صدقة وزير المسترشد " .

كما نجد الشريش شارح مقامات الحريري ينقل عن أبي القاسم " ٣ " ابن جمهور قوله " ٤ " : " ان الذي أشار اليه الحريري في قوله : فأشار من اشارته حكم هو المستظهر بالله العباسي ، وكان لهذا المستظهر رغبة في الطلب وحظ من الادب ، وعناية بأهل العلم ، وحدث ابن جمهور انه دخل بغداد في أيامه وبها ألف رجل وخمسمائة رجل حاصل علم ، وكلهم قد أثبت اسماءهم السلطان في الديوان ، وأجرى على كل واحد من المال بقدر حظه من العلم . " والى هذا الرأي يذهب الدكتور شوقي ضيف حين يقول " ٥ " : " ان من يرجع الى تاريخ تأليف الحريري لمقاماته يراده قد أتمها سنة ٥٠٤ ومحنو ذلك ان ما يقال من صلصة

-
- (١) المنتظم في تاريخ الملوك والأمم : ٧٧/١٠ ، ط حيدرآباد ١٣٥٨ هـ . / انوشروان بن خالد : وزير المسترشد .
 - (٢) الوفيات ٢٤٠/١ (٥١٢ - ٥٢٩) له صنفا الحريري مقاماته كان من عقلاء الرجال ودهاتهم فيه جود وحلم وتدين مع تشيع قليل وله تاريخ لطيف سماه (صدور زمان الفتور وفتور زمان الصدور) القنطي ، انباه الرواة : ٣/٢٦ ، القاهرة ١٣٧٤ هـ .
 - (٣) ابن جمهور : احد العلماء الاندلسيين الذين وفدوا الى الشرق وأخذوا المقامات عن الحريري نفسه في سنة ٥٠٥ هـ ، انظر ابن الأبار التكملة : ٢٦٠ .
 - (٤) شرح مقامات الحريري : ٢٧/١ ،
 - (٥) المقامة : ٤٥ .

ابن صدقة وانوشروان بتأليفها غير صحيح فأنوشروان انما ولي الوزارة بعد وفاة الحريري ، أما ابن صدقة فوليتها وهو حي سنة ٥١٢ هـ ، ولكن بعد تأليفه للمقامات بسنوات ثمان . من أجل ذلك كما نذهب الى مارواه الشريشي ، شارح مقاماته الكبير ، ان روى عن بعض اساتذته ان الذي أشار اليه الحريري في مقدمته هو الخليفة المستظهر (٤٨٧ - ٥١٢ هـ) وكان له حظ من الادب وعناية بأهل العلم ، فقصده الحريري ، ومازال يبعثه على صنع المقامات حتى أتمها ورفضها اليه فبلغ عنده اسنى المراتب ، ويظهر انه ظل بالقرب منه في بغداد حتى توفي وخلفه المسترشد فاتصل بكبار رجال الدولة لحمده ، ومن هنا تأتي صلته بابن صدقة وزيره ، وربما اتصل بأنوشروان حينئذ كما اتصل بغيره من البارزين وقدم لهم نسخا من مقاماته ، فأشكل ذلك على من تحدثوا عن حياته واخباره .

ومهما يكن من أمر فان المقامات الحريرية عمل فني بلغ الذروة في الروعة والاتقان وصارت مضرب المثل في الفصاحة والبيان ، وطارت شهرتها في العالم الاسلامي كله في ذلك الوقت حتى وصلت الى الاندلس ونسج على منوالها الكثيرون ، فكادت أن تطفي على مقامات الهمداني يقول القلقشندی "١" : " واعلم أن أول من فتح باب عمل المقامات علامة الدهر ، وامام الادب ، البديع الهمداني ، فعمل مقاماته المشهورة المنسوبة اليه وهي غاية من البلاغة وعلو العتبة في الصنعة ، ثم تلاه الامام أبو محمد القاسم الحريري فعمل مقاماته الخمسين المشهورة ، فجاءت نهاية في الحسن وأتت على الجزء الوافر من الحظ وأقبل عليها الخاص والعام ، حتى أنست مقامات البديع وصيرتها كالمرفوضة .

وعند مقارنة مقامات الحريري بمقامات البديع نجد أن البديع يخلو من التكلف وينشيء على البديهة يجري مجرى الطبع ويعتمد

على الابتكار ، وان كان في بعض الاحيان يوشيه بالصنعة بحض الشسي*
كالجناس والمزاوجة مراعاة لمذهب الصنعة والتأنق الذي كان سائدا
في عصره .

أما الحريري فنجد نشره مثقلا بأنواع من الزخارف اللفظية والاشكال
الجديدة من الالاعيب التي كان يبتدعها ليحطها حليا يطوق بها
مقاماته ، فهو لاشك كان يبحث عن شي* جديد يبرز فيه فنه ، ويظهر
طرزه ، ولكنه وقع في التوعر والغرابة الى حد بعيد ، فجدده يستعمل
الالغاز النحوية والفقهية على نحو مخرب في الثورية والايهام ، ففي
المقامة الطيبية^١ يذكر مائة مسألة فقهية على نحو بعيد في الالغاز
والاحاجي ، وفي المقامة النصيبية^٢ يسرد عددا كبيرا من
الكنايات الغريبة فيكني الموت بأبي يحيى ، والجوع بأبي عمرة ،
والخوان بأبي جامع ، والملح بأبي عون . . . الخ .

كما نجد أنه جاء بفن جديد استعمله في الطامة المغربية^٣ ، وهو
ملا يستحيل بالانعكاس ، اي انك تقرأ الجملة من آخرها كما تقروها
من أولها نحو : لم أحامل " ، كبر رجا* أجر ريك " وينشد
أبياتا من الشعر على لسان أبي زيد السروجي من هذا القبيل .

ويصف الدكتور زكي مبارك لفة الحريري بأنها تعد من أغرب
نماذج النثر المصنوع فيقول^٤ : " . . . وعند الرجوع الى آثار
من تأثروا بفن المقامات نراهم في الأغلب تلامذة الحريري لا تلامذة البديع ،
فقد أولع أكثرهم بالصنعة والزخرف ، ولم يأنس منهم الى فطرته الا
القليل " .

-
- (١) المقامات الحريرية : ٢٥٤ ، ط بيروت ١٣٩٨ هـ ، ١٩٧٨ م
 - (٢) نفس المصدر ص ١٥٥
 - (٣) مقامات الحريري : ٢٩
 - (٤) النثر الفني : ٢٤٩/١

كما نجد الدكتور شوقي ضيف يعيب على الحريري كثرة الزخارف ويسمه بالتعقيد فيقول "١" : " كان اللغة العربية اجديت ولم تصد تستطيع أن تقدم زخارف التعبير سوى هذه الطريقة الملتوية المعقدة التي لا تتصل بالفن ولا بأى زخرف من زخارفه الا اذا جعلنا التعقيد من حيث هو زخرفا وفنا يقصد لذاته " .

أما بالنسبة لبناء المقامة الشكلي فقد كانت عند البديع متواليمة على غير نسق مخصوص أما الحريري فالتزم أن تكون كل مقامة سادسة أدبية وكل حادية عشر زهدية ، وكل خامسة وعاشرة هزلية . "٢"
وعلى أى حال فان فضل الحريري على المقامات كبير فهو الذى أعطاهم الحياة التي استمرت قرونا طويلة ، ولولا ما اشتهر من اشتهر من هؤلاء المتأخرين لان جلمهم لم يضيفوا شيئا جديدا يذكر وانما اكتفوا بتقليد الحريري والسير على نهجه ومن أشهرهم :

أبو الطاهر السرقسطي المتوفى سنة ثمان وثلاثين وخمسمائة للهجرة وقد كتب خمسين مقامة أنشأها بقرطبة عند وقوفه على ما أنشأه الحريري بالبصرة وقد أتمب فيها خاطره وأسهر ناظره ، والتزم في نشرها ونظمها ما لا يلزم ، فجاءت على غاية من الجودة حدث فيها المنذر بن حمام عن السائب بن تمام "٣" ، وسيأتي الحديث عنها في باب قادم ان شاء الله .

وفي نفس الحقبة نجد جار الله الزمخشري المتوفى سنة ثمان وثلاثين وخمسمائة بنشى "مائة مقامة كالمقالة تدور كلها حول الوعظ ، وليس فيها راو ولا بطل ، بل خاطب في جميعها نفسه وذكرها بالآخرة ورغبها في الاعمال التي تومى بها الى نعم الله ورضوانه . . . ولعله أحسن في مقاماته قصورا عن شأوم مقامات الحريري مما جمعه يقول : "٤"

-
- (١) الفن ومذاهبه في النثر العربي : ٢٠٢ - ٣٠٣ ، القاهرة
 - (٢) محمد احمد الصديقي : ابن الحريري ومقاماته : ١٧٤
 - (٣) كشف الظنون : ١٧٨٥/٢
 - (٤) شرح الشريشي للمقامات الحريري : ٩/١

أقسم بالله وآياته ومشعر الحج وميقاته
ان الحريري حري بأن لكذب بالتهر مقاماته

وفي القرن السادس نجد الحسن بن صافي^(١) المصري الملقب
بملك النحاه وكان يقول : " مقاماتي جد وصدق ومقامات الحريري
هزل وكذب ، " وتوفي سنة ثمان وستين وخمسةائة .

ومن حاول تقليد الحريري فلم يوفق الشميم الحلبي ، يسرى
ياقوت الحمودي^(٢) " وردت آمد في سنة ثلاث وتسعين
 وخمسةائة ، وانا في عنفوان الشباب وريحة فبلخني أن بها علي بن
الحسن بن عنتر المعروف بالشميم الحلبي ، وكان من العلم بمكان مكين ،
واعتلق في حباله بركن ركين - الا انه كان لا يقيم لاحد من أهل العلم
المتقدمين ولا المتأخرين وزنا ، ولا يعتقد لاحد فضيله ، ولا يقر لاحد
باحسان في شي من العلوم ، ولا حسن ، فحضرت عنده ، وسمعت من
ازراءه على اولي الفضل ، وتنديده بالعيب عليهم بالقول والفعل ،
فلما أبرمني وأصجر ، وامتد في غيه وأصحر ، قلت له : اما كان فيمن
تقدم على كثرتهم وشغف الناس بهم عندك مجيد قط . . فقال : لا أعلم
الا ان يكون ثلاثة رجال : المتنبى في مديحه خاصة ، ولو سلك طريقه
لما برز علي ، ولست فضيلته نحوي ، ونسبتهما الي ، والثاني ابن
نباهة في خطبه ، وان كانت خطبي أحسن منها وأشهر ، وأظهر عند
الناس قاطبة وأشهر ، والثالث ابن الحريري في مقاماته .

قلت : فما منعك أن تسلك طريقته وتتشد مقامات تخمد بها
جمرته ، وتملك دولته ؟ فقال : يابني الرجوع الى العق خير من
التماذي في الباطل ، ولقد أنشأتها ثلاث مرات ، ثم أتأملها فأسترن لها

(١) الحسن بن صافي المصري ، الملقب بالشميم الحلبي ، كان من العلم بمكان مكين ، واعتلق في حباله بركن ركين - الا انه كان لا يقيم لاحد من أهل العلم المتقدمين ولا المتأخرين وزنا ، ولا يعتقد لاحد فضيله ، ولا يقر لاحد باحسان في شي من العلوم ، ولا حسن ، فحضرت عنده ، وسمعت من ازراءه على اولي الفضل ، وتنديده بالعيب عليهم بالقول والفعل ، فلما أبرمني وأصجر ، وامتد في غيه وأصحر ، قلت له : اما كان فيمن تقدم على كثرتهم وشغف الناس بهم عندك مجيد قط . . فقال : لا أعلم الا ان يكون ثلاثة رجال : المتنبى في مديحه خاصة ، ولو سلك طريقه لما برز علي ، ولست فضيلته نحوي ، ونسبتهما الي ، والثاني ابن نباهة في خطبه ، وان كانت خطبي أحسن منها وأشهر ، وأظهر عند الناس قاطبة وأشهر ، والثالث ابن الحريري في مقاماته .

(٢) كشف الظنون : ١٧٩١/٢

(٢) معجم الأديباء : ٢٦٧/١ - ٢٦٨

ازراءه على اولي الفضل ، وتنديده بالعيب عليهم بالقول والفعل ، فلما أبرمني وأصجر ، وامتد في غيه وأصحر ، قلت له : اما كان فيمن

تقدم على كثرتهم وشغف الناس بهم عندك مجيد قط . . فقال : لا أعلم الا ان يكون ثلاثة رجال : المتنبى في مديحه خاصة ، ولو سلك طريقه

وأعد إلى البركة فأغسلها ثم قال : وما أظن الله خلقتي إلا لأظهار فضل الحريري .

وفي نفس القرن نجد ابن الجوزي المتوفي سنة سبع وتسعين وخمسمائة يؤلف خمسين مقامة في الوعد ، صاغها على شكل قصص قصيرة يتأنق في ألفاظها وأساليبها ، ويلتزم فيها بالسجع والجناس ، ومختلف أنواع البديع ، وجعل لها بطلا هو أبو التقويم ، ولعل اسمه يدل على عمله فهو يظهر دائما في صورة واعظ ، يترفع عن الكد به بسلا انه يذمها في بعض مقاماته "١" .

وفي القرن السابع نجد نوعا من المقامات الفلسفية والترجمانات الصوفية وعدتها خمسون مقامة في ضروب من الفنون في مجلد ضخم ، مؤلفها أبو القاسم عبد العزيز بن تمام المصراحي المتوفي سنة سبع وثلاثين وستمائة ، جعل الراوي لها أبا القاسم النواب والمراد عنه أبا عبد الله الأواب . "٢"

ويسرد لنا صاحب كشف الظنون "٣" أعدادا كبيرة من المقامات ، كالمقامات الزينية لابن الصيقل الجزري المتوفي سنة ٧٠١ هـ وهي خمسون مقامة كالحريري لكنه مؤخر عنه ، ونسبها إلى أبي نصر المصري وعزا روايتها إلى القاسم بن جريال الدمشقي . والمقامات الشهابية لابن الصائغ الدمشقي ، المتوفي ٧٢٢ هـ عطاها للقاضي شهاب الدين الخوي . . . وفي القرن العاشر نجد مقامات لمشاهير العلماء كالسيوطي المتوفي ٩١١ هـ وهي تسع وعشرون رسالة كل واحدة منها مقامة ، ومن مقاماته ساجعة الحم وهي الأولى لأنها في الحرمين مكة والمدينة والسندسية في أبوي النهي صلى الله عليه وسلم . ، واللازوردية في موت الأولاد ، وطرز الحمامة في التفرقة بين المقامات والقمامة . . . الخ وهي بالرسائل أشبه منها بالمقامات .

(١) كشف الظنون ١٧٩٠/٢

(٢) المصدر نفسه ١٧٩٢/٢

(٣) انظر كشف الظنون ج ٢ ص ١٧٨٥ - ص ١٧٩٤

كما نجد ايضا في هذا القرن نفسه مقامات للشهاب الخفاجي الذي يصفه المحبي بقوله "١" : " صاحب التصانيف السائرة وأحد أفراد الدنيا المجمع على تفوقه وبراعته ، وكان في عصره بدر سماء العلم ومير أفق النثر والنظم ، رأس المؤلفين ، ورئيس المصنفين ، سار ذكره سير المثل ، وطلعت أخباره طلوع الشهب في الفلك ، وكل من رأيناه أو سمعنا به ممن أدرك وقته محترفون له بالتفرد في التقرير والتحرير وحسن الانشاء " .

وورد له في الريحانة خمس مقامات هي "٢" : الرومية ، مقامة الغريبة ، المقامة الساسانية ، المقامة المخربية ، ومقامة عارض بها الوطواط ، وهو في مقاماته لا يلتزم راويا واحدا ، ولا بطلا واحدا كمقامات الحريري والبديع بل يختلف الراوي والبطل من مقامة الى أخرى مع التزام السجع وأنواع البديع الأخرى .

وفي المغرب العربي نجد في القرن الحادي عشر مقامات أبو عبد الله الوري "٣" المتوفي سنة ١١٩٠ هـ وقد ألف ثلاث مقامات هي : الباهية أنشأها عندما ابتنى أحمد الباهي حاكم تونس مدرسة الزاوية الباهية ، ونستطيع منها ان نلمح محالما من ثقافة الوري واكتسبال مقومات الصناعة الادبية والعلمية عنده ، والمقامة الختامية كتبها بمناسبة ختان أولاد الامير ، والخمرية كتبها يمدح فيها الحاكم علي بن الحسين ويشيد بعمله الجليل من هدم للحنات وبناء المدارس لسكن الطلبة مكانها ، وهو يمدح في هذه المقامة ويجدد فيجري حوارا رمزيا بينه وبين فتاة جميلة لاتعد وأن تكون رمزا لتونس وأهلها ، وهو يصور من خلال حوار الرمزى وضع المملكة التونسية آنذاك السياسي والثقافي والاجتماعي على عهد الدولة الحسنية ، ومقاماته مزيج من الشعر والنثر .

-
- (١) خلاصة الاثر : ٣٣٠/١
 - (٢) ريحانة الالباء : ٣٤١/٢ - ٤٠٧ ، ط القاهرة ١٣٨٢ هـ تحقيق عبد الفتاح الحلو .
 - (٣) مقامات الوري ورسائله : ١٢ ، تحقيق عبد العزيز الفيزاني ، ط تونس ١٩٧٢ م

وفي القرن الثالث عشر نجد مقامات البربر المتوفي سنة ١٢٢٦ هـ وهي تمثل تطورا فنيا نحو الفن القصصي ، حيث مقاماته حلقة واحدة سلسلة تبدأ بكلمة حكى ، وليس يحدثنا أو أخبرنا كما رأينا عند القدماء ، كما ان العنصر الخيالي متوفر فيها ففي آخرها يقول "١" :
" ثم اني رجعت الى حسي فوجدتني اخاطب نفسي ، ولا بدوى ولا يعير ... " أى أن حوادث هذه الحكاية كليهما حديث منام ، والحوار ظاهر فيها وقد أدار دفته بدقة متناهية ولكن ما يشوبها هو غرضها أى جلب المال عن طريق المدح .

وفي القرن التاسع عشر جاء ناصيف اليازجي ، وهو أشهر من قلد الحريري من المتأخرين ، وقد نبغ في علوم العربية كلها فألف في النحو والصرف والعروض بالإضافة الى نهوضه في الشعر ، ثم انصرف الى كتابة المقامات فقرأ مقامات الحريري ، وما زال يروض قلمه على مقامات تنحو نحوها حتى استطاع أن يجعل ستين مقامة سماها " مجمع البحرين " أى الشعر والنثر . واتخذ رواية سماه سهيل بن عباد وبطلا سماه ميمون بن خزام ، وهو أديب شحاذ من نوع أبي زيد السروجي ، وأسي الفتح الاسكندري وقدم اليازجي لمقاماته بعقدمة اعترف بها متواضعا - بقصور همته عن الحريري والهديع فيقول "٢" : " ... انني قد تطلعت على مقام أهل الأدب من أئمة العرب بتلفيق أحاديث تقتصر من شبه مقاماتهم على اللقب ، ونسبت وقائصها الى ميمون بن خزام ورواياتها الى سهيل بن عباد ، وكلاهما هي بن يبي ، مجهول النسب والبلاد ، وقد تحررت فيها ما استطعت من الفوائد والقواعد والفرائب والشوارد ، والامثال ، والحكم والقصص التي يجري بها القلم وتسعى لها القدم . "

(١) يوسف الشاروني ، المقامة في تراثنا العربي ، مجلة الفيصل ،

العدد السابع سنة ١٩٨٠ هـ .

(٢) مجمع البحرين : ٣ ، بيروت سنة ١٨٨٠ م ، ١٢٩٧ هـ .

وهو يسير على طريقة الحريري في كل شيء حيث يبدأ في المقامة الأولى بالتعريف بين البطل والرواية كما فعل الحريري في مقامه الأولى ، وتتابع المقامات بعد ذلك وفي كل مقامة يكشف سهيل بن عباد صاحبه ميمون بن خزام كالحارث بن همام عندما يكشف السروجي بعد أن تتطلي على الناس حيله ومكائده .

كما انه استعمل الالغيب الحربية كالكلمات المهملة والمعجمه ، وما يستحيل بالانعكاس ، وابتكر نوعا سماه عاقل العاقل ، وفيه اشترط على نفسه أن لا تكون الحروف التي تتكون منها الابيات مهملة فقط بل يكون مسمى الحرف حين ينطق به خاليا من النقط أيضا ومنه قوله :

وله صول وطسول وله صد ورد

بالإضافة الى الالغاز كقوله في القمر :

ومولود بدون أب وأم

بلا قوت يعيش ولا يموت

له وجه وليس له لسان

فيخبرنا ويلزمه السكسوت

وفي المقامة الأخيرة نجد ميمون بن خزام في المسجد الأقصى يقف خطيبا يقرع الآذان بزواج الوعد ويحذرهم من عذاب النار ، ويتوب الى الله توبة نصوحا ويختفي عن الأبصار ، وهي تماما كتوبة أبي زيد السروجي بطل الحريري الذي تزهد ولهس الصوف وأم الصوف .

ثم جاء بعده ابراهيم المويلحي ليختم هذه السلسلة من كتاب المقامات وذلك بكتابة المسمى (حديث عيسى بن هشام) والذي يعتبر تحولا ظاهرا عن سياق المقامات المحتاد ،

فلا راو واحد ولا بطل معين بل ان هذا الحديث يشبه السى حد كبير المسرحية ، لكنه غير موحد الموضوع وانما هو درس اجتماعي

يحاول فيه الكاتب عرض احوال مصر ونقدها في شتى مجالات الحكم والادارة والقضاء والمحاماة والشهادات المزورة التي تشتت بالمال وغير ذلك .

يقول المؤلف "١" : " حديث عيسى بن هشام وان كان فسي نفسه موضوعا على نسق التخيل والتصوير فهو حقيقة متبرجة في شوب خيال لا أنه خيال مسبوك في قالب حقيقة ، حاولنا أن نشرح به اخلاق أهل العصر وان نصف ما عليه الناس في مختلف طبقاتهم من النقائص التي يتعين اجتنابها والفضائل التي يجب التزامها "

(١) الموليحي : حديث عيسى بن هشام : ٦ ، القاهرة ١٣٣٠ هـ

رابعاً : خصائص المقامة المشرقية :

أريد قبل ذكر خصائص المقامات الشرقية أن أعرض لاسلوب الكتابة الفنية في القرن الرابع الهجرى عصر بديع الزمان الهمداني ، ذلك الاسلوب الذى ترك لمسات معينة تأثر بها بديع الزمان ففى انشائه لمقاماته ، وبقيت هذه الموهبات مطبوعة فى اسلوب المقامة على مر العصور ،

فالقرن الرابع عصر ازدهار الادب ولا شك لذلك كان فيه تطورات فى الكتابة واسلوبها عما كان من قبل فأصبحت الصنعة والزخرفة اللفظية والمحسنات البديعية هي قوام اسلوب هذا العصر ، نستشف ذلك من كتابات ورسائل كبار النثرين فى هذا العصر كابن العميد والخوارزمي ، وبديع الزمان الهمداني ، فكانوا يعتمدون السجعات القصيرة بالاضافة الى تضمين النص حشداً من الآيات والاحاديث والابيات الشعرية والامثال السائدة والحوادث التاريخية ، اظهرا لسعة الثقافة والاطلاع ، كما اعتمدوا أيضاً حل الابيات الشعرية ذوات المعنى الجميل ، كما ظهر هذا واضحاً فى مقامات البديع وفى مقامات الحريري .

ويمكن تلخيص خصائص المقامة المشرقية بما يلي :

١ - موضوعها : تدور المقامات حول موضوعات مختلفة ومتنوعة ، فكل مقامة تكون نصاً متكاملأ لعلاقة لها بالتي تليها فى أغلب الاحيان فمثلاً أكثر المقامات كانت تتحدث عن الكديه وأصحابها وحيلهم وطرقهم الملتوية للحصول على الاموال والاقوات كما فى مقامات البديع والحريري كما أن من مقامتهم ما هو ذو غاية علمية وأدبية ونحوية وفقهية وفكاهية ، وتاريخية يتحدث عن أشخاص مضوا فى غابر التاريخ كالمقامة الخيلانية يذكر فيها ذوالرمة الصميرية يذكر فيها الصمري . . . وقد تكون خيالية كالمقامة

الاسدية عند البديع ومقامات البربر ، ومن المقامات الشرقية ما كان هدفها الوعظ والارشاد فقط كمقامات الزمخشري .

٢ - هدفها : تهدف في الغالب الى اظهار براعة كاتبها في استعمال الاساليب الادبية وحسن الصياغة للحكاية ، وللزيات رأى في هذا حيث يقول : " ١ " وليس الغرض من المقامة جمال القصص ولا حسن الوعظ ولا افادة العلم وانما هي قطعة أدبية فنية يقصد بها (الفن للفن) وتجمع شوارب اللغة ونوادير التركيب في اسلوب مسجوع أنيق الوشي يجب أكثر ما يؤثر ، ويلبذ أكثر ما يفيد ، ولم تراع قواعد الفن القصصي فيما كتب من هذا النوع فلم يعن كاتبوا المقامات بتصوير الحكايات وتحليل الاشخاص ، وانما صرفوا همهم الى تحسين اللفظ وتزيينه .

ونستطيع أن نوافق الاستاذ الزيات في بعض ما ذهب اليه ، فهي لم تكن قصة ، ولم يتعمق كاتبوها بمراعاة قواعد الفن القصصي ، اما أن هدفها كان الفن للفن فقط ، فهذا فيه نظر لأن من هدفها تعليم اللغة للناشئة وقول الزيات انها تجمع شوارب اللغة فيه دلالة على ذلك ، كما أننا نجد بديع الزمان في المقامة التهديدية والحمدانية يسرف في استعمال الالفاظ الغريبة حتى اذا استوفى ذلك عاد فشرح لفظه كعلم لغة لا كأديب ينشي قصة ، وهذا الحريري أيضا يكشف عن نيته التلميمية عند انشائه لمقاماته فيقول " ٢ " : " اذا كانت الاعمال بالنيات ، وبها انعقاد العقود الدينيات ، فأى حرج طى من أنشأ ملحا للتبنيه لا للتويه ، ونحا بها منحى التهذيب لا الاكاذيب ، وهل هو فسي ذلك الا بمنزلة من انتدب لتعليم او هدى الى صراط مستقيم " . كما أن من جل أهدافها نقد الاوضاع السائدة في ذلك الوقت فوجود الفقر

(١) تاريخ الأدب العربي : ٣٩٧

(٢) مقامات الحريري : ٨

المدقع في ظل الغنى المفرط أوجد طبقة من المكدين واللصوص الذين عبرت عنهم المقامات أمدق تعبير ولعل التحقيد اللفظي في أسلوب المقامات أو بعضها تعبير عن التعميد والتكلف في حياة الناس ، كما أن السخرية التي نجدها بين السطور تعبر عن الألم الذي ساد طبقات المجتمع من جراء الفوضى السائدة .

٣ - أشخاصها : الشخصيتان الرئيسيتان التي تدور عليهما المقامه هما : البطل والراوى ، وبينهما صلة وثيقة ومعرفه قديمة ، فالراوى دائما يحدث عن البطل ويتبعه في أسفاره ويحضر مجالسه المختلفة في الاقطار المختلفة فيسمعه واعظا مرة وعالما أخرى ومكديا شحانا أحيانا . وفي كل مرة يكشف النقاب عن وجهه أو يتسلل خلفه حتى يعرف حقيقته فانا هو صاحبه البطل لا يخطئه أبدا . وكلا من البطل وراويته مجهول يخترعه صاحب المقامه ويعطي لهما اسما موحية لاشياء يريد ها .

٤ - أسلوبها الفني : السجع هو الطابع العام لاسلوب المقامات مع الاختلاف بين المنشئين من حيث العناية به وتطلبه فمنهم من يقصده في جميع عباراته حتى يضطره الى التكلف والتعمسف والالتيان بالغيرب واللغات الشاذة ومنهم يجنح اليه ولكن بغير تكلف ، هذا بالاضافة الى انواع العلية والزخرفة اللفظية من جناس وطباق وتورية . . . وكثرة الاستشهادات الشعرية والاسبيج المقامة بالآيات القرآنية والاحاديث النبوية الشريفة والحكم والامثال وغيرها ، ولعل هذا الاهتمام الزائد بهذه النزعة اللفظية في المقامات هي التي قللت من القيمة النقدية لأوضاع الناس فيها كما هو سبيل القصة والمسرحية في الأداب الأخرى ، ولعل في كتاب عيسى بن هشام للمويلحي دليل على ما نقول ان انه لما تحرر من سيطرة السجع وتكلف المحسنات استطاع أن يعالج مختلأ المشكلات التي أرادها في مجتمعه مع أن كتابه يعد ضمن حيز المقامات .

هـ - العقدة والحوار : لكل مقامة عقده تدور عليها أحداث المقامة ، وتشتد هذه العقدة أحيانا وتتأن وتسهل الى حد البساطة أحيانا ، ولكنها تظل دوما نقطة ارتكاز الحوار الذي يجرى في الغالب بين الراوي والبطل ، والذي يستمر مشيرا لعواطف السامعين وانفعالاتهم حتى تحل العقدة بظهور أور البطل وانكشاف شخصيته .

ولكن ما يضعف عقدة المقامة انها دائما تسير الى حمل واحد وشخصية واحدة تشتبه على الراوي في كل مرة ثم يندھش حينما يتوصل الى أنه من أراد .

وبهذا فان المقامة فيها نفحة من الاقصوة أو القصة القصيرة التي تعتمد على الفطرة ، كأقاصيص العرب القديمة ، يقول زكي مبارك : " ١ " ولا عيب أن تخلو آثار العرب من القصص الطويل ، فان الفن الصحيح يرتكز أولا على الفطرة ولم يكن العرب مخطورين على القصة التي تقرأ في أيام واسابيع ، ولذلك خلا شعرهم ونثرهم من الآثار القصصية التي وجدت عند معاصريهم في الشرق والغرب " .

الباب الثاني

المقامات الأندلسية

* * * *

الفصل الأول

انتقال فن المقامة الى الاندلس

كان لاتصال المد الثقافي بين المشرق والمغرب دور هام ففي انتقال الفن المقامي بجانب فنون أخرى الى الاندلس . فقد لعبت رحلات الأندلسيين الى المشرق دورا أساسيا في وقوعهم على هذا الجنس الأدبي ، ثم ان المشاركة الوافدين على الاندلس طلبا للمجد والشهرة العلمية والأدبية قد دعّموا كثيرا من ركائز هذا الفن الجديد على أهل جزيرة الأندلس^١ فقد (هاجرت الى الاندلس كتب الفارابي وديوان المتنبي ومقامات الحريري ورسائل البديع والخوارزمي وخطب ابن نباته وكتب الثعالبي وخاصة البيهية)^٢

ومن المؤكد أن أهل الاندلس عرفوا مقامات بديع الزمان الهمداني ورسائله في عهد ملوك الطوائف . ان أن ابن بسام يذكر لنا مقامات لابن شرف القيرواني المتوفي سنة احدى وستين وأربعمائة للهجرة (عارض بها البديع في بابها وصب فيها على قلبه)^٣ ، كما نجد لابن شرف نفسه مقطوعات صغيرة في مدح الشيبان^٤ ودمه تسير على نهج الهمداني في مقامته الدينارية كقوله^٤ : (أوضح من جبال

- (١) أفرد المقرئ الفصول الطوال لاستعراض من رحلوا من الاندلس الى المشرق ومن قدم الاندلس من المشاركة ، انظر : نفع الطيب : ج ٢ ، جميع صفحات المجلد ٥ - ٧٠٤ ، ت احسان عباس ، ط بيروت ، ١٣٨٨ هـ ، كما وقف ابن بسام وقفة طويلة لذكر الكتاب والوزراء والاعيان والادباء والشعراء الوافدين على جزيرة الاندلس . الذخيرة : القسم الرابع ، مج ١ ، جميع صفحات المجلد - أيضا ٧ - ٣٨٠ ، ت عباس .
- (٢) المراكشي ، الذيل والتكملة : ٣٧/١ ، ت ، احسان عباس ، ط ، بيروت .
- (٣) ابن بسام ، الذخيرة القسم الرابع الجزء الاول ص ١٩٦ ، ت ، احسان عباس ، بيروت .
- (٤) ابن بسام ، الذخيرة ، القسم الرابع الجزء الاول ص ١٨٣ ، ت ، احسان عباس ، بيروت .

تهامة ، لعيني زرقاء اليمامة . أشهر من النار على المنار ، والليل كالقار . أبين من الكعبة للطائفين ، ومن المساجد للمكافين ، أشهر من الزبرقان عند جرول ، ومن الأبلق الفرد عند السموأل ، أظهر في الصينين من الهرمين ، أشهر في العطاء من الطائي ، وفي الأيادي من الأيادي ، أشهر من الآس في الأعواس ، أوضح من النجوم لبطليموس ، والطب لجالينوس ، والحاج في الآبنوس) .
وقال في ضده "١" : (هو أخفى من نقطة الجيم ، ومن بياض الميم .
أخفى من الأسرار عند الأحرار . أخفى من السهمى ومنديل الرها "٢" .
أخفى من نفس الجبان إذا التقت حلقتا البطان . أخفى من بيضتسي الخائف ، وقد أحسن بالطائف . أخفى من تفسير شعر لبيد ، على فهم البليد . أخفى من عطارذ على المطارد . أخفى من السوسة في العود ، ومن السر في الرعود) .

ويقول البديع في المقامة الدينارية "٣" : (ياكربة تموز ، يابوخ الكوز ، يادرهما لايجوز ، ياحديث المختين ، ياسنة البوس ، ياكوكب النحوس ، يابوطأ الكابوس ، ياتخمة الروموس ، يام حبسين ، يارند العين ، ياغداة البين ، يافراق المحبين ، ياساعة الحين ، يامقتل الحسين ، ياشقى الدين ، ياسنة الشين ، يابريد الشم ، ياطريد اللوم ، ياثريد الثوم ، يابادية الزقوم . . . ياكلبا في الهراش ، ياقردا في الفراش ، ياقرعية باش ، يا أقل من لاشي . . . الخ) .

-
- (١) نفس المصدر السابق ص ١٨٣ - ١٨٤ .
(٢) الرها : مدينة بالشام ، وكان أهل الانجيل يخفون هذا المنديل في كنيستها ويؤمنون أنه منديل عيسى عليه السلام ثم سرق واشترى فعدمت بركته . الذخيرة ق ٤ ، ج ١ ، ص ١٨٤ .
(٣) شرح مقامات بديع الزمان الهمذاني ، محمد مهدي الديين عبد الحميد ، ص ٣٧٦ - ٣٧٧ .

فالتأثير واضح جلي من حيث التزام السجحات القصيرة المتلاحقة التي تعطي للمذموم أو المدح هبة مميّنة تجعله اما مثلا للحامس او انموذجا حادا للمخازي . بالاضافة الى التركيز على الحوادث التاريخية ومشاهير الاشخاص الذين ارتبطت أسماؤهم بحوادث جرت على الألسنة مجرى المثل في عبارات كلا من الكاتبين .

ثم نجد للشاعر والكاتب الاندلسي أبي "١" المغيرة بن حزم ، رسالة يعارض بها بديع الزمان الهمداني في وصف غلام تسير على نفس النهج في الاسلوب والفكرة ومنها "٢" : (ورد كتابك ينشد ضالسة ودنا ، ويرفع خلق عهدنا ، ويطلب ما أفاتته جهرتك الينا ، وذهبت به جنايتك علينا ، أيام غضك ناضر ، ويدرك زاهر ، لانجد رسولا اليك الا نظرة تخرق حجاب الدموع ، ونفرة تقيم مناد الضلوع ، فان رمنا شكوى ينفث بها بصدورنا ، ويستريح اليها مهجورنا لقينا دونك أمتع سد وأقبح صد ، وأقدح زند ، وأبحر رد ، حتى اذا طفقت تلك النيران ، وانتصف لنا منك الزمان بشحرات أغشت هلالك كسوفنا وقلبت ديباجتك صوفا ، وأعادت نهارك ليلا ، وناخت عليك تلهفا وويلا . . .

-
- (١) هو عبد الوهاب بن أحمد بن سعيد بن حزم أبو المغيرة الوزير الكاتب من المقدمين في الآداب والشعر والبالغة ، وهو ابن عم الفقيه أبي محمد بن حزم . . وله شعر كثير مجموع منه :
لما رأيت الهلال منطويا في غرة الفجر فارق الزهرة
شبهته والعيان يشهد لي بمولجان اوفى لضرب كرة
مات أبو المغيرة قريبا من العشرين واربعائة . انظر : بغية الملتبس ، للضبي ، ط مدريد ، ص ٣٨٠ ، ترجمة رقم ١١١٠ ،
نفح الطيب ، ت عباس / ١ / ٦٢٠ ، ط بيروت ، جذوة المقتبس :
ص ٢٩١ ، رقم ٦٥٨ ، ط القاهرة ١٩٦٦ م ،
الصلة : ٣٨٠ / ٢ ، وذكر وفاته سنة ٤٣٨ هـ ودفن بطليطلة .
(٢) الذخيرة ، ق ١ ، ج ١ ، ص ١٤٠ - ١٤١ .

أقبلت تتسلسل الينا لوأنا وتطلب منا عوانا . قد أنسك نل العسزل
عز الولاية وأولاك طمعا نسيانك تلك الجناية ، أيام ترشقنا بسهام لحاظك
رشقا ، وتقتلنا بسيوف الفاظك عشقا ، وتعميس عصنا فتشير حزنا ، وتطلع
شمسا وتغيب نفسا ، فالآن نلقاك بدمع قد جف ، ووجد قد كف ، ، ، ،
فاطو ثوب وصلك ، ولا حاجة لنا الى لباسه ، وأزوطارق شخصك فسلا
رغبة لنا في ايناسه ، فما نشتهي اليوم زيارة رمن من زهد فينا أمسى ،

حانت منيته فأسود عارضه

كما تسود بعد الميت الدار . ()

فانظر مدى التشابه بين هذه الرسالة ورسالة بديع الزمان
الهمداني التي بحث بها الى شاب كتب اليه بعد أن عزل عن ولاية
حسنه يستميل فؤاده " ١ " وردت رقعتك - أطال الله بقاءك -
فأعرتنا طرف التعرز ، ومددت اليها يد التقزز ، وجمعت عنها ذيل
التحرز ، فلم تند على كبدى ، ولم تحظ بناضرى وىدى ، وخطبت
من مودتى مالم أجدك لها كفو١٤ . وطلبت من عشرتى مالم أرك لها
رضى وقلت : هذا الذى رفع عنى اجفان طرفه ، وشال بشعرات أنفه ،
والآن ان نسخ الدهر آية حسنة ، وأقام مائد غصه . . . وانتصر لنسا
منه بشعرات كسفت هلاله ، وأكسفت باله وسخت جماله . . . جاء
يستسقى من جرفنا جرفا ، ويفرف من طيننا عرفا . فمهلا يا أبا الفضل
مهلا !

أرغبت فينا ان علا ك الشعر في خد قحل
وخرجت عن هد الطبا * وصوت في هد الابل
الآن تطلب عشرتى عد للحدادة ياخجل

(١) كشف المعاني والبيان عن رسائل بديع الزمان ، ت ابراهيم

الطرابلسي ، ص ٨٤ ، ط بيروت سنة ١٨٩٠ م .

وتناسيت أيامك اذ تكلمنا نزرًا ، وتلحظنا شزرا ، وتجالس
من حضر ونسترق اليك النظر . . . أيام كنت تتمايل والاعضاء تتزاييل ،
وتتفازنج والاجساء تتفالج وتتلقت والاكباد تتفتت . . .

وتبسم عن ألمي كأن منورا تخلل حر الرمل غص له ندى .
. فأما ما استأذنت رأيي فيه من الاختلاف الى مجلسي فما
أقل نشاطي لك وأضيق بساطي عنك ، وأشبع قلبي منك ، وأشهد
استغفائي عن حضورك . . . مالك يا أبا الفضل تحتاض من الرغبة عنا رغبة
فيينا ، ومن ذلك التدلل علينا تذلا لنا ومن ذلك التعالي تبصبا ،
ومن ذلك التفالي ترخما ؟ ولكن اعتضت عن ذلك الذهاب رجوعا ،
لقد اعتضنا من هذا النزاع نزوعا ، فانا برحلك وجانيك ، فلق هبلك
على غاريك ، لا أوثر قريك ولا أئده سريك ولو أحببت أن أوجعك لقلت :

مايفعل الله باليهود ولا بعماد ولا شمود
ولا بفرعون اذ عصاه ما يفصل الشمر بالخدود

والمدقق في النصين السابقين لا يكد يجد فارقا يذكر بين
ماكتبه ابن حزم وما كتبه الهمداني ، بل انا لنحس النفحة الهمدانية
في أدب ابن حزم في العبارات والمعاني ، حتى اننا نجد ابا المغيرة
ينقل بعض عبارات البديع بنصها مع شي قليل من التغيير كقوله :
" وانتصف لنا منك الزمان بشعرات أخضت هلالك كسوبا "
وقول البديع " . . . وانتصر لنا منه بشعرات كسفت هلاله "
بالاضافة الى التزام السجع وتبجج الرسالة وختمها بالابيات الشعرية
ويعلق الدكتور الشكعة على ما بين الكاتبين من تأثير وتأثير بقوله " (١) :
" أنه من الانصاف أن نذكر أن ابن حزم نقل كل معاني بديع الزمان
وصاغها في أسلوب أقرب الى الحضارة وأدنى الى الرقة وأبعد عن
حرارة المنف التي عرف بها بديع الزمان . وليس من شك في أن

(١) الأدب الاندلسي : ٥٨٨ - ٥٨٩ ط بيروت سنة ١٩٧٥م

السبب في هذه الفارقة الوحيدة بين الرسالتين ترجع الى طبيعة كل من الكاتبين ، فالبديع كتب رسالته في ظل من غضارة العمر لأنه لم يمصر أكثر من أربعين حولاً ، وكانت فيه طبيعة الأديب من ناحية أخرى ، أما ابن حزم فكانت فيه سجية العالم ، وفيما عدا ذلك فالمعاني واحدة والمسلك واحد ، وليس هناك من خلاف الا ما فرضته طبيعة كل من الأديبين والبيئة التي ينتسب اليها كل منهما ، ولم نكد نلاحظ هذا الفرق الا في الاسلوب وفيما عدا ذلك فيكاد يقع الحافر على الحافر .

ثم نجد من المتذوقين للمقامات الهمدانية الناصجين على منوالها - أيضا - "١" ابن شهيد الاندلسي الذي عاش في فترة ملوك الطوائف والمتوفي سنة ست وعشرين وأربعمائة وأكثر ما نال اعجابه منها تلك القطع الوصفية ولذلك أنشأ على مثالها قطعاً في وصف الماء والبرغوث والثعلب والحلوى ، كما أن رسالته المسماة " بالتوايح والزوايح " مستوحاة فسي جوها العام من المقامة الابليسية لبديع الزمان ، وسنعرض لهذا الموضوع فيما بعد ان شاء الله .

جاء في وصفه للماء قوله "٢" : " انظره ياسيدي كأنه عصير صباح أو ذوب قمر لياح ، ينصب من انائه ، انصباب الكوكب من سمائه ، العين حانوته ، والفم عفريته كأنه خيط من غزل قلق أو مخصر يضرب به من ورق يرفع عنك فتردى ويصدع به قلبك فتحيا . "

وهو بهذا يحاكي بديع الزمان عندما وصف الماء بالمقامة المضيرية بقوله "٣" : " أزرق كعين السنور ، صاف كقضب البلور ، انتخب من الفرات ، واستعمل بعد البيات ، فجاء كلسان الشمعة في صفاء الدمعة . "

(١) ستورد له ترجمة كاملة عند كلام عن مقامته .

(٢) الذخيرة ، ق ١ ج ١ ، ص ٢٧٦ .

(٣) شرح مقامات الهمداني ، ص ١٢٤ .

كما أن ابن شهيد متأثر جدا في رسالة الحلوة بالمقامة المضيرية للهمذاني وهي في الواقع شديدة الشبه بالمقامة لأن فيها بطلا تدور حوله أحداث القصة وهو ذلك الفقيه الذي خرج في رحلة بمصاحبة ابن شهيد ولمسة من الاتراب والأصحاب "١" () فقيه ذولقم . . . وغريم بطن . . . رأى الحلوى فاستخفه الشره ، واضطرب به الوله ، فدار في ثيابه ، وأسأل من لعابه . . . الخ) .

ولعل هدف ابن شهيد من هذه الرسالة أو المقامة كان اظهار براعته اللغوية في الوصف فنجده يقف عند كل صنف من أصناف الحلوى ويورد لها اوصافا دقيقة على لسان ذلك الشيخ الفهم "٢" () ونظر السي الفالونج فقال بأبي هذا اللص ، انظروه كأنه الفص مجاعة الزنابير أجريت على شوابير وخالطها لهاب الحبة فجاءت أعذب من ريق الأخبة ، ورأى الخبيص فقال : بأبي هذا الغالي الرخيص هذا جليد سماء الرحمة ، تخضت به فأبرزت منه زبدة النعمة ، يجرح باللحظ ويدوب من اللفظ . . . ولمح القبيطاه فصاح بأبي نقرة الفضة البيضاء ، لا ترد عن العضة أبتار طهخت أم بنور ؟ ورأى الزلابية فقال : ويل لاسها الزانية بأحشائي نسجت ، أم من صفاق قلبي ألفت ؟ فاني أجد مكانها من نفسي مكينا وحبل هواها على كبدى متينا . . . الخ) .

وهكذا يستمر الشيخ الفقيه منتقلا بين أطباق الحلوى واصفا لها كيف عجنت وطبخت بنفس تأثرة هزتها شهوة الطعام الى أن نال بغيته منها بأرطال ابتاعها له الغلام بأمر أبي حفص بن شهيد وهذا تختتم الرسالة .

ولا يخفى أثر البديع ومقامته المضيرية في هذه الرسالة فالغرض واحد وهو اظهار براعة الوصف فنجد الاسكندري بطل مقامات الهمذاني

(١) الذخيرة ، ق ١ ، ج ١ ، ص ٢٧٠ - ٢٧١ . ت عباس
(٢) نفس المصدر والصفحة .

يدعى لتناول الطعام عند أحد تجندار ببغداد فجعل التاجر طول الطريق يصف زوجته وحدثها في صنعتها وتأنقها في طبخها حتى وصلا إلى الدار فيأخذ صاحبها - التاجر - يصفها متقصيا دقائقها بادئا في الباب وحلقته "١" (. . . انظر إلى حذق النجار في صنعة هذا الباب . . . هو ساج من قطعة واحدة لا مأروض ولا عفن اذا حرك أن ، وانا نقرطن . . . وهذه الحلقة تراها اشتريتها في سوق "٢" الطرائف من عمران الطرائفي بثلاثة دنانير مخزية . . . فيها ستة أرطال ، وهي تدور بلولب في الباب بالله دورها ثم أنقرها وأبصرها) ثم ينتقل ليصف الدهليز بقوة الأساس ومثانة الحيطان ويطيل في شرح كيف تم له شراء هذه الدار باستدراج صاحبها والاحتيال عليه ، ثم يأمر الغلام بالطست والماء ليوهم أن اللحم قد قرب ولكنه يشرع فسي وصف الغلام ثم بالطست ثم بالماء فالخوان فالكنيف لا يترك صفيرة ولا كبيرة الا وقف عندها ووصفها بأطناب وتفصيل حتى ضجر ضيفسه ولان بالفرار .

كما نجد الكاتبين يتخذان نفس الأسلوب الفكاهي في وصف حال الأشخاص الذين تدور حولهم الأحداث فالفقيه عند ابن شهيد شديد الشره لم يستطع مفارقة الحلوى أضف إلى ذلك ان اختياره للفقيه بالذات ليمثل هذه الصورة كان له تأثيره الكبير في اضافة جنس السخرية والفكاهة لان المفروض أن يكون الفقيه على عكس ذلك يتحلى بالزهد والورع ، وربما كان لابن شهيد أهداف أخرى قصد إليها من خلال اظهاره للفقيه بهذه الصورة المشينة ، كما أن الهديع رسم لصاحبه

-
- (١) شرح المقامات ، محيي الدين عبد الحميد ، ص ١٢٨ .
 - (٢) سوق الطرائف ؛ سوق كانت ببغداد تباع فيها النفاخس . انظر : شرح المقامات ؛ ٢٨ . المقامة لشوقي ضيف ، ص ٣٥ معزیه ؛ كاملة ، وبذلك اشتهرت دنانير المعز لدين الله الفاطمي صاحب مصر ، ان كانت أثقل من غيرها في الوزن .

صورة الثرثار أو المهزار الذى يطلق لسانه في كل أمر يخطر له . كل ذلك بأسلوب بديع وروح فكاهية تجعل السامعين يتلقونها بالقبول والاستحسان .

ونجد أيضا في عصر ملوك الطوائف مقامة طويلة للكاتب أبي محمد ابن مالك القرطبي الذى كان يعيش في كنف ابن صمادح أمير المريه ، وبني هود أصحاب سرقسطه "١" وقد ساق لنا منها ابن بسام في ذخيرته بعض الفصول ، كما ذكر بأنه صاحبها ، غاطب بها ابن صمادح المذكور "٢" وسنقف عندها في فصل قادم ان شاء الله .

ثم بدأت تظهر مقامات الحريري في الشرق ، وكان ذلك في أوائل عهد المرابطين بالاندلس حوالي سنة ثلاث وتسعين وأربعمائة وتبعها لسنة الهجرة النبوية بين الشرق والغرب انتشرت مقامات الحريري بالاندلس انتشارا عظيما ، وذاعت شهرتها ، وما يدل على عناية أدباء الاندلس وعلمائها بهذه المقامات حرصهم الشديد على سماعها وحفظها وروايتها عن مؤلفها ببغداد ثم عودتهم الى بلادهم بهذا الذخر العظيم ، ومن هؤلاء : الحسن بن علي بن الحسن الانصارى البطليوسى الذى " رحل الى المشرق فأدى الفريضة وتجول هنالك . . . وله رواية عن زاهر بن طاهر الشماحي وعبد المنعم بن عبد الكريم القشيري وابي محمد الحريري سمع منه مقاماته الخمسين ببستانه ببغداد . . . " ٣ وكان ذلك في سنة خمس وخمسمائة على ما يذكر الشريشي "٤" ومنهم أيضا أحمد بن محمد بن خلف بن محرز بن محمد الانصارى ، ممن أهل شاطبة يكنى أبي العباس رحل الى الشرق وأقرأ القرآن بدمشق

-
- (١) العماد الأصفهاني : خريدة القصر ، القسم الرابع ، ج ١ ، ص ٤٤٧ / حاشية المحققين ، تحقيق : عمر الدسوقي وعليه عبد العظيم ، ط مصر سنة ١٩٦٤ م
 - (٢) انظر القسم الاول ج ٢ ، ص ٧٤١ ، ت عباس .
 - (٣) ابن الآبار ، التكملة ، ج ١ ، ص ٢٦٠ ، نشر عزت المطار ، القاهرة ١٩٥٦ م .
 - (٤) شرح مقامات الحريري ، ٣ / ١ ، ط القاهرة ، تحقيق ابو الفضل ابراهيم

بعدة روايات . . . وأنه سمع مقامات الحريري منه مع أبي القاسم بسن
جمهور في جمادى الا ولى سنة خمس وخمسمائة "١".

وكذلك منهم عيسى بن ابراهيم بن عبد ربه بن جمهور القيسي من
أهل طليبره ، سكن شريش يكنى أبا القاسم ، رحل الى المشرق
بعد الخمسمائة ولقي جماعة من العلماء ، ودخل بغداد وناظر
هنالك الفقهاء ، وأخذ عن أبي بكر أحمد بن علي بن بدراق الحلواني ،
وأبي بكر بن طرخان وأبي القاسم بن علي الحريري صاحب المقامات
فأخذها عنه وجماعة غيرهم . "٢"

وبعد موت الحريري كان لمقاماته شأن عظيم على يد تلاميذه
الذين أجازهم في حياته بالرواية عنه فجلس هؤلاء العلماء وتحلقهم
الطلاب يدرسون ويشرحون ، ويعلقون على المقامات الحريريية ومن هؤلاء
بالمشرق ابنه ابي محمد الحريري والأديب ابو الطاهر الخشوعي بدمشق ،
وقد قرأ على الخشوعي هذا كثير من العلماء منهم مثلا : أحمد بن
محمد بن أحمد بن عياش الكنان من أهل مرسية ، رحل الى الشرق
سنة تسع وسبعين وخمسمائة فجع سنة ثمانين بعدها وأقام بالحجاز
والشام مدة ، ولقي أبا الطاهر الخشوعي بدمشق فسمع منه مقامات
الحريري ، وأخذها الناس عنه ، وتوفى سنة ثمان وعشرين وستمئة على
اشرف بصره . "٣"

وعبد الله بن محمد بن طاهر بن مالك الأزدى : من أهل وادي
آشي يكنى ابا محمد له رحلة الى المشرق أدى الفريضة فيها ، وسمع
بدمشق من أبي الطاهر الخشوعي مقامات الحريري "٤" .

-
- (١) التكملة : ٢٧/١ .
 - (٢) ابن بشكوال ، الصلة : ٤٤٠/٢ ، ط القاهرة .
 - (٣) التكملة : ١١٨/١ .
 - (٤) المصدر نفسه ٢٧٤/٢ .

كما كان يوجد تلاميذ للحريري بالاندلس ، أمثال ابي القاسم عيسى بن جمهور بقرطبه ، وقد قرأ عليه المقامات كثير من الأدباء والعلماء أمثال أبي بكر بن مالك الفهرى المتوفى سنة اثنتين وتسعين وخمسمائة^١ ، ومحمد بن خلود بن محمد التميمي من أهل المريه ، يكنى ابا عبد الله ، لقي ابا القاسم عيسى بن جمهور بقرطبه فسمع منه مقامات الحريري ، وسمعها معه أبي الحجاج القضاعي بالمريه وفي حانوته بباب الزياتين منها ، وحدث بها عنهما وأقرأ الأرب^٢ ، هذا عدا عما ذكره ابن خيضر في الفهرسة ، والمقرى في نفع الطيب^٣ من الاعداد الكبيرة ممن العلماء والأدباء الذين اهتموا بدراسة وسماع المقامات الحريرية . فملى يد هؤلاء وتلاميذهم عرف الاندلسيون المقامات المشرقية ودرسوها في أيام الطوائف والمرابطين والموحدين .

والذى يهمنا في هذا المقام ان معرفة الاندلسيين لمقامات الحريري لم تقف عند حد المعرفة والحفظ والرواية ، بل تعدتها الى مرحلة الشروح ، ولعل من أهم شراحها : أبو العباس أحمد بن عبد المؤمن الشريشي المتوفى سنة تسع عشرة وستمئة يقول^٤ : " كان اول من أخذت عنه روايتها وتلقيت منه درايتها ببلدى الشيخ الفقيه المقرى أبو بكر ابن أزهر الحجرى ، حدثني بها عن صهره الفقيه المحدث الراوية أبي القاسم عيسى بن عبد ربه المعروف بابن جمهور عن منشئها الحريري ، وحدثني بها أيضا ببلدى الشيخ الفقيه الراوية ابو بكر بن مالك الفهرى عن ابن جمهور المذكور ، وعن الشيخ الفقيه أبي الحجاج الأندى ، كلاهما عن ابي محمد الحريري . . . وحدثني بها أيضا الكاتب الزاهد أبو الحسن ابن جبير عن الشيخ بركات بن ابراهيم بن طاهر المعروف بالخشوعى

(١) نفس المصدر السابق : ٥٥١/٢

(٢) المصدر نفسه : ٤٩٥/٢

(٣) انظر فهرسة ابن خيضر ، ص ٣٨٢ ، ص ٤٥١ ، ط القاهرة

(٤) ١٣٨٢ هـ - ١٩٦٣ م ، والنفع تقدم ذكره .

(٤) شرح الشريشي للمقامات : ص ٥

عن الحريري ، . الخ " . ويحدثنا الشريشي عن اطلاعه على
جميع شروح المقامات من قبله حتى عثر على شرح المسعودي "١"
فأعاد النظر في كل ما كان له صنعه من قبل ، ومن هذا كله صنع شرحه
المذكور الذي يقع في ثلاث نسخ كبراهم الأدبية ووسطها اللغوية
وصفها المختصرة .

كما نجد شرحاً لأحمد بن داود بن يوسف الجذامي ؛ من أهل
بغداد يكنى أبا جعفر وكان كاتباً أدبياً نحوياً ، له نحوياً مشاركاً في علم
الطب وله شرح آداب الكتاب لابن قتيبة تأليف مفيد ، وأخذ في شرح
المقامات للحريري ، وقد أخذ عنه وتوفي سنة ثمان وتسعين وخمسمائة
أو نحوها "٢" .

ومرحلة الشروح هذه قادت بالضرورة إلى المحاكاة والتقليد
لهذا الجنس الأدبي المسمى بالمقامة . فوجد كتاب الخمسين مقامة
اللزومية التي تسمى بالمقامات السرقسطية نسبة إلى مؤلفها "٣" الذي
التم جانب الحريري تماماً في الموضوع والشكل والعدد .

-
- (١) هو أبو سعيد أو أبو عبد الله ، محمد بن أبي السعادات بسن
مسعود المسعودي الخراساني المروزي البغدادي الفقيه الشافعي
الصوفي ، شرح المقامات وأطال في شرحها واستوعب فيه ما لم
يستوعبه غيره ، وهو في خمسة مجلدات كبار لم يبلغ أحد من شراح
هذا الكتاب إلى هذا القدر ولا إلى نصفه ، توفي سنة ٥٨٤ هـ .
انظر : وفيات الأعيان : ٣٩٠/٤ ، الوافي بالوفيات : ٢٣٣/٣ ،
شذرات الذهب : ٢٨٠/٤ .
 - (٢) التكملة : ٩٢/١
 - (٣) محمد بن يوسف التميمي المازني من أهل سرقسطه ت ٥٣٨ هـ .
وستأتي ترجمته بالتفصيل فيما بعد .

الفصل الثاني

المقامات الاندلسية التقليدية :

وقد اطلقت عليها هذا الاسم لانها تسير على نهج مقامات الشرق التي تعتبرها نموذجا للفن المقامي الأصيل الذي يحتوى على خصائص ومزايا ثابتة هي قوام هذا اللون في الادب العربي ، وأريد هنا أن أفصل القول في هذه المقامات عن طريق دراسة الاغراض التي تناولتها واشتملت عليها وهي كما يأتي :

الأغراض السياسية :

لعل خير ما يمثل لنا الوضع السياسي في عصر الطوائف والمرابطين من المقامات التي نحن بصددها المقامات اللزومية للسرقسطي^١ ، ولحسن الحظ وصلتنا هذه المقامات كاملة ، بل هي النص المقامي الاندلسي الوحيد الذي وصلنا تاما ، لذلك سوف نعول عليها كثيرا في دراستنا .

قد منا في التمهيد أن الفترة التي نتناولها (الطوائف والمرابطين) فترة اضطراب سياسي عنيف وحروب داخلية دافعها المطامع الدنيوية ، تمزق في المعقائد والقيم حتى يصل الامر الى الاستعانة بالمشركين النصارى على المسلمين و دفع الجزية لهم من أقوات الشعب المستضعف ، وكان حال الحاكمين : " نهابا في الكبر وتهاونا بالأمر ، وعودا عن النصر ، واستظهارا بأحزاب الكفر . . . " ^٢ حتى بلغ الهوان بالحكام

(١) السرقسطي : محمد بن يوسف بن عبد الله التميمي المازني ، من أهل سرقسطة ، يعرف بابن الاشركوني . ويكنى أبا الطاهر ، سكن قرطبه ، سمع من أبي علي الصدي في كثيرا وأبي حمد بن السيد وابن مضاء وغيرهم كثير ، وكان مقدا في اللغة والعربية شاعرا محسنا ، وله مقامات من تأليفه أخذت منه واستحسننت ومن آثاره أيضا كتاب المسلسل في غريب اللغة ، وقد كان رحالة في طلب العلم ، وتوفي رحمه الله في جمادى الأولى سنة ٥٣٨ هـ . انظر ترجمته في : الصلة : ٥٨٨/٢ وذكر أن وفاته كانت سنة ٦٣٨ هـ وهو خطأ ، ابن الابرار ، معجم أصحاب الصدي في ص ١٤٠ - ١٤١ ، السيوطي ، بغية الوعاة : ٢٧٩/١ ، لسان الدين ابن الخطيب ، الاحاطة : ٥٢١/٢ ، بروكلمان ، تاريخ الادب العربي : ٣٥٤/٥ .
(٢) الذخيرة : ق ٢ ، ص ١١٢ . ت عباس .

أن يدخل رسل ابن عباد على الأذفونش ليسلموه الجزية ، فاذا به
” يصفق بيديه ويتهافت برجلية ويقول : أين رسل ابن عباد ؟ فجيء بهم
يرفلون في ثياب الخناعه وينيسون بألسنة السمع والطاعة ، فقال لهم : مذ
كم تحومون عليّ ، وترومون الوصول اليّ ؟ ومتى عهدكم بفلان ؟ واين
ماجئتم به لا كنتم ولا كان ، فجاءوا بجملة ميره ، واحضروا بين يديه كل
نخيرة وخطيرة ، ثم مازا على أن ركل كل ذلك برجليه وأمر بانتهابه كله ،
ولم يبق ملك من ملوك الطوائف الا أحضر يومئذ رسله ”^١

ثم يأتي المرابطون بعد الطوائف فيشلون عروش المشركين النصارى
ثم يكون أمرهم الى التحلل والتفكك وسيطرة النساء واهمال أمر الرعية ثم
الضعف والزوال .

هذا العصف السياسي ترك في نفوس الناس جرحا عميقا ، وقد كانت
المقامات احدى المنافذ التي تطلعنا على ذلك فنسمع البطل المقامي
يقول في حشد من الناس ”^٢ : (ان تروني وقد نفذ زادى وصفـر
مزادى وطفى شهابي ، وأخلق اهابي ، وخشن أديمي ، ونفر عني صاحبي
ونديمي ، فلقد فتنت الكواعب وذلت المصاعب وأرضيت الآمال ، وتسوغت
للآمال ، وبذلت الخطير ووصلت الشطير ، وأكرمت النزيل ، ووهبت
الجزيل ، وسحيت فضل الذيل . . . ” هذه الحالة الماضية التي يعبر
عنها بطل المقامة هي تصوير لما كان من أمر في عهود الاطمئنان والدعة
والاستقرار ، ثم تتبدل هذه الحالة فتقلب حال البطل شقاء وجحيما
فيقول في ألم وحسرة : ” ثم لم يكن الا أن تغلبت أحوال وتعاقت سنون
وأهوال ذهب بالحديث القديم ، وأثرت في الصميم والأديم ، فبدلت
من النعيم البؤس ومن البشر القطوب والعبوس ، وغوضت عن العذب
المجاج بالملح الأجاج ، ومن الاعزاز بالانلال ومن الاكثار بالاقلال ”^٣

(١) المصدر السابق : ص ١٦٦ .

(٢) مقامات السرقسطي : (مخطوط بمعهد المخطوطات) رقم (٧٩٤)

أدب ص ٢

(٣) نفس المصدر والورقة ،

هذه المقابلة بين الحالين المتضادين تظهر حدة المفارقة المراد تصويرها ، كما تبين أثر التقلب السياسي الذي جعل سراة الناس عالات يتكفون الناس لكثرة ضرائب الحكام التي تدفع جزية للكفارة ورواتب لمرتزقة الجند لحماية النظام القائم على غير أصل وأساس وربما تدفع لكثير من الفقهاء لا كساب النظام الصبغة الشرعية ، أما بقية الناس فتضي مشردة هائمة في طلب العيش والأمان ويصور البطل هذه الحال بقوله : " لقد جاكم أخوضرار ، وتاداكم نوجد وخرار ، فل الزوان من غرويه وقضى بطلوعه وغرويه ، فتمزق أديمه ، وضاع حديثه وقديمه ، وتكدرت مشاربه ، وتعذرت مساريه " (١) ونشعر بحدة المفارقة التي ترسمها المقامة عند عرض حال الأمن والاستقرار في حال الخوف والقلق والتشرد عندما يبكي يطل المقامة وطنه الذي أجلته عنه الفتن والكوارث ودفعته بعيدا باحثا عن الأمان : " ٢ "

هيهات منك ديار حلت بها الأعداء
وما لمثلي دار ولا عليك عدا

ومن هنا - ونتيجة للقهر السياسي - ظهرت ظاهرة في تاريخ الأدب الاندلسي يمكن أن نسميها الجلاء القسري أو الاجباري ، وعن هذا يعبر البطل بقوله " ٣ " : " وهجرت داري وجعلت الغربة مداري ، وصرت أطوف في البلدان وأجرى بكل ميدان . "

وحتى يقيم التأثير الدرامي المطلوب ، ويحدث أثره في نفوس السامعين يمهّد لتطوفه هذا بخلفية تاريخية حين يقول : " كنت أهبنا لبعض الأقيال ، وأسحب فضل الأذيال ، وأهيم بذات الخال . . . " ثم يتبدل حاله ليس للوئم فيه أو خسة بل هي صروف الدهر التي ترفع

(١) المصدر السابق : ورقة (١٣)

(٢) نفس المصدر : ورقة " ٤٣ "

(٣) المصدر السابق : ورقة " ٨ "

فقد" قام بالأمر قائم على حين نام مني نائم ، أخل بالعهود والذم ، وغار من ذوى الرتب والنهم ، فأصارني طريدا ، وغادرني شريدا ، أعتام الكرام ، وأتسوغ الخلال والحرام " ١ " . وهو في هجرته يبحث عن ملتجأ مخلص يهدده آلامه ويسكن أشجانه يقول " ٢ " : " وما أطوف الآفاق ، وأسواق الانفاق ، وأتجشم التكاليف ، واقتم المتالف ، واتجرع العلاقم ، وأتدرع الأراقم ، الا رجاء أن تعلق يدي بخل صاف مصاف وآخي حنان وانصاف " . هذه الوقفة النفسية ذات دلالة عظيمة على البؤس والشقاء والجذب الروحي السائدين الناس في ظل تلك الأوضاع السياسية ثم تقف المقامات مرات ومرات مفصلة لاسباب الضيق المادي النازل بالناس فيأتي على لسان البطل :

" . . . ولكن تعاقبت ايام وعقب ، وتتاوبت أعوام وحقب ، ومعممت للفتن نارا ، ورفعتم للحنن منارا ، وأهبت سموم النوايب ، وأشبت عقيم العجايب ، وأدرت أخلاق المحن ، وأطرت اسياف الاحن ، فما آبقت من تاليد ولا طريف " ٣ " لهذا كله يطالعنا في المقامات هجاء سياسي صريح ينمي فيه البطل المقامي ضيعة العرب بين أصناف المعجم سواء عنده كفار النصارى أو المجوس أو البربر المسلمين فيكون مندهشا - مخاطبا العرب - : " . . . تعاملوا الكفار وتلكوهم الرقاب ، وتخلعوا دونهم النقاب فيجروا عليها الاحكام ويفنموا العياب والاحكام ، ثم تعايينوا عبادة النيران ، ومراقبة القران والتقرب بالابدان والتزلف بالمدان ، من أمة تستترعنكم بالرطانة ، وتدعي دونكم في اللبانة والفظانة ويزدرونكم ازراء الفال ، ويسمونكم سمة الاغفال والاهمال .

ياما أذل العرب بين المعجم

وقد زموهم بالاندى والرجم " ٤ "

-
- (١) مقامات السرقسطي : ورقة ٨٠ .
 - (٢) المصدر نفسه ورقة ٤٢ .
 - (٣) المصدر السابق : ٤٦ .
 - (٤) المصدر السابق : ورقة ١٥ .

ونجد للسرقسطي مقامة بأكملها تقوم على الهجاء المقذع للبربر ، وهو يقصد بالطبع حكام المرابطين ، ومنها يقول " ١ " : " . . . حتى قذفتني الايام الى بلاط طنجه ، وأشرفت منها على ابواب فرنجة ، فأقت بين أقوام كالانعام أو النعام ، واناس كالسباع ، أو الضباع ، لا أفقه مقولهم ، ولا يوافق معقولي معقولهم ، قد فارقت القوم زيا ولفظا ، ولم أعدم منهم طردا ولا لفظا . . . كآني أصلح البهائم ، أو أسيم التوايم ، غير انها لا تنقاد ولا تسالم ، ولا تعاقد ولا تحالم . . "

وقد نستغرب جراءة السرقسطي هذه في هجاء القوم مع أنه يعيش في عصرهم وتحت حكمهم ، ولكن هذا الاستغراب يزول عندما نرى ابن ابي الخصال يكتب خطابا رسميا على لسان أمير المسلمين علي بن يوسف بن تاشفين الى الجند المرابطين الذي انهزم أمام النصاري في احدى الوقائع عند مدينة بلنسية فيفحش فيها أشد الافحاش ، ويغلف لهم القول أكثر مما يجب ، وكأنه بذلك يعبر عما في نفسه من الحقد الدفين والكرهية الشديدة لهم ، وكانت هذه الرسالة سببا في حنق أمير المسلمين عليه وعزله عن الكتابة ، وقد قال في رسالته تلك : " يا فرقة خيبت سرايرها ، وانتكثت مرايرها ، وطايفه انتفخ سحرها ، وغاص على حين غرة بحرها ، فقد آن للنعم أن تفارقكم ، وللاقدام أن تطأ مفارقكم ، حين ركبتموها جلواء عارية ، وأصبحتم في ادراع عارها امثالا سواسية . . . و حاربوك عاما على اثر عام حتى الزموكم ، وتركوكم أسلح من حباري ، وأشرد من نعام . . . يابغايا بني الأصفر وسجايا ذوات الدل والخفر اكرهتم زحافهم ، وكنتم - علم الله - أضعافهم ؟ ، لا بالحنييفة تحرزتم ولا الى الحفيظة والاناة تحيزتم . . . أي بني اللثيمة وأعياء الهزيمة الام يزيّفكم الناقد ، ويردكم الفارس الواحد ؟ فليت لكم بارتباط الخيول ضأنالها حالب قاعد ، لقد آن نوسعكم عقابا ، وألا تلوثوا على وجه نقابا ، وان نعيدكم الى صحرائكم ، ونطهر الجزيرة من رحضائكم . . . " ٢ " . وهذه الرسالة تكشف لنا عن مشاعره ولاء

(١) المقامة السادسة والاربعون : ورقة ١٠٨ .

(٢) حسين مؤنس ، نصوص سياسية عن فترة الانتقال من المرابطين الى الموحدين ، مجلة المعهد المصري للدراسات الاسلامية في مدريد

الخانقين من الاندلسيين بصورة لا تحتاج الى بيان ، وتبين لنا كذلك الحجج التي كانوا يتذرعون بها في الحملة على المرابطين ، وقد كان السرقسطي من جملة هؤلاء ، حيث نجده يرى فيهم " سفك الدعاء وهتك الذماء " ١ .

وبجانب النقد السياسي الصريح نجد نقدا آخرًا ساخرًا يغلفه الرمز ، فأحدى المقامات يشبه المؤلف بها الحاكم بالأسد في القسوة والبطش والقهر فيروى لنا قصة لقائه مع أسد قطع الطريق على الناس ، فيخاطبه البطل المقامي راجيًا أن يفسح الطريق للعابرين : " يا أبنا الحرث يا أسامه ، لك الحسن والوسامة ، لك الامارة أو الرياسة ، فأين منك الاناه والسياسة ، ورفقا على عميدك ، وصولا على قفرك وسيدك ، قد روعت القلوب ، وطردت القلوب ، وطردت الجدود والحلوب ، نحن من جنابك في حرم ومن سطوك في برم ، مثلك يملك فلا يهلك ، ويقدر فلا يفدر ، نحن قوم ضعاف أكلتنا السهوب والشعاف ، وأبقت منا كل معي طليح ، ومشفق من المنية مليح حتى اذا أنسنا بالنعم ، وسمعنا أصوات النعم ، قطعت بيننا وبينها السبيل . . اذهب بفريستك النسي عريستك ، وانهض بنبالك الى عيالك . خل المال لملاكه ، وتنج عن الطريق لسلاكه " ٢ .

وعنا ما كان من الأسد الى ان زوى وجهه وطوى كشره ونجهه وولى والخجل يرف على أعطافه . . هذا ما كان من أمر الحيوان الاعجمي ، حالة تسلطه وقهره ، أما حكام الاندلس : فان تدبيرهم أقل من تدبير الحيوان الضارى ، لا عقل ولا عاطفة ، همهم شهواتهم وجوارحهم ، لذلك يتمجب منهم البطل المقامي ساخرًا " . . . اليس من الغريب والعجب المريب أن ينثني الغضنفر الهصور ، وينقاد الالف المنصور ، وانتم في صورة الانسان وما بكم فضل ولا احسان " . والرمز هنا واضح لا يحتاج الى تعليق .

(١) المقامات اللزومية : ١١٠ .
(٢) المصدر نفسه : المقامة الخامسة والاربعون : ورقة ١٠٦ ، ١٠٧ .

وهكذا نرى أن المقامة الاندلسية التقليدية تعني في اغراضها السياسية باستعراض أحوال البلاد السياسية المتقلبة . ومنتج عن ذلك من آثار ومآسي ذاقها الناس فأوجدت عندهم حب النزوح ، والهجرة طلبا للأمن ، والمقامة أخيرا ترمي الى هجاء واقع الحكام هجاء صريحا تنارة وضمنا في اطار من الرمز .

الأغراض الاجتماعية والخلقية للمقامة الاندلسية التقليدية :

لما كانت الحالة السياسية - دائما - هي التي تسيطر على النواحي الاجتماعية والاقتصادية في البلاد ، كان من الطبيعي أن تتناولها المقامات بحكم كونها تناولت الحالة السياسية من قبل . ليتنقل البطل المقامسي ماشاء له أن يتنقل في ربوع العالم الاسلامي شرقا ومغربا ليحل في الجزيرة العربية ومناطقها المتعددة كاليمن وعدن وعسفان والبصرين وغيرها وفي العراق مارا بمدينة السلام وسنجار وحران وأصبهان والري . ثم في الاسكندرية ودمياط وحلب وفلسطين وفي المغرب القيروان وطنجة أو ليصل الى أبعد من ذلك الى الهند والصين ليطوف في كل هذه البلاد ويعمل ماشاء من المغامرات والحوادث ولكن المجتمع الذي يتحدث عنه وما هو مجتمع قرطبة والزهراء وأضرابها من المدن الاندلسية فان حبه لبلاده لا يكاد يختفي ، فهي دائما موضع فخره وتعظيمه يضيف عليها من القدسية الدينية والعظمة الأدبية الشيء الكثير ، فنسمع صوته يقول : " . . . وكنت أسمع بارض الاندلس ، وحضارتها واحتفالها ونضارتها ، فأتمناها تني المشتاق وأفديها بالكرائم العتاق " ا . ولما آل المجتمع الاندلسي الى ما آل اليه بسبب أوضاعه السياسية - عليا - متقدم - أمكن لنا أن نفهم ونبرر رنة الحزن والألم التي يبذل البطل المقامي جهد العناجز في اخفائها ، حتى ان البطل المقامي عندما يقف ليعظ الناس فانه في حقيقة الأمر يعبر عن مجتمع قرطبة الذي اتجه

الى الزهد واعتكف على العلوم الدينية حين فسدت أخلاق الناس وتبدلوا واستهانوا بأمر الدين وحدوده .

فالسرقسطي في كل مقاماته - تقريبا - يتخذ من بطله ستارا لاغراضه المختلفة ، فنحس بالماطفة العميقة كلما ذكر بلده وحن الى موطنه ، عاطفة صادقة ، ووجدان عميق ، فالبطل حين يبكي بلده يبكي السرقسطي وطنه الكبير الاندلس ويلقي عليه نظرة شاملة ليصور ما وصل اليه من السوء المفاسد ، ساخرا حيننا وآسيا أحيانا فيعرض علينا ضروبا مختلفة من الناس ، تعبر عن واقع اجتماعي آل اليه المجتمع الاندلسي وهو ظهور انفروق الطبقة الواسعة التي دفعت المترفين الى الفساد والطفيان والمعدمين الى التحلل الخلقي والسرقة والاحتيال .

ولقد كان من ابرز الاغراض الاجتماعية للمقامات العناية برسم صورة ساخرة للفقهاء المتسلطين وهم يلبسون قناع الصلاح والتقوى ، ويلتحفون برداء التنسك والزهد ، لتحقيق مأرب شخصية . يقول السرقسطي في وصف أحدهم وما يتبعه من الطرق الملتوية على لسان البطول :
(" انه صلى معنا العشاء وأتى من حسن القول ما شاء ، فمطف منا معاطف وجوانب ، وأسأل منا متالع ومدانب ، وزعم أنه في غد راحل ، وان سوف تطويه المراحل . وسأل المبيت في أحد المساجد فلما أصبحنا لصلاة الصبح عثرنا من أمره على قبح ، ووجدنا من كان معه قد سلبه ريشه وثلث عريشه ، واوقع بينهم الظنون وألبس عليهم أمرهم وأبهم ، وقد انسرب في بعض الحانات وأودعهم تلك الخيانات . . . وبقينا نتقلب في حبال اشراكه الى أن قام في هذه الجماعة فتلثم وتلفح ، وتوسل بالكتاب وتشفع وأخذ في وعظ وحدث " ١ " فلععل صاحب هذا الفعل أحد اولئك الفقهاء الذين زينوا الباطل للحكام وألبسوه ثوب الشرع ، وهم في حقيقتهم منافقون يتزيون بسمت الزهاد والوعاظ ويقولون مالا يفعلون ، فأثروا على حساب الناس في ظل ذلك الوضع السائد ، ووجدوا الفرصة سانحة

لمد التفوذ والأطماع . فينعى عليهم البطل المقامي ذلك الخسران
ساخرا " تلبسون الثياب ، وتشدون العياب ، وتدخرون فضول
الأقوات ، وتمتعون بنعم اللحون والأصوات ، ولا تدرون بغريب يقاسي
نغمة القرقرن والذباب . . " ثم يعود فيستغفر الله لهم عن كل ما ارتكبه
في حق الاسلام والمسلمين ويدعولهم بالصلاح والاستقامة : " اللهم اسلبهم
ثوب الرياء وألبسهم ثوب الحيوة والحياء ، وألن قلوبهم القاسية ،
واعطف نفوسهم العاسية " (١) ونجد أبلغ نقد لطبقة الفقهاء في المقامة
السابعة والعشرين ، حيث نرى شيئا يتسم ذرى الزهد والورع ، والناس من
حوله في المسجد وهو يعظ الجمع ويذكرهم حتى اذا أنقض القوم من حوله
نجد ه ينفرد لمحاسبة كاتبها كان معه على خراج يومه وما جمعه غشا وخذاعا
باسم الوعظ والارشاد والافتاء .

ويثور الشيخ متهما كاتبه " بالتلاعب والتزوير " قائلا : " السى
كم الاعتداء والافتراء ، تواطأتم عليّ في التدليس ومن لي بهامان
وابليس ، أعلّيّ يفتات وبمالي يفتات . . . " ثم يتدخل الراوى ليكشف
لنا أي نوع من الوعظ والزهاد شيخنا هذا فيقول : " لا يكفيه قليل ولا كثير ،
ولا يسلم من ظلمه خسيس ولا أثير " بل انه قد " تساهم في التراث
وتزاحم في الاحتداث . . . يلح الدرهم فيركب الابهم ، ويرى الدينار
فيقتحم النار لا يبالي النار ولا يربد المعار . . . " (٢) ورغم هذا التدليس
فان هذا الشيخ يزعم العلم ويدعيه وهو لا يفهمه ولا يعيه في الحقيقة ، ولكن
البطل لا يلومه في ذلك بل يرش لحاله لان الوضع السياسي القائم وما صاحبه
من ردود فعل نفسيه ، أحدث انقلابا في القيم يعبر عنه ذلك الشيخ - مبررا
به أفعاله - فهو قد نزل (هذا القطر غريبا ، فمادعوني لبيا ،
ولا أدبيا حتى لذت بالدعاوى دعوى مني بالباطل عاوى . . . ولمبا
رأيت الأمر كذلك تحليت في هذه الخطة الذميمة . . فلو أني وصلت

(١) نفس المصدر : ٧٥ .

(٢) المقامات : ورقة ٦٧ .

عراها وأجريت الأمور مجراها ، وتحففت وتورعت وتسربت بالقناة وتذرعت
لصنت ضياعي ولم انتجع ضياعي ، وعدت الى هزالي ولم يفد اعتزالي . .
وقديما تحريت فتصريت ، وثورعت فتجرعت ، وانزويت فانطويت ، وانقبضت
فانتقضت وللأمور ظاهر وباطن . . " ١ " .

فهذه الوقفة المقارنة بين حالين هي المحتوى السياسي مفرغا فسي
اطار التحول الاجتواحي النازل بالمجتمع لمسببات اقتصادية ، لذلك لم
يكن بدعا أن يرينا الفقيه توزيع غمته على ايام الاسبوع يقول : (. ويوم
الاربعاء فقد أخلصته للدعاء ، وربما ختمت آخره بالسمع والباشرة
والجماع ، وحننت الى اليم والوزير ، وتقت الى حلم وزير أصفى الى
خيرير الماء ، وأرفع طرفا الى السماء ، أستغفر الله عما أبحت من
الفروج والدماء . .) " ٢ " وعلى هذا فلايستبد بنا العجب والاندهاش
أن رأينا فقهاء ووعاظا وشيوخا يسلكون مسالك اللصوص وقطاع الطرق ،
يحتالون باسم الدين والصالح للسلب والنهب وتصور لنا المقامات اما في
أحد مساجد الأندلس قد " أخذ في ابتهاج وانتحاب واعتراف واصحاب ،
ثم عطف على صلاته وجهر بأمر الكتاب ، وأتى بما شاء من خشوع واستعتاب ،
فكل مال بصغوه اليه وانجذب ، واستحلى تلاوته واستعذب ، فما زال
كذلك يطبل السجود والاكباب ويشغل الخواطر والالياب الى أن انفصل
من سجوده وهرب ، وسرى " ما علقته يده وغرب " " ٣ "

والمقامات تستعين بالوازع الديني عند الناس في زهر المجتمع عن
غيه وتحاول ان تنحون نحو اصلاحيا فنرى البطل وقد لبس رداء اسلاميا
يعينه على التعرض لفساد الحكام والولاة والفقهاء ، وهذا النموذج
ضرورة - ليمثل روح العصر - ان بدا الوعاظ يطمحون الى أعلى مراتب

-
- (١) المصدر نفسه : ورقة " ٦٤ " .
 - (٢) نفس المصدر والورقة .
 - (٣) المصدر السابق : ورقة " ٣ " .

الدولة ، وبخاصة ان دولة الادباء قد أقل نجمها ، ولم تعد بلاطات
الاندلس تعج بهم بالشكل الذي كان أيام الطوائف .

وبجانب طبقة هؤلاء المتكسبين باسم الدين نجد أن هناك طبقة
أخرى من الفقهاء الصالحين الذين أخلصوا نياتهم لله ودعوا الى الاسلام
بصدق ، وقد حفلت المقامات باظهارهم أيضا لكي يتم التعارض والمفارقة
بين الصالح والطالح ، فهو هؤلاء حملوا مشاعل الهداية والصالح ومضوا
يتلمسون طريقهم وسط ذلك الظلام الضارب بجرانه على قلوب الناس ،
ويمثلهم البطل بقوله : " أيها الناس أضرب لكم الامثال ولا أخطب منكم
الغثاء ولا الحثال ، الحكمة للمؤمن ضاله ، والموعظة على الهدى داله ،
الموت لا بد نازل ، والاجل مقارب ومنازل . . . " (١) هذا الوعظ الصادق
كان دائما يضرب على وتر الاضطراب السياسي وتشنت الأهواء وماحل
بالناس من فرق وانقسام ففسدت الضمائر ، وعميت القلوب : " واعلمسوا
ان تشتب الالهواء يرفع عنكم بركة الانواء ، وفيم التدابير والبغضاء ، وهلا
الصفح والاعضاء تأموا الأمم السوالف ، وتوقعوا المهالك والمتالف ،
وانا استولى الشقاق والخلف فسيان الواحد والآلف ، وقد يما ظهبرت
الاخلاف على مساويها ، ومهتت الآلاف عزة مناويها ، فصلوا أسبابكم
وعظموأربابكم . . . " (٢) هذه المواعظ كانت ترمي الى شد أزر الناس
وتقوية عزائمهم المزعزعة واتخذت لذلك سبيل الرجوع الى الماضي بكل ما فيه
من جلاله وعظمة ، والمستقبل بكل مبشرات وآماله وما بينهما شدة تزول
ياذن الله اذا تم الاتحاد والقوة والتآلف على الصبر (أيها الناس
انما هوريت ، ومهل ، وعل ، ونهل . . . الا ان بعد الشدة رخاء وعقب
العاطف رجاء ، وعند الشدائد يمين الرب بالعوائد فاستشعروا الفرح
واياكم واليأس والقنوط ، وفضل الله بعباده منطوط ، وان السعة
لتداول الضيق وتعاقبه . . . " (٣) ومقامات السرقسطي تعني بالوعظ

(١) المقامات : " ٧ "

(٢) المصدر السابق : ورقة " ٩ "

(٣) نفس المصدر : " ١١ "

سواء الصادق أو غير الصادق عناية شديدة بحيث لا تكاد تخلو منـه
مقامه وهذا ولاشك أتباع لسنن المقامات الشرقية وخاصة مقامات الحريري
التي نسج على منوالها السرقسطي واحتذاها في كل شيء ، بالإضافة
الى سيادة علوم الشريعة وانتشار الفقه والوعظ والارشاد في عهد الدولة
المرابطية والتي ألفت السرقسطي مقاماته في فترتها ، كما ان انتشار
الفساد جعل التذكير بالجنة والنار هو سبيل الوعاظ كقول يطل المقامة :
" الى كم يسوقك الامل والرجاء ، ولا يشوقك المهمل والارجاء ، والعمر قد
انصلت انصلات السابق والشباب قد انفلت انفلت الآبق . . . في كل يوم
من أهلك حبيب تودعه ، وقريب من الله في اللحد تودعه ، تهيل عليه
التراب وتحثيه ، وتطيل الانتحاب وترثيه ، ثم تقبل على نعيمك ودنياك . .
لا تفكر فيمن توءد التراب والصفيح ، تمهد اللياب والصفيح . . . " (١)

ونلاحظ أن اسلوب الوعظ في المقامات سلس عذب ، يتجنب حوشى
الكلام الذى يلائم الحالة التي عليها الناس ويكثر فيه من حديث الرسول
صلى الله عليه وسلم ويفتح دائما بـ " يا أيها الناس " على طريقة
القرآن الكريم في الخطاب كما ان يجعل المقتبس من القرآن الكريم في موضعه
بحيث تحسن بأنه جزء من حديث المقامة كما يلتزم السجع الكامل بالإضافة
الى التزامه مالا يلزم اتباعا لطريقة ابي العلاء المعرى في لزوماته وتبين لنا
المقامات أيضا حالة المجتمع الاقتصادية ، فهو قد انقسم الى طبقتين :
طبقة ذوى السلطان واشياعهم الذين أرهقوا العامة بالجبايات والضرائب
وطبقة العامة التي ساء حالها من فعل هؤلاء فتفشى بينها السرقة
والنهب والكذبة ، مع عدم القدرة على رفع الشكاوى لأن القاضي والحاكم
هو الخصم كالذى لا يجد حرجا في المجاهرة بالمعاصي عن شرب وطرب ،
ولذلك فهو يوزع أموال الدولة التي تجبى من كد الناس وعرقهم على النحو
الآتى : " فأما بسملة الخراج فللشمع والسراج ، وأما ثمرة الجنان
فلثمرة الدنان ، وأما أتاوة الخصوم والاعوان ، فلاخصاب المجلس والخوان ،

وما كان من نشوة فلراحة ونشوة ، وأما اللهو والمجون فحد بثهما شجون ،
وأما مثل الأحياس ، . وأما فدية الحدود فميراث الأبناء عن الجدود . " ١ " ^١
ورغم هذا النظام الغارق في الظلم والجهالة ، قد يرتفع صوت واحد يدعو
الى الحق ، ونجد هنا أو هناك صاحب خير وفضيلة يسعى لصالح الدولة
وخير الناس ، فتقف عنده المقامة ، وتظهر لنا من خلال التعارض المصوّر
أن الله تعالى أرجأ العذاب عن هذه الأمة لوجود هذا الولي صالح
فيها ، " ٢ " ^٢

ثم ترى في مقامات السرقسطي تصويرا لأولئك الذين تشردوا من
المجتمع الذي نزعته منه الرحمة وفقد فيه العدل واضطروا الى الكديسه
فترى البطل يستكد ويدعو . غيره الى سلوك سبيله للحصول على العيش
فيقول :

فاحتل لعيشك واجهد فما لعيش شين
فالعاجز النكس يوما بكل نال قمن " ٣ " ^٣

كما أن المقامات تجد لهم العذر في اكدائهم وحييلهم لأنهم ضحايا
واقع سيء مسف لاسبيل الى مجافاته " وانها للفرية والنوى ، وان
الارتياح والانتجاع ليثير الألام والواجع " .

وهم بالتالي لم يفعلوا هذا للوئم فيهم أو خسة طباع وانما هو البؤس
المصيري الذي يفرض ذلك والا فحالهم كما يشير بطل المقامة :

عندى الوفاء وعندى البر واللطف
لو أن أبناء هذا الدهر قد عطفوا

-
- (١) المصدر السابق : ورقة " ٦٤ " .
 - (٢) نفس المصدر : المقامة رقم " ١٣ " ورقة " ٣٤ " وما بعدها .
 - (٣) نفس المصدر : ورقة " ١٧ " .

وما جيلت على غندر ولا ملل
فحسبنا خلس في الدهر تختطف
عندى لشكر الأيادي روضة أنف
يجني الثناء بها غضا ويقتطف "١"

ولعل ندم البطل المقامي للدنيا ، وهو أكثر ما يكون تعلقا
بشهواتها يدل على ماتعانيه نفسه الآسية من صراع نفسي عميق ، ولكي يبرر
هذا التناقض في نفسه يعزوه لظلم الدهر وتغير الأيام ، ولذلك هو
لا يأمن صروف الدهر بل هو ناغم عليه لشعوره بأنه قد خص دون الانعام
جميعا بعداء الأيام وظلمها له فيقول : "٢"

لا يخذ عنك الزمان الخادع
فانه الشاحب والصادح
يارب سامي العز عالي الذرى
قد جدع الأنف له جادع

نبدلك يتخذ موضوع الزمان في المقامات بعدا فلسفيا اجتماعيا ،
فتقلب الزمان هذا هو الذي أدى الى التقلب السياسي ففسدت
الأهواء وضاعت القيم وعمت الحسرة في النفوس . هذا الزمان دائما
" كاشر الناب ، زمر الذناب مقلص الظلال ، مذم الخلال ، خدوع
الاقبال .. لا يرق منه جنان ولا يرجى له حنان .. " "٣" فمفهوم
الزمان في المقامة قسوة لا ترحم ينسحق تحت كللته الناس ويصطلون
حمما باضطرابات سياسية وحكام ظلمه وقضاة مرتشين .. فالبطل يقول
عن خبرة :

أنا العليم بدهرى
مغامر وخراب
وخلسة واغتيال
وطعنة وضراب

-
- (١) المقامات اللزومية : " ٢٨ "
 - (٢) المصدر السابق : ورقة " ٧ "
 - (٣) المقامات : ورقة " ٣٨ "

فالبطل يشعر أنه مظلوم مستلب الشخصية ، لذلك نجده يتشفى بالآخرين بغير رحمة ، فيجرب حيله وشروبه حتى على أخفى خلائه ومنهم راويته المسمى بالسائب بن تمام حيث يلتقي البطل . أبو حبيب براويته هذا ويطلب منه أن يظهر لوثة من الجنون ، ثم يكسوه خلق الثياب ويأخذه الى حلقه القوم ويشرح لهم حاله وانه جن من جراء حبه الشديد لابنة عمه ، فيستدر عطف القوم عليه فيمطروه بالمال فيأخذه ويترك العاشق هذا في حالة اغماء عند القوم ويمضي الى البيت بسنجار ليجمع ما فيه من متاع ويهرب وقد جازت حيلته على القوم وعلو صاحبه المجنون السائب نفسه . "١"

داخل هذا الاطار حفلت المقامات بتصوير نفسيات الناس واخلاقهم تحت وقع التغيير الاجتماعي النازل بهم والذي يدل أمنهم خوفا ، واستقرارهم ريبا وأمانهم تشككا .

ومن الأغراض الاجتماعية التي أبرزتها المقامات الأندلسية أيضا الفساد والتحلل الخلقي من دعارة وافراط في الشهوات على اختلافها وبرز مثال على ذلك مقامة لابن شرف القيرواني "٢" يحدثنا فيها عن

- (١) نفس المصدر : المقامة الحادية عشرة .
- (٢) ابن شرف : هو ابو عيد الله محمد بن أبي سعيد بن شرف الجذامي القيرواني ، كاتب مترسل وشاعر رفيع ، وناقد بارع ولد بالقيروان ونبغ فيها نحو سنة ٣٩٠ عندما كانت زاهرة بالعلوم فروى المعقول والمنقول وأخذ عن مشايخها كأبي الحسن القابس ، وأبي اسحاق الحصري القيرواني ، ألحقه المعز بن باديس الصنهاجي أمير افريقية بدوانه وخاصته ثم رحل الى صقلية ومنها الى الاندلس ، وكان بينه وبين أبي علي الحسن بن رشيد (صاحب العمدة) مهاجاة ومنقضات بسبب المنافسة في خدمة ابن باديس ، وتوفي ابن شرف سنة (٤٦١ هـ ، بإشبيلية ، وله من الآثار كتاب أبقار الافكار وله مقامات نثرية نشرت باسم أعلام الكلام ، وسيأتي الحديث عنها . ويذكر الدكتور الطاهر احمد مكي في كتابه دراسات اندلسية ص ٢٤٨ أن ابن شرف كتب عشرين مقامة يعارض بها الحريري ولم يبلغنا منها غير ثلاث ، اثنتين في النقد الأدبي والثالثة في التهليل والمجون .

شيخ ضرير " وافر السبال ، قد عمه البياض بالكمال ، مطموس العينين ، مسترخي الحاجبين ، قد صلعت هامته وركعت قامته ، وقصرت مسافة خطاه ، وثقل جسمه على عصاه . . . " ورغم هذا كله فان نفس هذا الشيخ النمروديه تدعوه لعمل الفاحشة فيذهب يراود الفتى الذى استضافه واشفق عليه ويشرح له حاله وان عذره في ذلك أنه رجل " ضرورة ، وشم ضرورة ، وقد طالت الغربة واضطرتني العزبة . . . " (١)

ويكفي وجود مثل هذه المقامة في الادب الاندلسي تدليلا على ماوصلت اليه الحال من انهيار المثل والقيم الاخلاقية فلقد كان الغزل بالمذكر عرضا شعريا هاما وقد صورت المقامات السرقسطية أيضا هذه الظاهرة الغريبة والدخيلة على الخلق الاسلامي والعربي الاصيل ، كقول البطل : "٢" (" قد فتني الغربة الى بعض بلاد خراسان ، فتملقت بها فتى من بني ساسان ، فما زال الدهر يصرم مني حبله ، ويصرف عني باله ، ويزدرى بهوان ويولع بسواى . . . " كما تصور الدعارة والبيوت السرية " . . . اذا انا بسرب من نساء يتمايلين بين مرط وكساء . . . يكشفن عن الحسن المصون . . . واذا باحداهن حسبتها قيمة عليهن قد اغدقت قناعا وأبدت امتناعا . . . وأنا أتبع الأثر ، وتلك تتابع الالتفات وتشير الي أن قد فات ما فات . . . فسرت وراءها . . . فقالت رب مرام عسير ، ومطلق في ثياب أسير ، قد أطلقتته من اساره وعابنت من عسره بيساره فقرب مرام وسكن غرام . . . واذا كنت أنا الرسول ، ضمنت لك السؤل واذا بذلت المصون ملكت الحصون واذا رشوت الحجاب ، خرقت الحجاب . . . " ٣

== أنظر : الخريدة : ق ٤ ج ٢ ، ص ١١٠-١١١ ، كرعلي ، رسائل البلغاء ص ٣٠٢ ، ابن دحية ، المطرب : ٦٦ ، عبد الرحمن الانصارى : معالم الايمان في مصرفة أهل القيروان : ٣٩/٣ ، تحقيق : حمد الاحمدى أبو النور ، محمد ماضور ، ط القاهرة ١٩٧٢ م ، فوات الوفيات : ٢٠٤/٢

- (١) الذخيرة ق ٤ ، ج ١ ص ٢١٢ . . .
- (٢) المقامات للزومية : ورقة ٢٦-٢٧ ،
- (٣) نفس المصدر : ورقة "٢٢" .

ومن الاحوال الاجتماعية التي تصورها المقامات منتقدة ساخرة ،
مانجده في المقامة الثانية عشرة حين يتدع البطل حيلة جديدة يتز فيها
أموال الناس وذلك عند ما يعرض ابنته للبيع على أنها جارية فإذا بيعت
وقبض الثمن لم يسمح أمين البلد باخراجها لانها حرة لا يجرى البيع
عليها . "١"

ولعل في هذا ما يعكس ما يرويه المؤرخون عن ضيق العيش وشظفه
في تلك الآونة حتى حلت بالناس " سنة الجوع الأكبر " كما تبين المقامات
ضروبا من الخداع والاتهامات الكاذبة التي تطفق للابرياء للنيل منهم مما
يدل على فساد الثقة بين الناس وأصبحت المكاسب المادية هي الهم الوحيد
المراد تحقيقه بأى طريقة كانت . "٢"

ويمكن القول أن مقامة الدب "٣" عند السرقسطي تعتبر من أوقع
المقامات نقدا وهجاءً لذلك المجتمع حيث تظهر لنا نوعين من الحياة
متناقضين : حياة القصور والترف والجواري ، وحياة البائسين الذين يكسبون
قوت يومهم بالاحتيل والمكر . وفيها نرى الشيخ ابا حبيب بطل المقامة
الذي هو من صف البائسين يرقص دبا وسط جمع غفير من الناس ليكسب
قوته من عطاياهم له جزاء مهارته .

ثم نراه في المقامة التاسعة والأربعين وقد أصبح عرافا وكاهنا وطبيبا
لكل الادواء فهو يداوى فتى كان معه يظهر المرض وهو ماثل الى شقه
والزيد في فمه سائل ، فيزقيه بالتعاون ويخاطب مابه من جن قائلا : "٤"
" يا مارك سسمك صار ، يا مريد ماذا تريد ، ما أطفاك ما أعطاك ،
ما أبعدك عن الخير وأقصاك ، اخرج يا واغل ، فانك شاغل ، ابعد
يا خاتل فانك قاتل . . . " ثم يعلن بعد ذلك عن صنعته هذه ومهارته

-
- (١) المقامات : ورقة " ١٢ "
 - (٢) انظر المقامة " ١٤ " ورقة " ٣٤ " والمقامة " ٣٦ " ورقة " ٨٨ " .
 - (٣) انظر ورقة " ٩٣ " .
 - (٤) ورقة " ١١٦ " .

فيها بين الملائكة : " أيها الناس عندي في هذا الشأن سراير ،
وخبايا من الحكمة وضراير ، أين من لحفته آفة ؟ أين من برحت به علاقة
أو شأفة ؟ أين من خامرته الاشواق والوساوس ؟ ولعبت به الاجراس
والوساوس ؟ أين من سحره ساحر ، أو دمره دامر ؟ أين من لفته عين
أو رهقه دين ؟ عليّ الضمان ، وأنا الزعيم ، وله النعيم . "

ثم تصور لنا المقامات طبقات من الطغام والأوباش الذين قهرتهم
الظروف الاجتماعية والجأتهم الى نوع من الصعلكة والتشرد فظلوا يلزمون
الحانات لا يفيقون من السكر ، وهذه الفئة هي رهط بطلنا المقامسي
ونصرائه لانه يشاركهم في وقوع الحيف والجور عليهم لذلك فهو يشهد
منهم حساسة له في حيله ومكره ، فعندما طلبه أناس في احدى حيله
وجده " في بعض الحانات يرقص حمارا وينفخ مزمارا وحوله من الناس
أوباش وأوشاب " ، وقد أصابهم من قوسه بنبال ونشاب ، وقد استهواهم
أمره واستفزهم زمره ، فمن مصفق مازج أو مصفق هازج . . . " ولما حاول
الناس النيل منه : " أشار الى اولئك الخساس ، قال هاكم يابني الاعساس
فدفعونا عن حريمهم دفعا ، وأوسمونا لكزا وصغما " ١ .

هذا الواقع المرير لا تزخره المقامات ولا توشيه بالفاظ وأسجاع
مجردة ، وانما تصفع به المجتمع بكل قسوته ومرارته وحدته ، ولسان حال
البطل يقول : " صرت لا أبصر وجهها الا عابسا ولا أهصر غضا الا يابسا
ولا أرى في الناس الا نثبا خاتلا أو قرنا قاتلا ، يكلع ويكاشر ، ولا يؤامن
ولا يعاشر . . . " ٢ حتى دفع هذا الوضع الناس الى الاعتزال والوحدة
فيصير البطل عن ذلك بقوله : " حتى صار الليل آنس لي من النهار ،
والخيري أنفح من البهار ، محبة في الانفراد وطلبيا للوحشة والشراد " ٣

-
- (١) المقامات : ورقة " ٤٧ " .
 - (٢) ورقة " ٥٤ " من نفس المصدر .
 - (٣) المصدر السابق : ورقة " ٢٥ " .

بل هو يفضل ' حياة الصحراء ' مع الوحوش على الحياة مع هؤلاء الناس ، ويصبح " لا يأنس الا بعمواء السرحان ونداء الشجان ، وتجاوب الأصداء ، وتناوب البيداء حتى كلفت بالسباع وألفت كرم ذلك الطباع " ، وما ذلك الا لانه وجد في حياة الصحراء تراحمًا ومودة أكثر مما وجد في مجتمعه الذي يعيش فيه ، فتلك الحيوانات " أقل اعتداءً ، وأذل اعداءً ، وألطف نكرا وأخف مكرًا ، وأسلم لعاصمًا وأكرم زمامًا . . . لا أضمرؤا حقدا ولا أظهرؤا نقلا . . . " ١

ويستوقفنا أيضا في موضوعات المقامات ، داخل اطارها الاجتماعي والخلقي والفكري هذه الدعوة للمساواة بين الناس ونبذ تلك التفرقة العنصرية والطبقية القائمة على الحسب والنسب والمكانة الاجتماعية .

فالبطل المقامي يدعو ويبشر بمستقبل خال من هذه المرتكزات الضيقة ، بل انه ينعى على العرب هذه المنهجية الجوفاء " ونحن معشر العرب نميز النبع من الغرب ، ونفاخر بالاحساب والأنساب ، همم أبيه وجاهلية غيبه ، لم يرد بها الاسلام والايمان ، ولا محتها الأيام والأزمان ، وكلنا الى عرى الثرى واشج وعلى متاع الحياة ناشج . . . " ٢

كما نلاحظ في المقامات أيضا ، النزعة الدينية القوية الكامنة فسي النفوس ، والتي لم تجد متنفسا لها في هذا الجو المضطرب الخانق الا بالتوسل برسول الله صلى الله عليه وسلم ، وارسال القوائد والرسائل لغيره الشريف ، وأضحى هذا غرضا أدبيا هاما في تلك الفترة ، ولعمل هذا العمل لا يخلو من مدلول سياسي هام في الالتجاء والاحتماء بآل البيت من نير الظلم والاضطهاد من قبل ولاة البربر .

وعندما يحل البطل بمصر الفاطمية نجده يمدح أهلها بنفحة شيعية وذلك بأنه من كرم الله عليهم ونعمه أن سعدوا " بها كرامة علوية وخلافة علوية ، آثركم بها ذو الجلال فحظيتم بالاجلال . . . " ٣ .

(١) ورقة " ٤٢ "

(٢) المصدر السابق : ورقة " ٣٢ "

(٣) انظر المقامة عشرين : ورقة " ٥٠ " .

وعندما يقف بين يدي الحاكم الفاطمي يستتر ذلك الموقف كوا من شجنه
ودفين محبته لرسول الله صلى الله عليه وسلم وآل بيته فيقول :

يامن له المنزل العلى	ومن أبوه الرضا علي
حسب الذي فاز أن تراه	وهو لتلك العلي ولي
أنت لهذا الانام غيـث	وسميه دام والولي
وأنتم للهدى قـوام	وأنتم للورى حـلي
إذا جلت هاشم علاها	فما تميم وما بـلي
عندى لآل الرسول حب	كل شج دونه خلي

وهنا نرى الوالي وقد " راحت به أريحية هاشمية وهزته هـزة
فاطمية . . . " ١ .

ولا يخفى ما في هذه الإشارة من هجاء سياسي سافر ، فالبطل
هنا يبرز وجهها آخر للسلاسة في عصرة ، فأكثر المقامات التي تدور
أحداثها داخل المدن الاندلسية تعرض بالحكام ، وتسمهم بالظلم
والجور والطغيان والفساد ، وكأنه يوحي مجال حكام البربر ويعتبرهم
مغتصبين لبلادهم ، لذلك عندما يشير في هذه المقامة الى حاكم عربي
يصفه بالكرم والطرب للشعر والمعرفة بالآداب وكأنه يعرض رمزا بحكام
بلادهم الذين لا علم لهم بذلك . " ٢ "

(١) نفس المقامة ورقة " ٥١ " .

(٢) انظر رسالة الشقندي في تفضيل الاندلس في النفرح ٤ / ١٨٠ ،
حيث يذكر أن يوسف بن تاشفين فهم من مدح الشعراء له " أنهم
يريدون الخبز " .

الأغراض الأدبية للمقامات التقليدية :

لو لم يكن الغرض الأدبي هو الأصل في وضع المقامات فإنه دون شك من أهم أغراضها . فالحياة العلمية أو الثقافية في عصرى الطوائف والمرابطين كانت منقسمة - على وجه التقريب - الى قسمين متباينين :
قسم اهتم بعلوم العربية بفرعونها من نحو ولفظة وأدب وما اليه من الدراسات الاسلامية كالفقه والتفسير ونحوه ، والقسم الآخر اشتغل بعلوم الفلسفة والمنطق والفلك والرياضيات والطب وغيره ، وهناك من حاول الجمع ولكن على نطاق ضيق فظلا متميزين بارزين . "١"

وإذا نظرنا الى السرقسطي كأشهر كاتب مقامي في هذا العصر نجده من علماء الدراسات الاسلامية العربية ، الخالصة ولم يعرف عنه الاشتغال بالفلسفة والمنطق أو الفلك وأشباه ذلك ، وتقول ترجمته في أول مخطوط مقاماته انه " . . . كان لغويا أدبيا شاعرا كاتبا معتمدا في الأدب فردا متقدما في ذلك في وقته " "٢" فهو في مقاماته يصدر عن معرفة عميقة بهذه العلوم مجتمعة ، وهناك عامل آخر على جانب من الأهمية تأخذه في الاعتبار ونحن نقف على الاغراض الأدبية في المقامة الاندلسية وهو أن أهم كتابها السرقسطي قد أنشأ مقاماته في الأصل محاكاة للحريري فإنه " عند وقوفه على ما أنشأه الرئيس أبو محمد الحريري بالبصرة ، أتعب فيها خاطره ، وأسهر ناظره ، ولزم في نشرها مالا يلزم فجاءت على غاية من الجودة " "٣"

ومقامات الحريري كانت دائرة معارف صغيرة في النحو واللفظة والتاريخ وغيرها لكثرة ما فيها من ذلك ، وهي قد جمعت من اللفظة والامثال والاحاجي الشيء الكثير . . "٤" بل ان الحريري في مقدمته

-
- (١) نحيل في هذا المجال الى كتب التراجم الاندلسية كالجدوة ، وفهرسة ابن خير وأزهار الرياض والقلائد . خشية الاطالة والانصراف عن صلب الرسالة .
 - (٢) أنظر الورقة الأولى من مخطوط مقاماته .
 - (٣) كشف الظنون : ١٨٧٥/٢ .
 - (٤) الزيات ، تاريخ الأدب العربي : ٢٦٠ ، ط بيروت .

ينص بأنه قد ضمن مقاماته كل تلك العلوم ، فالحريري قد قصد - بوعي - أن تكون مقاماته ، منبرا للتعليم ، ومرآة تعكس للمجتمع مواطن الفساد فيه ، ليتجنبها ، وعلى هذا المجرى سلكت المقامة الاندلسية على يد السرقسطي ، وأهم الاغراض الادبية هي : النقد الادبي ، ونجد في هذه الفترة ثلاث مقامات تعالج هذا الموضوع وكتابتها هم ابن شـرف القيرواني ، وعبد الرحمن بن فتوح ، والسرقسطي ، مقامة ابن شرف : تحدث فيها عن عدد كبير من الشعراء ، بعبارات موجزة قصيرة ، لم تزد في بعض الشعراء عن بضع كلمات ، وهي ذات شقين كبيرين : الأول تحدث فيه البطل المقامي في المجلس عن الشعراء أنفسهم ، والثاني يتتبع ويحصي فيه سقطات الشعراء وعيوب اشعارهم .

وقد بنيت المقامة على ترتيب زمني حيث بدأت بشعراء العصر الجاهلي المشهورين مثل " ١ " الضليل والقتيل ، ولييد ، وعبيد ، والنوابغ والعشي ، والاسود بن يعفر ومن سواه من العمي " . ثم طائفة من العصر الاسلامي " كالفوزنق وجريير ، وجميل وكثير ، وابن جندل وابن مقبل ، وجرول والاخلط " .

وهكذا يستمر حتى الطبقة المتأخرة في الزمان المتقدمة في الاحسان كأبي فراس بن حمدان ، والمتنبي بن عبدان ، كما أن الجديد في مقامة ابن شرف انها تذكر شعراء مغاربة وتجعلهم اتدادا لبحول المشرق " كابن عبد ربه القرطبي ، وابن هانيء الاندلسي ، وعلي بن العباس الاياوي التونسي ، والقسطلي " ٢ " .

وقد كانت أحكامه على الشعراء في هذا المجلس الأول لم تتعدى تلك الكلمات الجوامع التي تصف الشاعر بالحلاوة والجزالة أو الرقصة

(١) هذا المجلس الأول من مقامة أعلام الكلام لابن شرف في الذخيرة

ق ٤ ، ج ١ ، ص ١٩٧ - ٢١٢ . ت عباس .

(٢) نفس المصدر : ص ١٩٨ .

والفلظة وما الى ذلك ، فيقول مثلا عن امرىء القيس واصفا اياه بالابتكار في الاستعارات والاشارات والضليل مؤسس الأساس ، وبنياته عليه الناس . كانوا يقولون : " أسيلة الخد " حتى قال : " أسيلة مجرى الدمع " وكانوا يقولون : تامة القامة ، وطويلة القامة وجيداء ، وتامة العنق " حتى قال " بعيدة مهوى القرط " وكانوا يقولون في الفرس السابق " يلحق الغزال والظلم وشبهه ، حتى قال " قيد الأوائد " ولم يكن قبله من فطن لهذه الاشارات والاستعارات غيره فامتثلوه بعده . . . "

ويقول عن عنتره العبسي : " مجيد في أشمارة ، ولا كملقته ، فقد انفرد بها انفراد سهيل ، وغير في وجوه الخيل ، وجمع فيها بين الحلاوة والجزالة ، ورقة الفزل وغلظة البسالة ، وأطال واستطال ، وأمن السامة والكلال " ، وهكذا يمضى حتى يصل الى أبي نواس فيقف عنده وقفة تختص بشيء من التفرد فقد رأى فيه انحرافا عن الشعر الرصين طليا للسهولة والرقة في الفزل والمجون التي تلائم عوام الناس فيقول : " وأما أبو نواس ، فأول الناس في خزم القياس ، وذلك أنه ترك السيرة الأولى ، و نكب عن الطريقة المثلى ، وجعل الجذ هزلا ، والصعب سهلا . . . وصادف الافهام قد نكلت ، وأسباب العربية قد تخلخلت وانحلت ، والفصاحات الصحيحة قد سئمت وملت ، فحال الناس الى ما عرفوه ، وعلقت نفوسهم بما ألفوه فتهادوا شعره ، وأغلوا شعره ، وشغفوا بأسخفه ، وكلفوا بأضعفه ، وكان ساعده أقوى ، وسزاجه أضوى ، لكنه عرض الأنفق ، وأهدى الأوفق ، وخالف فشهر وعرف ، وأغرب فذكر واستطرف . والعوام تختار هذه الاعلاق وأسواقهم أوسع الاسواق ، فشعر أبي نواس ، نافق عند هذه الأجناس ، كاسد عند أنقد الناس . . . " ^١ ولعله من الطريف أن نسمع قول

أبي الريان بطل المقامة - بعد أن أورد علينا عددا كبيرا من الشعراء - معتذرا " هذا ما عندي في المتقدمين والمتأخرين ، على احتقار المعاصر واستصغار المجاور ، فحاش لله من الاتصاف ، بقلبة الانصاف ، للبعيد والقريب ، والعدو والحبیب . "

أما المجلس الثاني : فهو الذي يعنينا من نقد ابن شرف وبه نفحات نقدية تبدو على قدر كبير من الاصاله والعمق وأعمال الفكر مع الخيال والتذوق الشاعرى ، وقد حاول أن يضع للنقد الأدبي مقاييس نقدية حاسمة قدر المستطاع ، ومن أهم هذه المقاييس : التروى الشديد قبل اصدار الحكم النقدي يقول : " (١) " أول ما عليه تعتمد ، وایاه تعتقد أن لا تستعجل باستحسان ولا باستقباح ، ولا باستبـران ولا باستملاح حتى تنعم النظر وتستخدم الفكر ، واعلم أن العجلة في كل شيء موطيء زلوق ومركب زهوق . "

وابن شرف بهذا يحاول أن ينفي عن نقده صفة التأثير بما ينقده من الشعر فينساق مع العاطفة ، ان يؤكد أهمية التقويم المقنن في النقد وذلك " ان من الشعر ما يملأ لفظه المسامع ويرد على السامع منه قعاقع ، فلا يركع شماخة مبناه ، وانظر الى ما في سكتاه من معناه " فاذا كان للنقاد هذا الحظ من البصر الثاقب أمكنه أن يميز جيد الشعر من غشه ببساطة " فاذا كان في البيت ساكن فتلك المحاسن ، وان كان خاليا فأعدوه جسمًا بالياً
وكذلك اذا سمعت ألفاظا مستعملة وكلمات مبتذلة ، فلا تعجل باستضعافها ، حتى ترى ما في أضعافها " هذه الدعوة للتريث والتأني قبل اصدار الاحكام تقع من ابن شرف موقعا خاصا ، وتحديث عنده معادلة بين اللفظ والمعنى هذه القضية المشهورة عند النقاد منذ القديم في المشرق ، وهو يحاول أن يدلي فيها برأيه

(١) انظر المجلس الثاني في رسائل البلغاء لمحمد كرد علي بعنوان :
" رسائل الانتقاد " ص ٣٢٥ - ٣٤٣ .

فيجد بينهما نوعاً من التمازج في بناء العمل الأدبي ولكنه لا يخفى
مناصرتة للمعنى حيث يقول : " فكم من معنى عجيب في لفظ غريب ،
والمعاني هي الأرواح ، والالفاظ هي الاشباح ، فان حسنا فذلك
الحظ المدوح ، وان قبح أحدهما فلا يكن الروح " ١ "

ونلاحظ أيضاً نظرة ابن شرف المحايدة الواعية الى العمل الادبي
في جوهر ابداعه ، بعيداً عن اطار الزمان والمكان لذلك يوصي
الناقد أن يتحفظ من شيئين : " أحدهما أن يحملك اجلال القديم
المذكور على العجلة باستحسان ماتستمع له ، والثاني أن يحملك
اصفارك المعاصر المشهود على التهاون بما أنشدت له فان ذلك
جور في الاحكام ، وظلم من الحكام ، حتى تمحص قولهما ، فحينئذ
تحكم لهما أو عليهما . . . " ٢ " ولا ينكر ابن شرف صعوبة هذا التجرد
والمحايدة لما للناس من ولع بالقديم بقوله : " وهذا باب في اغتلاقه
استصعاب ، وفي صرف العامة وبعض الخاصة عنه أتعب

وبعد هذه المقدمة التي يطرح ابن شرف من خلالها مذهبه
النقدي يمضي حاملاً مبضع النقد ليشرح ماشاء من الشعراء مطبقاً
عليهم نظريته السابقة فيبدأ برأس الشعراء أمرى القيس الذي اتسمت
الأقوال في فضله اتساعاً لم يفز غيره ، بمثله . . . ولكن هيهات من البشر
الكمال ، فهو يقول في معلقته المشهورة :

ويوم نخلت الخدر خدر عنيزة فقالت لك الويلات اتك مرجلي
ويأخذ ابن شرف هذا البيت ويجري حوله نقاشاً دقيقاً في
كل جزئياته داخل اطار من النظرة الاخلاقية " ٣ " فما كان اغناه عن

(١) لعله في هذا يستوحي ما أورده العسكري في الصناعتين عن
العتابي حين قال : " الالفاظ أجساد ، والمعاني أرواح . . . "
ص ١٦٧ ، تحقيق أبو الفضل ابراهيم والبيجاوي .

(٢) نلاحظ هنا أنه ناقض كلامه السابق بالنسبة للمعاصرين " هذا
ما عندي في المتقدمين والمتأخرين ، على احتقار المعاصر واستصغار
المجاور " .

(٣) رسائل البلغاء : ٣٢٧ .

عن الاقرار بهذا ، وما أشد غفلته عما أدركه من الوصمة به ، وذلك ان فيه أعدادا كثيرة النقص والبخس ، منها دخوله متطفلا على من كره دخوله عليه ، ومنها قول عنيزة له " لك الويلات " ، وهي قوله لا تقال الا لخسيس ، ولا يقابل بها رئيس ، فان احتج محتج بأنها كانت رأس منه ، قيل له : لم يكن ذلك لان الرئيسة لا تركب بعيرا يدرج أو يموت اذا ازداد عليه ركوب راكب ، بل هو بعير فقير حقير ، فان احتج بأنه صبر على القول من أجل أنها معشوقته ، قيل له وكيف يكون عاشقا من يقول لها :

فمثلك حبلى قد طرقت ومرضع

فألهبيتها عن ذى تمام محول

وانما المعروف للعاشق الانفراد بمعشوقته ، واطراح سواها كالقيسين في ليلى ولبنى ، وغيلان بميه ، وجميل بثينة ، وسواهم كثير ، فلم يكن لها عاشقا ، بل كان فاسقا ، ثم اهجن هجنه عليه ، وأسخن سخنه لعينيه ، اقراره باتيان الحبلى والمرضع ، فأما الحبلى فقد جبل الله النفوس على الزهد في اتيانها ، والاعراض عن شأنها منها ان الحبلى علة وأشبه العلل بالاستسقاء . . . ولا يميل الى هذا من له نفس سوقى ، دع نفس ملوكي . . . ثم لم يكفه ، ان يذكر الحبلى حتى افتخر بالمرضع ، وفيها من التلوث بأوضار رضيعها ، ومن اهتزالتها واشتغالها عن احكام اغتسالها ، وقد أخبر أن ذى التمام المحول متعلق بها . . . وأخبر أنها ظئر ولدها لا ظئر له ولا مرضع سواها ، فدل بذلك على أنها حقيرة وقيرة ، ومثل هذه لا يصبو اليها من له هم ، وهذه الصفات كلها تستقدرها نفس الصعلوك والمملوك "

ثم يمضي ثالبا امراً القيس كل مكرمة وفضيلة ، مستدلا بقول أخرى من معشوقاته :

فقلت لحاك الله انك فاضحي

أنت ترى السما روالناس أحوالي

" فأخبرها هنا أنه هيّن القدر عند النساء ، وعند نفسه برضاه قولها " لحاك الله " فحصل على " لحاك الله " من هذه و " لك الويلات " من تلك فشهد على نفسه أنه مكروه مطرود ، غير مرغوب في مواصلته ولا محروص على معاشرته ولا مرضي بمشاكلته . " ١ "

والذي يبدو أن ابن شرف قد بني حكمه هذا على القصص والأخبار التي تروى عن امرئ القيس بأنه كان مفركا لدى النساء محروما منهن ، وقد نص على ذلك بقوله " ٢ " : " وإنما سهل عليه كل هذا حرصه على ما كان ممنوعا منه وذلك انه كان ميغضا الى النساء جدا ، مفروكا ممن ملك عصبتها لاسباب كثيرة ذكرت وكل من حرص على نيل شيء فمنع منه فعلا ادعاه قولا . . . " . وبذلك فقد وقف ابن شرف من امرئ القيس على بعد نفسي هام (هذا على فرض صحة الاخبار التي تروى عن قصوره الجنسي في تهالكه على الشهوات في شعره وذلك انه يحاول تعويض هذا الحرمان بانفعالات نفسية جادة لتظهره فعلا تهيم به النساء - كما أن هذا الكبت العاطفي يتحول عنده الى عمل أدبي تظهر فيه نفسيته .

وهذه النظرة النفسية في تفسير العمل الأدبي نجدها قد اتخذت شكلا علميا مقننا على يد المدرسة النفسية في الأدب في النقد الحديث، وقد كنا نعد ابن شرف في نقده منصفا ومحايدا لو ابرز في نقده القيمة الجمالية الكلية التي أحدثها الكبت النفسي عند الشاعر ، ولم يمس معتسفا للصور والأخيلة في اطار اخلاقي ضيق ، ومثال هذه النظرة يمكن أن نجدها عند الشاعر مجنون ليلي ، قيس بن الملوح من خلال شعره تجده " قد استعاض عن حرمانه من ليلي بوصف مجالات الطبيعة وخاصة جمال الطباء ، كقوله ناظرا مجال الجمال الفني من الطبيعة الى ليلي :

(١) رسائل البلغاء : ٢٨٠ .

(٢) غنيمي هلال ، النقد الأدبي الحديث ، ٤٠٤ ، ط القاهرة .

أيا شبه ليلى لاتراعي فانني
لك اليوم من وحشية لصديق
وياشبه ليلى لو تلبثت ساعة
لعل قوادى من جواه يفيسق
تفر وقد أطلقتها من عقالها
فانت لليلى لو كلمت طليق
فعينك عيناها وجيدك جيدها
ولكن عظم الساق منك دقيق "١"

ثم يؤكد ابن شرف هذه النظرية عندما يقف على الشاعر سحيم
عبد بني الحسحاس "٢" وهو (أسيد في شمله ، دنسة قمله ،
لا يوءأكله الفرثان ، ولا يضالیه الصرد العريان ومع ذلك يقول :

وأقبلن من أقصى البيوت يعدنني
نواهد لا يعرفن خلقا سوائينا
يعدن مريضا هن هيجن مابه
الا انما بعض العوائد داعينا
التي أن يقول : توسدني كفا وتحنو بمعصم
علي وترمي رجلها من ورائينا

-
- (١) غنيمي هلال ، النقد الأدبي الحديث ، ٤٠٤ ، ط القاهرة .
(٢) هو سحيم عبد بني الحسحاس بن هند ، شاعر مخضرم ، من ال
الطبقة الاولى قتل نحو ٤٠ هـ ، كان عبدا نوبيا اعجمي الأصل
اشتراه بنو الحسحاس (وهم بطن من أسد) ، كان رقيق الشعر
فصيحه ، عاش الى أواخر خلافة عثمان ، وقتله مواليه وأحرقوه
لتشبيهه بنسائهم . انظر اخبار في : سمط اللآلي : ٧٢١/٢ ،
طبقات ابن سلام : ١٥٢/١ ، أنساب العرب ، لابن
حزم ص ١٩٤ ت هارون ١٩٦٢ م .

وانطلاقاً من نظرية ابن شرف " ان الممنوع من الشيء حريص عليه مدع فيه " ١ " لم يكن مستغرباً أن يعتبر قول سحيم أضفك أحلام ، وكيف لا تكون كذلك " وتعلم أن الله لو أدخل الأرض فلم يبق رجلاً في الطول ولا في العرض ، لم يكن هذا الزنمة الزلمة عند ادراك السودان الا كبعرة بعير في قعر غير " ولكنه الحرمان والكبت النفسي والأحلام والتخيلات (وكل من حرص على نيل شيء فمنع منه فعلاً ادعاه قولاً " ٢ " ثم يعرض علينا ابن شرف بعداً معارضاً ومخالفاً ومرتكزة نفسي أيضاً فيقول : " والمعد بما يهواه ، كاتم له مستغن ببلوغ مائه " ويضرب مثالا لذلك بالشاعر المرقش الأكبر " ٣ " وقد " كان من أجمل الرجال ، وكانت للنساء فيه رغبة ، وشدة محبة ، وكان كثير الاجتماع بهن ، والوصول اليهن ، وله في ذلك أخبار مروية ، ولم يكن في اشعاره صفة شيء من ذلك فحسبك بذلك صحة على ما قلناه " والواقع ان هذه الوقفات النفسية هي أهم ما في مقامة ابن شرف من النقد ، وهي دون شك مقامة ذات قيمة أدبية كبيرة على الأقل تقدمها لزمانها ومجاورتها النظرة السطحية الى العمق في التفكير والاستقصاء والتحليل ، ولكن يؤخذ عليها النظرة الضيقة المنحصرة في الجانب الأخلاقي ، في نقد الشعراء دون النظر الى الفروق الاجتماعية والفردية والبيئية ، كما لا يخفى علينا مسلك ابن شرف القائم على حب المخالفين سبقه من النقاد ، وقد طبق هذا المسلك في نقده للشاعر زهير بن أبي سلمى - مع أنه يعده من فضلاء الشعراء الذين تعد سقطاتهم . . فيعيب عليه قوله :

-
- (١) رسائل البلغاء : ٣٢٩ .
 - (٢) نفس المرجع : ٣٢٨ .
 - (٣) المرقش الأكبر : هو عمرو بن سعد بن مالك ينتهي نسبه الى بكر ابن وائل ، شاعر جاهلي مشهور سمي بذلك لقوله :
الدار قفر والرسم كما رقت في ظهر الادم قلم
انظر المفضليات : ٤٥٧ ، تحقيق يعقوب لايل ، بيروت ، ١٩٢٠ ،
الاجاني ١٢٠/٦ - ١٢١ ط بيروت .

رأيت النيايا خبط عشواء من تصب

تمته ومن تخطي يصر فيهم

فيقول : " وقد غلط في وصفها بخبط العشواء . . . انما يصح قوله لو كان بعض الناس يموت وبعضهم ينجو وقد علم هو وعلم العالم ، حتى أن البهائم ، أن سهام النيايا لا تخطي شيئا من الحيوان حتى يعمها رشقا ، فكيف يوصف بخبط العشواء رام لا يقصد غرضا من الحيوان الا أقصده حتى يستكمل رمياته . وانما أدخل الوهم على زهير موت قوم عبطه وموت قوم هرما ، وظنوا طول العمر انما سببه اخطاء المنية ، وسبب قصره اصابتها وغيبتها الصواب من ظنه الم يوءخر الهم الا أنها قصدته فحين قصدته أصابته ، ولو أن الرماة تهتدى كاهتدائها لمأت أيديها بأقصى رجائها " ا " وفي تقديرى أن الذى دفع ابن شرف الى هذا الاستقصاء هو سعيه وراء المعنى الاولي المجرد دون النظر الى الجمال الفني في الصياغة الشعرية في مجال الحكم ، بالاضافة الى ان ابن شرف كان بذلك يتحدى جمهرة النقاد في عصره الذين يعدون هذا البيت وامثاله من محامد زهير . ويتابع ابن شرف نقده لأبيات زهير بنفس الطريقة فيقف عند قول زهير في معلقته :

ومن لم يذ عن حوضه بسلاحه

مهدم ومن لا يظلم الناس يظلم

فيأخذ في تفنيد هذا القول ، واثبات بطلانه تفنيد عالم يريد أن يدفع حجة خصمه لانقد أديب لشاعر فيقول : " وقد تجاوز هذا الحق الباطل ، وبني قولا ينقضه جريان العادة ، وشهادة المشاهدة ، وذلك ان الظلم وعرة مراكبه ، مذمومة عواقبه ، في جاهليته واسلامنا ، فحرض في شعره عليه ، وان كان انما أشار في شعره الى ان الظالم يرهب فلا يظلم ، فهذا قياس يفسد ، وأصل ليس يطرد ، ولكن يرهبه من هو أضعف منه ، وربما انتقم منه بالحيلة والمكيدة ، وقد يظلم الظالم من

يغلبه فيكون ذلك سبب هلاكه مع قباحة السمّة بالظلم والمثل انما يضرب بما لا ينضم ، وقد كانت له عمدوحة واتساع في أن يقول :
" يهزم ومن لا يظلم الناس يظلم " فهذا أصح وأسلم من من لا يظلم
ويظلم " ١ " .

ثم يذكر أبياتا أخرى منها :

تراه اذا ماجتته متهللا

كأنك تعطيه الذي أنت سائله

فأنكر هذا المدح على زهير ان كيف يقال لانسان عظيم القدر
كثير الفخر بأنه يتهلل ويسر بمن يدفع شيئا من عرض الدنيا اليه
فان هذا يعتبر من سقوط الهمة وصفر النفس ، والفضلاء يفخرون بضد
هذا كقول بعضهم :

ولست بمفراح اذا الدهر سرنى

ولا جزع من صرفه المتقلب

ثم يبين أن زهيرا ومن استحسّن هذا البيت لم يكن استحسانهم
الا نتيجة لما يكن في نفوسهم من الطمع وحب العطايا " وانما غرز هيرا
وغير المستحسن بيته هذا ماجلوا عليه من حب العطاء ، وما جرت
به عادتهم من الرغبة في الهبات والاستجداء ، وليس كل الهم تستحسن
ذلك ولا كل الطباع تسلك هذه المسالك " ٢ " ومنها قول زهير :

على مكثريهم حق من يعترهم

وعند المقلين السماحة والبذل

ويعلق عليه تعليقا طويلا ويشير الى أن زهيرا هنا أراد أن
يمدح فذم - مع العلم " أن اكثر الناس على استحسان ما قال ، بل
أظن كلهم على ذلك " ٣ " وهنا تظهر شخصية ابن شرف المشغوفة

-
- (١) رسائل البلغاء : ٣٣٣ .
 - (٢) نفس المرجع والصفحة .
 - (٣) نفس المرجع ٣٣٤ .

بالمخالفة والتفرد بالرأى فيقول : " فأول ما ذمهم به اخباره أن
فيهم مكثرين ومقلين ، فلو كان مكثروهم كرماً لهدلوا لمقليهم الأموال
حتى يستووا في الحال ، ويشبهوا في الكرم والحال الذين قال فيهم
حسان :

الملحقين فقيرهم بغنيهم والمشفقين على اليتيم المرمل "

كما يشير الى أن هؤلاء المكثرين قد ضيعوا القريب ورعوا حق
القريب ، وصلة الرحم أولى مبادئه به ومن مكارم العرب حميتها لذوى
أنسابها ، وذبها عن أحسابها ، والأقرب فالأقرب ، وما فضل عن
ذلك فلأبعد .

وقد اكتفى ابن شرف بهذين الشاعرين أمرى القيس وزهير عن
غيرهما ، يقول : " وفيما اطلعتك عليه من شعر هذين الفحلين ،
والمقدمين القديمين ، ما يفني عن التفتيش على سقطات سواهما ،
فقس على ما لم تره بما ترى ، وأعلم أن كل الصيد في جوف الفرا . "

وتختتم مقامة ابن شرف حين يأخذ البطل أبو الريان عيوب الشعر ،
ولم يأت بجديد وإنما كرر وأعاد ما ذكره كثير من النقاد قبله ، مثل
اللحن الذي لا تسعه فسحة العربية ، وخشونة حروف الكلمة وتعقيد
الكلام في الشعر ، وتقديم آخره على أوله ، وكسر الوزن ، ومجاورة
الكلمة لما لا يناسبها ولا يقاربها ، ثم الافتتاحات المستقلة والمتشائم
بها ، وقلق القافية ، وجفاء النسيب ، والسرقة بكل أنواعها في الالفاظ
والمعاني ، أما الأقواء والأيطاء والسناد والاكفاء ، وصرف ما لا يتصرف
فتستعمل في الشعر إلا أن السالم من جميع ذلك أجمل وأفضل ،
ويورد مستدلاً على كل ما ذكر أمثلة مشهورة كثر ترادها في كتب الأدب
من قبله .

مقامة عبد الرحمن بن فتوح "١":

وهي مقامة قصيرة لا تتجاوز الصفحة أو الصفحتين ، ولعل صاحب الذخيرة قد بترها فجاءت على صورة لا تشفي غليلا ، ولكن الحديد فيها رغم ذلك اختصاصها بذكر شعراء الأندلس وحدهم كما أنها حوت تحديدا للزمان والمكان ، حيث يقول "٢": " كنت ليلة في رمضان أطوف بالمسجد الجامع بالمرية سنة ثلاثين . . أي ثلاثين وأربعمائة ثم يحدث التعارف بين ابن فتوح وبطل مقامته " وإذا فتى حسن النظر ، فسلم عليّ سلاما ارتاحت له نفسي ، وأنشرح له صدرى ، فرددت عليه رد من توسم منه سمة الفهم . . . "

والملاحظ على بطل هذه المقامة انه لا يحمل اسم شخصية خيالية بعينها كما هي العادة عند كتاب المقامات في تسمية أبطال مقاماتهم ولكنه فتى وارى الزناد أعجبه ترديد ابن فتوح لبعض الأبيات من الشعر فطلب اعادتها . فيعيد لها له ثم تتوثق العلاقات بينهما ويخبره الكاتب بحاله ومابه من الوجد من جراء صد محبوبه عنه وهجره له ثم يترك البطل صاحبه بعد أن غرس في كبده ثمرة وده .

(١) هو أبو المطرف عبد الرحمن بن فتوح كان يعرف بابن صاحب الاسفيريا ، من مشاهير الأدباء ، وله شعر كثير الا أن احسانه نزر يسير ، وحدث عن نفسه انه صحب ابن برد الأصغر ، وجازبه أذيال المذاكرة وراكضه افراس المحاضرة حتى وقفه - بزعمه - على البديع والبيان على حقيقتهما ، ومن تأليفه في الأرب " الاغراب في رقائق الآداب " ورفعته الى المأمون بن ذى النون و " الاشارة الى معرفة الرجال والعاره " وكتاب " بستان الملوك " رفعه الى ابن جمهور أيام امارته بقرطبة . وقال ابن بسام : وابن فتوح هذا كثير الاهتمام لاشعار سواه ، قبيح الاخذ في كل ما انتحاه وشعره كثير البرد وبينه وبين ابن برد من مسافة البعد ما بين القطب الثابت والقصب النابت . الذخيرة : ق ٢ ، ج ١ ، ص ٢٧٣ .

(٢) المقامة أو ما وصلنا منها في الذخيرة : ق ٢ ، ج ١ ص

ثم يلتقيان مرة أخرى في يوم " قد بكى ماء غيمه ، ونبض عرق برقه ، وخفق قلب رعد ، واغرورقت مقلة أفقه " وهنا تسفر المقامة عن هدفها عندما يسأل البطل صاحبه : " كيف ذكرك لرجال مصرك ووقوفك على شعراء عصرك قلت خير ذكر . " فيمضيان بيــــن سؤال وجواب ليذكرا لنا أربعة شعراء أندلسيين مع مراعاة تسليط الضوء على أشهر ما عند الشاعر من مقومات شعرية . " فقال : من أعذبهم لفظاً وأرجحهم وزناً ؟ قلت : الرقيق حاشية الطرف الانيق ديباجة اللطف أبو حفص بن برد " هذا ما كان من أمر الألفاظ والأوزان ، ثم تدخل ميدانا آخر " فمن اقواهم استعارات وأصحهم تشبيهات ؟ قلت : البحر العجاج والسراج الوهاج ، أبو عامر بن شهيد " وهذا ما كان من أمر الأخيلة والصور ، وترينا أيضاً بعداً ثالثاً للمجال الشعري في تلك الفترة ، " قال فمن أنكرهم للأشعار وأنظمهم للأخبار ؟ قلت : النحلو الطريفة ، البارع اللطيف ، أبو الوليد بن زيدون " وهذا ما كان من أمر الثقافة العامة الواسعة للاديب أو الشاعر وتتمثل في حفظ القصص القديمة والقدرة على الاقتباس والتضمين وحل الشعر ومأثور القول ، أما الدعامة الرابعة لمملكة الشعر فيسأل عنها قائلاً : " فمن أكلفهم بالبديع واشغفهم بالتقسيم والتتبع ؟ قلت الراجع في روضة الحساب المستطيل بمرجة الأدب أبو بكر بن ابراهيم الطبني " وهذا هو أسلوب التصنيع والتأنف في الشعر .

والمقامة من الناحية النقدية تقل عن مقامة ابن شرف الآنف الذكر في محتواها النقدي وتتبع أهميتها من اعطائها صورة لمقومات النقد الأدبي في تلك الحقبة ، واهتمامات عدد كبير من نقاد الشعر بالنقد الشكلي أو اللفظي القائم على وقع الألفاظ واستقامة الوزن وقطرافة الاستعارة وغزابة التشبيه مع حصيلة من الاقتباس والتضمين داخل إطار من الزخرف البدعي كالجناس والمقابلة والتقسيم وما جرى مجراه ، فهو نقد يعني بالصياغة دون اهتمام كبير بالمحتوى الفكرى أو النفسي أو العقلي ، ومن ثم نجد أنه قد ينصر الشعر في تفضيل قصائد منمقة مزركشة تلائم معايير النقاد آنذاك .

مقامات السرقسطي :

سارت مقامات السرقسطي النقدية على النهج الذي سلكه ابن سرف في نقده من ناحية الشكل . وقصرت دونها بعدم ذكر شعراء الاندلس ، كما أن السرقسطي لم يقف طويلا يتتبع ويحلل عيوب الشعراء والشعراء كما فعل ابن سرف ، أما الاثر النفسي وصداه في الشعر ، فلم يعرف عنه شيئا ، وقد انحصر اغلب نقده في ابراز أشهر ما عرف به الشاعر و من حيث الاسلوب وما قيل في شعره على السنة النقاد السابقين ، كل هذا بعبارة عامة لا تعطي احكاما دقيقة ، كقوله مثلا عن الفرزدق "١" " فالفرزدق ينحت من صخر وينطق عن فخر أما جرير فسابق درير ، أحزن صاحبه فأنهل ، وأعجل فأمهل يفرف من بحر وينطق عن سحر ، ويبارى برقته النسيم ، ويبرز من قوله الرايق والوسيم " .

ومما يسترعي الانتباه في نقد السرقسطي اهتمامه بشعراء الغزل ، والعدريين منهم بوجه خاص فجدده يطيل وقفته عند جميل بثينة " جميل ماجمیل ، زعيم أو حميل ، يخشن ويرق ، ويجل ويدق ، وجهه من الاحسان وسيم ، وقول يجفولرقتة النسيم ، اذا هفا به الحب وجمع ، وطما له الشوق وطمح ، فهبة السيف الخشيب ، وسورة الزاح المشيب ، ودولة الشباب على المشيب ، دل العراق ، وظرف الحجاز ، وصبابة العشاق ، وجزالة الرجاز . " ٢ "

ويصف كثير بقوله " ٣ " : " ذو الصبابة والدمعة ، والاشادة والسمعة ، حسبك من عارضة نسيب ، وركن مديح ، وصاحب معاريف من القول ومناديح ، تهفو به الجوانح والظلوع فينطق الوجد والولوع . . . ملكت عزة زمامه ، وما حفظت زمامه ، فرجا منها ظل غمامه ، وما اقتفى منها قطة ولا حمامه ، كثير قلل ، وأبي ذلل ، وقد يما صفر ،

(١) مقامات السرقسطي : ورقة " ٧١ - ٧٢ " .

(٢) نفس المصدر : ورقة " ٧٣ " .

(٣) نفس المصدر : الورقة .

للتعظيم كبير ، واستجمل على العلم خبير ، ما أمتعته للأديب ، وأغناه
عن كل خصيب أو جديب .

وعن مجنون ليلى يقول "١" : " ذوالخيال والجنون ، والضروب
والغنون ، جن به الحب والاحسان ، فعذب منه القلب واللسان
خلعت عليه الصباة أثوابها ، وفتحت الاصابة له أبوابها ، فهو المثل
السائر في الصباة والوجد ، والخيال السار في التهام والنجد ،
ويلاه ويلاه اذا صرح عن ليلاه ، وكنى عنها بألمالك ، وتهالك
مع الهواك "

أما قيس بن ذريح صاحب لبني فهو "٢" " الوجد الصريح ،
والقلب الجريح ، والجفن القريح ، لفظ جزل ، وجد لا هزل وقت
معانيه وألفاظه ، وتظاهر صونه للحب وحفاظه ، ويعدده الحب تارة
وأدناه ، شاهد قاطع ، وشير ساطع ، ضعيف تعمر وعميد تيرم ،
فارق الملا فندم ، لما عدم من هواه ماعدم ، وأدعى ان لدينه وديناه
بطون وأظهر ، ومن دون صبره أو سلوه عصور وأدهر .

والملاحظ اننا نحس في وصفه للعذريين نوعا من المشاركة الوجدانية
لهم بالتلطف بهم ووصف عواطفهم وحرمانهم ولعل هذا الاعجاب بهم
هو الذى دفعه لإدارة كثير من مقاماته على الحب العذرى العفيف
وعقدته الحرمان .

ولعل هذا الاعجاب أيضا هو الذى دعاه الى الغض من شأن
عمر بن أبي ربيعة زعيم الغزل الحسى حيث قال عنه : "٣" " عمر ماعسر
حديث سمر ، ووصاف حجات وعمر ، تشاغل بسهيل وثرياه وربابيه ،
ورياه فقصر عن مدى الفحول ، ونام عن الاوتار والذحول ، فهو على
حياله يعثر في انياله ، ويتعلل بطيفه وخياله ، ويتمتع بطلحه وسياله ،

(١) نفس المصدر : ورقة (٢) - ٧٤ .

(٢) المصدر السابق ونفس الورقة .

(٣) مقامات السرقسطي : ورقة "٧٢" .

استبد به الغزل ، ولم يكون لقوله ربيع ، ولا نزل سوب غمزة طرف
وهزة ظرف ، واختلاس عيون ، واقتضاء ديون . . . فلا حسان يأخذه
ويدهه ، والهوى يجمع به تارة ويرده " والواقع أن الناقد المحايد
يعلم أن عمر لا يقل في شاعريته عن جميل وكثير والقيسين وغيرهم ان
لم يفقهم ولكنها عين الرضا عن اوائك يصدر السرقسطي عن منظورها
ولعل من الأمور النقدية الهامة في المقامة حملة الكاتب على الشعراء
المحدثين ، بل واضرايه في البداية عن الحديث عنهم ، فيقول البطل
أبو حبيب لمسائله السائب بن تمام عندما سأله عن بشار : " . . . تخط
النبع بالغرب ، وتذكر العجم بالعرب ، دعني من المحول ولا تسألني
الا عن الفحول " ١ " ولعل السرقسطي في هذا كان يقلد قدماء النقاد
الذين كانوا يتحرجون من رواية شعر السحدثين والمولدين ولو كان حسنا
لملة الحدائث فقط ، ولكن السرقسطي عاد وتسامح في ذكر المولدين
فبدأهم ببشار الذي قال عنه " ٢ " " حرم فصاحة الأعراب ، ولم يفطر
على الاعراب . . . " وصريح الفواني " ذلك الفارس المعلم ، اول من
حبر ونمى ، وعلا ذروة الابداع وتسمن ، خف الى الصباية وأسرع حتى
صرعه ماصرع . . . " وهكذا يمضي معهم فيذكر أبا نواس ثم الطائيين حتى
يصل الى مهيار الديلمي ولا يتجاوزه الى ما بعده ليذكر أهل عصره
وكانه لم يرفيهم من يستحق الذكر فقد طلب منه راويته السائب ان يذكر
أهل العصر " فقلت لملك ان توليني صبرا ، وتوسعني من أهل العصر
خبرا وخيرا ، فقال لي : ياسائب خذ العفو ولا تكرر الصفو " ٣ "

والملاحظ على نقد السرقسطي أنه لا يأتي بمفاهيم جديدة أو احكاما
نقدية مبتكرة أو عميقة فهو قد اتكأ على سابقه من النقاد فجاء بتلك
العبارات المشهورة التي قالوها في حق الشعراء وزخرفها داخل اطراف
من السجع الملتزم .

-
- (١) نفس المصدر : ورقة " ٤ " .
 - (٢) نفس المصدر السابق والورقة .
 - (٣) المصدر السابق : ورقة " ٧٦ " .

وفي المقامة الاخيرة نجد السرقسطي يعقد مقارنة بين النظم والنثر فلا يأتي بجديد أيضا وانما يصف كلا من النوعين الأدبيين بأوصاف عامة لاتمس الجوهر كقوله عن الشعر : " فالشعر أصعب مرتقى ، وأعذب منتقى ، وأبدع لفظا ، وأسرع حفظا ، وأوسع مجازا وأنصح انجازا ، أقصر معاني ، وأنجد مباني ، وأوردى زندا ، وأزكى رندا ، وأجرى على اللسان ، وأجرى بالاحسان ، وأبعث للطرب ، وأذهب للكرب... وحسبك انه في العرب والعجم موجود ، وان كانت العرب قد استحقته بكرم الفاظها وقيامها عليه وحفظها ، وقد حكم الاكابر والاعاظم أنه معجز عن النثر ناظم ، وكم عجز عن النظم ناثر " ١ "

" أما النثر فعنان يرسل ويان ينسل ، وطريق يسلك وزمام يملك ، وحوض مورود ، وثوب مهروود ، وحمى مستباح ، واعتناق واصطباح ، تلاحق فيه البيطي والسابق .. " .

ثم يحاول أن يجد نوعا من المعادلة والمصالحة بين الشعر والنثر ، " فالشعر فحل عقيم ، وسفر مقيم ومبفض مردود ، ومعدنر مجدود ، وعلقتة النفوس علاقة ، وجعلته لآمالها سببا وعلاقة ، وان شابوه كذبا ومينا ، فقد أغضوا عليه عينا ، وانما حمده أوفر من ذمه ، وشهده الذ من سمه ، فمصرفه في الرذائل مردول ، وثانيه عن القصد ملوم معدول أما النثر فأنثى ولود وزند لاكاب ولا صلود ، عين شره وأم بره ، له موضع ومكانه ، وعزة واستكانة ، يحلو لي وير ، يلج في كل نان ، ويقدح بكل زناد ، باد حاضر ، وذابل ناظر ، هاجر واصل ، وناب فاضل " ٢ "

ولا نخرج بطائل من هذا البهرج اللفظي غير اننا يمكن أن نلاحظ من طرف خفي تفضيل السرقسطي للنثر على الشعر من

(١) المقامات اللزومية : ورقة " ١٢٠ " .

(٢) نفس المصدر والورقة .

قوله "١": "... والدر منظوماً أو منثوراً ، والحكم متروكاً أو مأثوراً ، وما يضر الدر ان لم تنظمه النواظم ، وقد فضله الاكابر والاعاظم ، فلا تفضل قائلاً على قائل الا بفضل فاضل وطول طليل .."

وبعد هذا العرض يمكن أن نقول أن الشكل المقامي قد لا يكون مادة أدبية مناسبة للنقد الأدبي وذلك يرجع الى طبيعة المقامة كجنس أدبي ، فهي مقيدة باطار الصنعة اللفظية والاسلوب المسجوع كما انها تتميز بالايجاز والتركيز بالاضافة الى المحافظة على العنصر الروائي المشوق .

اسلوب السرقسطي في مقاماته :

لقد سلك السرقسطي اسلوباً أظهر فيه قدرته على الاقتتان في الصياغة والبلاغة ، واستعمال أنواع البديع كالجناس والطباق ثم استعمال الحوار القصير ، وهو في كل هذا يقلد الحريري الذي كان يدوره يقلد بديع الزمان الهمداني ، وأود هنا أن أقف عند جزئيات الاسلوب بايجاز .

فمن حيث اللفظ :

السرقسطي أديب شاعر وناثر ، أتته اللفظة طبعاً وسليقة ، لذلك تسنى له أن يأتي بالمعنى البليغ في صورة رائعة ، وقد ساعده احساسه الشعري على تمييز الالفاظ الرنانة ذات الايقاع الموسيقي ثم هو نحوي ولغوي خبير بأسرار اللفظة وعمقيريتها ، فينتقي الالفاظ المناسبة للوضع المناسب ، فعندما يقف البطل يحكي طرقاتاً من مأساته - مثلاً - وكيف " سلب وطنه وابتز عطفه " نحسن بالتأثير القوي في

(١) المصدر نفسه : ورقة " ١٢١ " .

استعمال لفظي سلب ، وابتز لما فيها من معنى القهر والتسلط ،
وهنا تسمو العبارة لتعبر عن الايقاع النفسي عند السامع ، وكل مقاماته
تقريبا نجد فيها هذا الاحساس بفعالية اللفظة من خلال الالفاظ . كما
اعتمد في اسلوبه المقامي على السجع الملتزم لزوم ما لا يلزم (اى التزام
حر في روى أو أكثر) فيورد سجعهم فقرا فقرا لها جرس وايقاع خاص
وهي أميل الى القصر منها الى الطول ، وهو في هذا الاسلوب يجتدي
اساليب المقامة الشرقية ، وخاصة عند الحريري والذى يدين للمعري
بالشيء الكثير ، وقد ألزم نفسه شططا في تسع مقامات هي : الثانية
والثلاثون والتي لزم في سجعها الهمزة ، والثالثة والثلاثون ولزم فيها
الباء ، وفي الرابعة والثلاثين التزم الجيم ، وفي الخامسة والثلاثين التزم
الذال ، وفي السادسة والثلاثين التزم النون ، ثم بني المقامتين
السابعة والثلاثين والثامنة والثلاثين على نسق الف باء ، والتاسعة
والثلاثين والاربعين على نسق أبجد . " ا " ، وهناك مقامات بني السجع
فيها على نسق خاص كالمثلثة وهي السادسة عشرة ، فقد بناها على
ثلاث سجعات ، والسابعة عشرة وسماها المرصعة لتقابل عباراتها
والثامنة عشرة المدبجة لتقابل كل عبارتين منها في ثلاث سجعات ، وهذه
المقامات هي أشد مقاماته تصنعا وتكلفا وفي ما عداها من المقامات فإن
السجع سهل ليس فيه تكلف وتعسف يحس به القارى ، وقد خلت مقامات
السرقسطي من كثير من الاستعراض اللفوى والالغاز والاحاجي . . .
التي كانت عند الحريري في مقاماته ورسائله .

الوصف في المقامات :

وهو من الفنون المقصودة في المقامات ويتراوح الاسلوب فيه
حسب الحال من موضع الى موضع ، والسرقسطي يفتن في اسلوبه
الوصفي كثيرا ، ويعني به عناية خاصة ، ولا تخلو مقامه له من وصف قل أو
كثر ، فقد وصف الرجال النساء والخمر والطبيعة والاماكن ومجالس

الأدب والسمر والفناء ، وأندية اللهو والمجون والحانات ، والفرس والدينار ، بل وعواطف الناس ، من حب وكره وحقد وغيرها أما الدهر والدنيا فقد استحوذا على جل وصفه .

ومن خلال الوصف يظهر الكاتب تـد المقامي براعته الانشائية واسلوبه الأدبي ، فمثلا يصف الطبيعة عندما يسأل عن موضع ما وكيف تركه فيخبر بأنه تركه " والكلاً حميم ، والنيت عميم ، من ارض صفت منها المشارع ، وضفت الاباطح والاجارع ، فتضاحكت الأزهار والانوار ، وتفايرت الانجاد والاعوار ، وتصاحب الانس والنوار ، وتآلف الفيزر والصوار ، ياله من مرتع خصيب ، وحظ لرايد نصيب . . " (١) ، ونراه يصف الفرس بجميع حالاتها فتارة نرى الخيول " ترتع هنالك وتسرح ، وتلعب وترح ، وتتمرغ في تلك الرمال ، ويتساقط ماعليها من ثفت ودمال . . وتسموا بأيديها سبحا وتعدوا نحيما وضحا ، والماء ينساب منها على الاكفال والتمون " وفي منظر آخر نجدها تستعيد مرها وتستوفي فرحا ، تتلاعب تلاعب الفرزان ، وتتدائسب تدائب الذويان والورلان ، والنسيم ينفذ اعرافها ، ويقيض أطرافها . . تتناول باجياذ كسحوق الليان ، وعيون كسحر البيان ، تنظر من أجمها وسروجها . . . والخير على نواصيها يشف والنجح على صياصيها يترف . . . " (٢) .

وفي مقامة الحمامة وهي الثالثة والاربعون "٣" نجد الكاتب يأخذ في وصف حمامة رآها في أحد أسواق فلسطين فيقول : " قبينا أنا أدور في بعض الأسواق ، ان ساورتني سورة الاشواق ، حين لمحت من بنات الاطواق ذات صوت شاج ، وقلب تواق ، قد ضم عليها القفص أغلاقه ، وألبسها الدهر أخلاقه " هذا من ناحية شكلها الخارجي وصوتها الشاجي ، ثم ينتقل ليصور لنا مايعتمل في نفس تلك الحمامة

-
- (١) المقامات اللزومية : الورقة "٤"
 - (٢) المقامة الفرسية : ورقة "٩٥ - ٩٦"
 - (٣) المقامات اللزومية : ورقة "٩٩"

السجينة من التشوف الى الحرية " . . . وتخشى القصاص ، وترجو
الخلاص من يد القصاص ، ولات حين مناص ، ثم تعود الى اليأس ،
وتأنس بالبوس أو الباس ، فتجرع من الذل أي كأس ، وغاسق
الاشجان في صدرها أي ماس ، فتميل جيدا خاضعا ، وخدا
واضعا وحتى اذا أسامها الضجر ، وجانباها الحجر والبصر لفت
رأسها في جناح واف وعانت بالقوادم والخوافي . . . تردد عويلا
ولا تقدر حويلا . . . " . وبعد هذا يأتي الفرج فتطلق الحمامة
فيصفها وقد امتلأت فرحا وحبورا بقوله : " . . . تملأت فرحا وزهوا ،
واستقلت في الجواستقلالا ، وأظلمت على الارض اضلالها . . . تروم
وتحلق وتمسك جناحا وتطلق . . . تنثر في الهواء درجا فدرجا ،
وتسلك في مصاعده ومراقبه مناهج وفرجا ، وكيف تسير وعر ، وتعطف
تارة وتكر ، وكيف تخرق الجو والخرق ، وتبارى السريح والريح والبرق ."

فالمقامات تظهر لنا الصورة المثالية للأدب الذي يعتد بها
ذلك العصر ، وهي المبنية على الصنعة اللفظية كتعميم السجع
وسيادته على اسلوب الاعمال الادبية وغير الادبية وغيره من محسنات
اللفظ ، والمحسنات البديعية كالجناس والطباق وغيرها بالاضافة الى
كثرة الاقتباس والتضمين من الآيات القرآنية والآثار النبوية والحكم والامثال
والاعتماد على حل الشعر ونثره وما الى ذلك .

وقد تعني القامة ايضا بابرار ثقافة كاتبها ، ولعل أصدق مثال
على ذلك المقامة النقدية ، حيث يدل الكاتب على عظيم معرفته بالشعر
والشعراء منذ الجاهلية الى قريب من عصره ، ويمضي معددا قصصا
وأخبارا يستقضي فيها التاريخ الأدبي والسياسي للام السابقة ، وهو
يرمي بذلك الى اظهار الماه بعمارف يبهر بها سامعه لينال الاعجاب
ومثال ذلك المقامة الثامنة والاربعون للسرقسطي وفيها نجد البطل
يتصدر حلقة يحدث فيها عن " عمرو وجاتم ويقول : ذهب الاجواد
وخرّ الاطواد ، ومضى اللباب وبقي الذباب . . . أين زهير وهم
أتى عليهما من الدهر السيل الصرم . . . اين ارباب العواصم اين قيس بن

عاصم ، ابن أولاد جفنة وملوك غسان ، ابن ماديح زياد وحسان ،
ابن ملوك كندة وهمذان ويمضي على هذا النحو ذاكرا طائفة من
الأولين وسيرهم وأحوالهم . " ١)

وكثيرا ما يحرص الكاتب المقامي على اظهار براعته في الشعر
مثلا أظهرها في النثر ، وقل أن تجد كاتبا مقاميا لا ينظم الشعر ،
لذلك تحفل المقامات بايجاد قدر عال من شعر كاتبيها مضمنا والقامسة
السادسة والعشرون مثلا تتضمن شعرا أكثر من النثر ، هذا ولا تكاد
توجد مقامة تخلو من شعر قل ذلك أو أكثر .

(١) المقامات اللزومية : ورقة " ١١٣ " .

الفصل الثالث

الموضوعات المقامية بين الشرق والمقامة الأندلسية

الموضوعات المشتركة :

أولاً : المحافظة على البطل والراوى والمقعدة : حيث نجد دائماً أحداث المقامة تدور حول رجلين هما البطل وروايته . وهما في الغالب شخصيتان خياليتان اخترعهما الكاتب ويطلق عليهما أسماء ، ربما تكون لها دلالة معينة يقصدها .

فهما عند الهمداني : عيسى بن هشام يروى عن أبي الفتح الاسكندري ، وعند الحريري الحارث بن همام يروى عن أبي زيد الصروجي ، وعند السر قسطنطين السائب بن تمام يروى عن الشيخ أبي حبيب كما يظهر معهما شخص آخر في بعض المقامات يدعى المنذر بن حمام وهو شخصية سلبية لا دور له في أحداث المقامة وإنما يتلقى الرواية عن السائب بن تمام ، فيقتصر على القول في أول المقامة " حدث المنذر بن حمام قال :

حدثنا السائب بن تمام قال . . . " ١ " . والملاحظ أن الراوى الأندلسي وطله لا يتجاوزان حدود الزمان ، بينما نجد راوى المقامة الشرقية يحل في عصور بعيدة من عصره فنجد الاسكندري مثلاً يحدثنا في مجلس لذي الرمة والفرزدق " ٢ " ، كما نجد أيضاً في مجلس سيف الدولة بن حمدان " ٣ " ، ونجد الصروجي

-
- (١) انظر المقامات رقم : (٢٤ ، ٣٤ ، ٩٤) من المقامات اللزومية .
(٢) المقامة الخملانية من مقامات البديع الهمداني ص ٤٧ .
(٣) المصدر السابق ، المقامة الحمدانية : ص ٢٠٤ .

أيضا في حضرة مالك بن طوق " ١ " ، ولعل هذا التجاوز يحدث شرخا في انسجام الأثر الفني ، ويؤثر في وحدة المقامات الكلية ، ويجعلها وحدات منفصلة . والبطلان يلتقيان بعدم التقيد بالبعد المكاني في مقاماتهما ، فيطوفان البلاد من أقصاها الى أقصاها ، وقد يتجاوز بطل الأندلس حدود العالم الاسلامي الى الصين والسند والهند " ٢ " ، والبطل المشرقي دائم الفخر ببلده خاصة ويضفي على فخره مسحة دينية قوية " ٣ " ، ولعله عندما يتحدث عن البصرة مثلا نحس وكأنه يستفيد مجد المرند ، وما كان لهذا الميدان من صولات أدبية منذ الجاهلية وحتى القرن الثالث الهجري تقريبا ، أما الأندلسي فعاطفته غائمة غير محدودة تتسع رقعتها لتشمل كل جزيرة الاندلس ، أما الوعظ والاتجاه الى الزهد عند كلا البطلين ، فهما كان رد فعل نفسي لما أصاب مجتمعي البصرة وقرطبة من أحداث جسام .

والصقفة لا تخرج في مضمونها عن الحيلة والكديعة بمختلف الأشكال والاساليب كالمعطاء تطوعا أو نهبا ، هذا المقامات الاخبارية عند الهمداني - والوعظ وما هو سلاح البطل البشار في اطار

(١) أنظر مقامات الحريري (المقامة السرجية) ص ٨٦ ،
ومالك هذا ومدوح أبي تمام الذي قال فيه :
يامال قد علمت ربيعة أنه ما كان مثلك في الأرقام أرقم
طالبت يدي لما رأيتك سالما وأنتيخ عن خدي ناك العظام
وشممت ترب الرحبة العبق الثرى وشفى صدأ البحر منها الخضم

انظر شرح مقامات الحريري ، للشريشي : ٣٧٥/١ ، وبين
المدوح والحريري بون شاسع في الزمن .

(٢) أنظر المقامات رقم ٤٧ ، ٤٤ ، ١٠٠ ، ١١٠ ، من
المقامات اللزومية .

(٣) مقامات الحريري (المقامة البصرية) ص ٤٤٢ .

من المواهب الأخرى من علم وبلاغة وتأدب وسرعة بديهة وخاطر عيسى نحو يدهش السامعين ويبهتهم . فالحدث المقامي يبدأ بعرض سريع موجز يقدمه الراوي مهيباً جمهرة المستمعين لما سيحدث ، ثم تصل ذروة العقدة عندما يبدأ البطل في التكدي والسألة ، ليسدل الستار بالتالي بعد حدوث الافادة وذلك بذهاب البطل جذلان ملان .

ثانياً : السخرية : وهي اما هادفة الى غرض سياسي أو اجتماعي أو سخرية مطلقة بغرض التفكه والاضحاك ، وخفة الروح ، وأكثر أنواع السخرية شيوعاً في المقامات هي التي تكون في ثياب المكدين يستوى في ذلك المقامات المشرقية والأندلسية ، فالبطل دائماً يسخر بالناس وبالمجتمع من خلال هزل المكدين وأساليبهم وهي في معظم مواقفها تهدف الى الكشف عن الفساد والخلل السياسي والاجتماعي والخلقي ، بل قد تأتي أحياناً سافرة لشعري كثيراً من القضاة والفقهاء المثلحفين بثياب الزهد والصلاح نفاقاً وزيفاً من أجل أغراض دنيوية .^(١) ولعل المقامات المشرقية امتازت بالتصوير الكاريكاتوري للشخصيات كالمقامة البغدادية للهمداني والتي رسم فيها شخصية السوادى الذى يسوق حماره بخطوط ضاحكة فكاهية ، والنيسابورية لقاضي البلد ، والحريرى في الرحبة امام والي البلد ، أما مقامات الاندلس فقد اقتضت على المباشرة فقدت شيئاً من خفسة الروح .

ثالثاً : الوصف : وصفت المقامات كل ما يقع تحت دائرة المشاهدة تقريباً فوصفت الرجال والنساء وأندية العلم والأدب ومجالس السمر والخمر وأنواع الأطعمة ووصفت النواحي المعنوية عند

(١) انظر المقامة الأصفهانية : للهمداني : والصنعانية للحريرى ، والمقامة رقم ١٢ ورقة ٣٠ ، للسرقسطي .

الناس كالبلخل والكرم والسماحة والشجاعة والجبن والصدق
والزيف . . كما أننا نجد مقامات بأكملها تعنى بالوصف عنائية
شديدة ، بل تتخذة غرضا لذاته . " ١ "

رابعا : البراعة اللغوية : حفلت المقامات كثيرا بإظهار براعة كتابها
اللغوية ، ومقدرتهم على تطويع اللغة من خلال معرفتهم
بنحوها وصرفها وعروضها وبلاغتها ، ليس في مجال الاسلوب
وزخرفه بل وفي معرفة قواعد الخطابة والشعر والنثر . وقد
غابت المقامات المشرقية في ذلك غلوا بعيدا ، فنجد فيها
مثلا مالا يستحيل بالانعكاس كالمقامة المغربية للحريري ،
والاستفادة من الاعجام والاهمال في الأحرف العربية كالمراغية
والسمرقندية والرقطاه للحريري ، والهمزية ورقة ٧٩ ،
والبائية ورقة ٨٢ ، والجيمية ٨٤ للسرقسطي ، هسندا
التكلف والتلاعب في اظهار البراعة اللغوية كان اسلوب ذلك
العصر فقد كانت البراعة اللغوية غرضا مقاميا يكتسب البطل
عن طريقه سمات حاسمة تجعله متفوقا على منافسيه .

خامسا : الحيلة والكدية : يلتقي اسلوب البطل المشرقي والانديسي
في الكدية ، فكلاهما يتكدي الناس بأسلوب بليغ يظهر من
خلاله أدبه وبلاغته كالمقامة الكوفية للهمداني ، والمكية للحريري
والمقامة ١٦ للسرقسطي ورقة ٣٩ ، ولعل أوضح ظاهرة فسي
الكدية عند البطل المقامي اجترأوه على سامعيه فهو منغ
شكواه من الزمن ورقة حاله لا يضعف ولا يهون ، بل يكون فسي

(١) أنظر المقامة المضيرية ، والخمرية ، والحمدانية للهمداني ،
والدينارية والبكرية للحريري ، ومقامات السرقسطي رقم ٤٣
ورقة ٩٨ ، ٤٢ ورقة ٩٥ .
وقد تجاوزت عن استشهاده للوصف في المقامات لكثرة
ما فيها منه والذي لا يحتاج الى تدليل أو نص عليه .

حالة من القوة والشموخ ، بل قد يصل به الحال الى نوع من التعالي
أحيانا كما في المقامة الجرجانية للهمذاني ، والكرجية للحريري ، والمقامة
٣٤ ورقة ٨٤ للسرقسطي ، فالبطل المقامي من خلال تكديه ، على
وعي تام بالناس وما جبلوا عليه من اخلاق وعواطف وغير ذلك فهو قد
ابتلاهم وخبرهم واتخذ موقفه بعد ذلك منهم عن تجارب مريرة كثيرة ،
لهذا لا عجب أن يقول الهمذاني في المقامة الاصفهانية : "١"

الناس حمر فجوز وأبرز عليهم وبرز
حتى اذا نلت ماتشتيه منهم ففروز

والحريري في الصنعانية : "٢"

لبست الخميصة أبغي الخبيصة
وأنشبت شصي في كل شيمصة
وصيرت وعظي أحبولصة
أربع القنيس بها والقنيصصة
وألجاني الدهر حتى ولجت
بلطف احتيالي على الليث عيصه
على أنني لم أهب صرفه
ولا نبضت لي منه فريصصة
ولا شرعت بي على مـورد
يدنس عرضي نفس حريصصة
وأأنصف الدهر في حكمه
لما ملك الحكم أهل النقيصصة

(١) ح مقامات الهمذاني : ٦٤ .

(٢) المقامة الأدبية : ٣ .

ويقول السرقسطي في المقامة الثامنة عشرة^١

انما الدهر يديع كله فلشعارضه باحدث اليدع
كلما أيدع دهرى عجيبا جئت بالاعجب أو بالابدع
من أشي الدهر بأف شامخ سوف يلقاه بأف أجدهع

والبطل المقامي يتكدي بالشعوظة تارة وبالاحتيال على الناس أخرى كما يظهر في المقامة الممانية للحريرى ، والمقامة ٤٩ للسرقسطي ورقمة ١١٦ ، أو باظهار مهارات مسغه كترقيص قرد أو دب كالقردية للهمداني ، ٤١ للسرقسطي ، ورقة ٩٣ ، وثالثة باظهار مهارات علمية وأدبية يفترق اليها الناس ، والبطل المقامي يستحدث الحكام والولاة وعامة الناس وسوادهم ، وفي هذا المجال لافرق بين المشرقية والأندلسية .

سادسا : الشعر : كان الشعر موضوعا أساسيا لفن المقامة نجده في كل مقامة ، حتى لو لم يكن المقام يقتضي قول الشعر ، يجيء به الكاتب كحكمة ختامية أو ملخصا لمغزى يرمى اليه ، بل أن الشعر قد يتخلل المقامة ليؤدى دور الحادثة والحوار فيها ويتميز هذا النوع من الشعر بالخطابية الدرامية . كما في المقامة الساسانية والبصرية للهمداني ، والنصيبية والاسكندرية للحريرى والمقامات ١٠ ، ١٩ ، للسرقسطي .^٢

ولعل البطل المشرقي تعدى المعرفة بالشعر حفظا ورواية السى معرفة أى بيت للعرب لا يمكن حله أو بيت سمح وضعه وحسن قطعه ، وأى بيت عروضه يحارب وضره يقارب ، وأى بيت لا يعرف أهله ، وأى بيت هو أطول من مثله على نحو مانرى عند الهمداني في المقامة الشعرية ولكن رغم ذلك تلتقي الشرقية بالأندلسية في معرفة البطل بالشعر ،

(١) ورقة : ٤٤٠ .

(٢) ورقة : ٢٥ ، ٤٧ .

انطلاقاً من مفهوم " أن الطبخ من لم يقصر نظمه عن نشره ، ولم يسر
كلامه بشعره " ١

سابعاً : الأحكام النقدية : حفلت المقامات في المشرق والأندلس بابرار
أحكام نقدية تحمل وجهة نظر مؤلفها ومذهبه الأدبي ، وهي
في معظمها صدى لعقليات نقاد العصر - باستثناء مقامة ابن
شرف القيرواني - التي حملت نظرات نقدية عميقة سابقة
لما عليه النقاد آنذاك ، وسواءً وقفنا عند مقامات النقاس
الأدبي في المشرق عند الهمداني كالمقامة القريضية أو في
الأندلس كالشعرية عند السرقسطي ٢ أو مقامة عبدالرحمن
ابن فتوح ٣ فس نجد فيها نقداً لا يحمل سمات محددة
لمذهب نقدي ولا يخرج عن الذاتية بعيداً عن الموضوعية
والتقنين .

هذا بإيجاز شديد ما اتفقت فيه المقامات التقليدية الأندلسية
مع المقامات المشرقية من الموضوعات والأساليب ، وأما ما امتازت به
مقامات المشرق فهو اشتغالها على موضوعات الفقه والعقائد والنحو
والأملاء والأحاجي والألفاظ . . . والتي لم تتناولها مقامات الأندلس ،
ولكن هناك موضوعات تناولتها المقامات الأندلسية التقليدية لم تعرفها
مقامات المشرق وأهمها :

أولاً : الحب العذري : كثير من مقامات الأندلس تدور عقدها
حول الحب والعاطفة المشبوبة المحرومة ففي المقامة الثالثة
للسرقسطي يدور الحديث حول فتى " أعطفت منه الصباية
لذنا ، و سحبت عليه ذيلاً وردنا . . . " هذا
الفتى المحب المعنى قد أشرقه بكاءً وأنين حتى بل محله
ورد ١ . . . وهو يبدى في انشاده ويعيد ، والترنم قد

-
- (١) المقامة الجاحظية ، للم زاني ، شرح المقامات : ص ٨٧ .
 - (٢) ورقة ٧٠ .
 - (٣) الذخيرة : ق ١ ج ٢ ، ص ٢٨٦ - ٢٨٨ .

أثر في جنبه والصميد :

حديث من بان يستعاد لو أن دهرًا مضى يعاد
ياربع قد كنت بي حفيًا والبيض تحميك والصعاد
ودونك الحي من سليم اللحم السبط والجمعاد
فأين سلمى وأين سعدى وما سليمى وما سعاد

وفي المقامة التاسعة للسرقسطي نجد الموضوع يدار حول وجد وهيام وحب ، فان عادة حسناء قد سلبت البطل له ، فبذل كل سبيل للوصول اليها ، وجرى بينهما في ذلك مكاتبات شعرية ظل البطل على أثرها يبرد بما اليأس منها جمر الأسي " أ " ، وأما المقامة الحادية عشرة فموضوعها يدور حول ابن عم البطل الذي " كانت له ابنة عم يهواها وثهواه ، وربما غشي ثواها وغشيت ثواه " ثم يتدخل في الحدث مانراه عادة في قصص الحب العذرى وما نستصم عن إقطابه وهو انكشاف الأمر : " وأحسن بذلك أهلها فتساوى بالقطيعة حزنهما وسهلهما " ، وكانت النتيجة أن " خالطه مس وجنون ، وغالبه من الحب ضروب وفنون ، وبقي كما ترون يتيه في الهلاك ، ويلهبوعن الطريق والتلاد ... " وفي مثل هذه المقامات لا يخفى علينا تأثر المقامة الأندلسية بأخبار الشعراء العذريين أمثال القيسيين وكثير وجميل ، ولعل هذه النزعة هي مرد تفضيل السرقسطي لهم على من سواهم كما ك أوضحنا سابقا ، ولعل هذا التأثر هو الذي جعل كثيرا من مقامات الأندلس تدور عقدها حول الحرمان في الحب وشدة وقعه على النفس المرهفة الشاعرة لذلك نرى المحب في كثير من المقامات يفضي الى المس والجنون أو يهيم على وجهه وما الى ذلك . وفي المقامة الثالثة والعشرين يدور الحديث حول فتى علق بابنة عم له " كان الحسن قد كساها جلبابه ، ورفع لها العز قبايه ، وألقى

عليها الظرف برودة ، ورواها النعيم و تبروده ، فما زالت تمنعني
منها الرسائل ، وتطمعني فيها الوسائل ، وتقربها الي الأمانى ،
ويحييني بها البرق اليماني ، وبحر الهوى يصب عبابه ، وتستحكم
علقه وأسبابه . " ولكن هذا الأمر لم يدل طويلا على حالة فسرعان ما تغير
عندما " فشا الحديث بها وظهر ، وغلب الأمر وسهر " " ففلفظ
الحجاب ، وارتفع الايجاب وان كيت العيون ، ولويت الديون ، وتنبه
الغيران " أما أسى المحب وجميعته فرده الى ان هذه
الفتاة " قد كان وعدني بها العم ، وساعدني فيها الأخص والأثم " .
ومما زاد الأمر سوءا - بعد أن جذت الحبال واثير بلبال ، واشتعلت
نار ، ورقع للقطيعة منار - ان اباه " مال بيها الى بعض القرباء " ،
وليت أنه من القرباء ، فعند ذلك اشتد المرح ونكا القرح القرح ،
وضرت هدف المستهام ، وغرضا للاوهام فخرجت على وجهي لا أدري
ما أصنع ، ولا أدفع عن نفسي ولا أمنع ،

ولا يخفى قتناثل هذا المقام وما نجده من اخبار مجنون ليلى وكيف
هام بابنة العم ، ثم حرم من قربها ، لانه شيب بها نزولا على التقاليد
العربية ، فهام على وجهه . ولعمل موضوع الحب في المقامة الاندلسية
يعود الى تلك الشخصية الاندلسية الرقيقة المكتسبة لرقتها من طبيعة
جزيرة الاندلس الغناء ، كما ان الجزيرة عرفت عناصر غير مسلمة لا ترى
حرجا في الاختلاط المحرم ، ولما كانت المقامات تنقد هذا الوضع رأت
في ضروب الحب العفيف البعيد عن الدنس اوقع عجاا لما فيه المجتمع ،
فتنسمت اخبار العذريين تنشرها وتلفت من خلالها المجتمع الاندلسي
الى تلك العفة الطاهرة التي سببها الوازع الديني القويم .

ثانيا : رثاء المدن : ومن الموضوعات الاندلسية البحتة أيضا رثاء
المدن ، والذي لم تعرفه المقامة الشرقية بهذا الوضوح عدا
مانجده للحريري من صوت حزين بانك كلما ذكر بلده سروج وقد
حل بها الاعداء ، ولعل كثرة الحروب والفتن في الاندلس
وما يخرب ويسقط من المدن من جراء ذلك كان هو السبب فسي

تناول المقامات لهذا الموضوع بتوسع ، فنقف مع السرقسطي عيسى القيروان (١) " وقد استولى عليها الخراب ، ونهبت بدولتها الأعراب ، فأغاضت حوضها ونحيرها ، وزلزلت خورنقها وسديرها " وبينما البطل المقامي مسافر علاج على تلك الاطلال وقد شفته الذكرى ، فذكر ان " كم ظعن بها طاعن ، وطعن في لبثها من طاعن ، وكم كان بها من خود شموع ، وشهم دموع ، وروض مهضوب ، وبتان مخضوب ، وجناب وحرم وفضل وكرم ، وسرح ونعم ، وعوارف ونعم . . . " (٢)

وبعد هذه الوقفة النفسية الآسية ، ما كان منه الا أن قرأها " عبرة بعد عبرة " وتأملها عبرة اثر عبرة مستوحشا لما " ان يطل فيها من مصون ، وغولب عليها من حصون ، وابيح من ممنوع ، وفسخ من مصنوع وحط من رفيع ، ورد من شنيع . . . " بعد كل ذلك لم يسع البطل الا أن يطلق وجده من اساره في الكون الكبير ، صارخا في بكاء ذاتي عميق يوحي باللوعة والمرارة والحزن وصدق الانفعال : " ياطلول أين الحلول ، وياربوع ، كم ذا الربوع ، ويا ديار هل فيكن ديار ، ويا وكن أين السكن . . آه من رجالك ، آه من فسيح مجالك ، أن من مصابك ، آه من ملاعبك . . . لقد لعبت بك الرياح التكب ، وعفا رسومك الجود والسكب ، لقد سحب عليك ذيوله ، وأجرى بواديسك سيوله ، وخيم بساحتك وأناخ ، واستوطأ المبرك والمناخ . . . " (٣)

-
- (١) دمرت القيروان سنة ٤٤٩ هـ على يد عرب الصعيد من هلاليين ورياح وغيرهم ، وقد عنيت هذه المدينة بمرثا خصاص في الأرب الاندلسي يقفنا عليه ابن بسام في الجزء الرابع من الذخيرة ، المجلد الاول : ص ٢٢٧ - ٥٢٨ .
- (٢) المقامات اللزومية : ورقة ٥٢ - ٥٣ .
- (٣) المقامات اللزومية : ٥٣ - ٥٤ .

ولعل صوت السرقسطي هنا يذكرنا بصوت البحتري في وقفته على ايوان كسرى حين اصابه البلى وذلك من حيث التصوير وحدة الانفعال والارتباط النفسي العميق بالحدث ، ويمكننا القول هنا أن المقامة في هذا الحال تؤدي غرضا شعريا صرفا الا انها لم تتوسع فيه توسع الشعر ولم تقتصد لذاته كما يفعل الشعراء .

ثالثا : الرحلة البحرية : موضوعات هذه الرحلة صلت باختصاص به المقامة الاندلسية ، ولم تعرفها المقامة الشرقية عدا ما نجده للحريري في مقامته " العمانية " حين ركب بطله البحر ، وللهمداني في مقامته " الخلفية " حين سافر بطله على مركب ، وفي كلا المقامتين لم يدر الحدث على البحر وما فيه بل هو ذكر عارض للبصر لم يوثق في عقده المقامه ، ولا يتخذ من البحر مسرحا لاهداثها .

اما البطل الاندلسي فجواب بحار يقص اعاجيبها ، وهنا تظهر تلك الشخصية الاندلسية التي عرفت البحر والسفن بحكم موضع الجزيرة الجغرافي ، فلا غرو أن حدثنا البطل عن " تلك البحور الزاخرة ، والسفن الماخرة ، والبحر المعجاج ، والماء الثجاج ، والاعراف الجون ، والفمران المظلمة ... " " ١ "

ومقامة السرقسطي البحرية يقفنا فيها على علمه بالبحر وما فيه حيث يقول " وان به لايات وعبرا ، الي مرافق ومنافع ، ومتالع من الرزق ومدافع ، فمن لولو ومرجان ، وقاطف من ثمره وجان قد من الله به علي عباده حين سخره ، وقدم ذكره وأخره ، وجعله مظنة لابتغاء خيره ومكانا ، وصير ما به الطهور وميته الحلال ، ودفع عن راكمه العي والكلال ، فالمرء فيه أبدا معتبر ، وعلى لأوايه مضطرب ... " " ٢ "

(١) نفس المصدر : ورقة ١٢ - ١٣ .

(٢) المصدر السابق ورقة ١٦ .

ولعل عنصر الرحلة البحرية كان عاملا هاما لما نجده في المقامة
الاندلسية ، من مخاطر عجيبة أو وقائع غيبية أو حوادث غير مألوفة فسي
قصة المقامة ، بل قد تنحونحو بعيدا عن الواقع جانحة الى الخيال ،
وتصير أقرب للقصص الخيالي منها للواقعي ، ومقامة السرقسطي "الصنقاوية"
مصدقا لقولنا بما فيها من حوادث خارقة للمادة تذكرنا بمغامرات
السندباد البحري .

هذه المقامة تدور أحداثها بارض الصين ، وهنا لا يخفى علينا
ما أرادته الكاتب من الايحاء بجو من الاساطير والاعاجيب لم يعرفه
أهل زمانه ، ومن ثم اختار مسرحه بمكان قضي لم تألفه الناس كثيرا ،
ويجلس البطل قاصا على جمهوره طرفا مما لقيه في رحلته تلك " ، ، ، ، فبينما
نحن كذلك اذا انسابت بنا تلك الارض ، واستدار بنا الطول والعرض ،
فطوبينا المراحل ورأينا الصحارى تمشي بنا والسواحل ، الى أن رأينا
البحر يسير الينا وتسير اليه ، ويعلو علينا تارة ونعلوا عليه ، تلعب
بنا أمواجه ، وتبعد عنا أحناءه وأضواجه الى أن ساخت في البحر سوخا
وبقينا في الماء بوخا ، فسبحنا سبحا طويلا ، واستنفذنا جلدنا وحويلا
الى ان خرجنا الى جزيرة عريضة ، ذات مراتب خصيبة ، وأرض أريقة
فأقمنا هناك رزايا طلايح ، وبقايا طوايح ، لا أبواب ، ولا أفكار ،
ولا عرفان ، ولا انكار ، لا ندرى ما الامر ، وما هذا العجب الامر الى
أن تراجعنا اليها ألباننا ، وتواصلت بعد التصم اسبانيا ، واستيقظنا من
تلك الغمرات ، وصحونا من تلك السكرات ، فعلمنا انه حيوان بحري أصغر
ثم أبحر . . . " وبينما القوم يلتمسون أسباب النجاة هبط فوقهم شيء
كأنه " السحابة الظليلة ، لها زجل وحفيف ، وخرق وزفيف "
وبعد ذلك يهربهم شيخ عابد فيتوجس منهم ان انه لم يشاهد أحدا مثلهم
في هذه الجزيرة ، ولكنهم يتمسكون به ويخبروه خبرهم ، فحمد الله على
نجاتهم حيث أن الذي حملهم في تلك اللجة لم يكن سوى " سلحفاة هذا
اليوم الزاخر ، وآفة الفلك المواخر ، كم هلك بها من هالك ، وسلك
على ظهرها من سالك . . . " ثم أخبرهم أن تلك السحابة التي حطت

فوقهم ماهي الا فرخ العنقا* وبدأ يحدثهم عن علاقته بهذا الطائر
قائلا : " الفيتة في هذه الجزيرة قد تملكه سفينة ، وتناهي لغبه ، وكانت
له أم تقوم عليه ، وتجلب الرزق اليه ، الى أن غالتها الغوايل
فرققته بيلى زقا ، ورقيته فترقى ، وهو يزورني في كل شهر ، ويمتعني
من محاسنه في أى روض وأى زهر ، فكم جلب الي من ماء النيل ،
وخصني من ماء نجلة والفرات بكل عذب فرات . . . "

وبعد ذلك بشر الشيخ القوم بالنجاة بعد أن أوصاهم سبلها على
ظهر فرخ العنقا* ، " . . . فاذا سكن وجثم ووكن ، فتدرجوا
على ذنابها انا أسليه ، واياكم واياه ان أسماه أو أقبله ، ثم اصعدوا
على زمكاه الى فقاره ، وتحفظوا من عطفة منقاره ، وسورة وقاره ، ثم
اعلقوا بأطراف ذلك الريش ، وكونوا من كتده على عريش حتى تنفذوا
كالسهم الريش " . وهكذا طار بهم فرخ العنقا* يطوى بطاها وسهوبا ،
ويعبر جبلا وبحارا وصحارى مارا على غابات وانهار . . . وقضى لهم
بالنجاة " .

الفصل الرابع

المقامات الأندلسية غير التقليدية

هذا النوع من المقامات أشبه ما يكون برسالة تقدم لأمر ما بين يدي شخص ذي نفوذ وسلطان على أمل نواله أو تحقيقه ، فنجد هنا تعالج موضوع المدح أو تصف الرحلة والتنقل داخل بلاد الأندلس ، وفي هذا الإطار تختص بموضوع المشاهدات في أحوال الناس وحياتهم ، أو هي رسائل تتحدث عن المغامرات ، والمناظرات بين مدن الأندلس ، أو هي عدة موضوعات ضمن الرسالة الواحدة فتشاول الرحلة والمسرح والوصف وما إلى ذلك ، وهي بعد تتناول موضوعات شعرية بحتة مثل الغزل والمدح والهجاء ، وعلى هذا فقد فقدت هذه المقامات الشخصيتين الرئيسيتين بها وهما الراوي والبطل الواسع الحيل الذرب اللسان ، صاحب المقدرة العلمية والأدبية ، الشاعر الخطيب الواعظ . . . التقي والماجن ، الهزل الجاد ، البائس التعس المكدي ، الساخر من مجتمعه في مرارة تشف عن خلل سياسي واجتماعي وخلقى . كما تفقد غالبا المجلس الذي تدور فيه أحداث المقامة ، أي أنها تفتقد وحدة المكان ، وبسبب ذلك لانجد في هذه المقامات ما نسميه بالعقدة ، أو الحدث الدرامي ، لان الموضوع أصبح يروى على لسان الكاتب نفسه ، وربما توجد فيها بعض العناصر الدرامية ولكن على قلة شديدة .

ومن هنا يمكننا القول ان هذه المقامات - بطبيعتها موضوعها -

بعدت عن الأغراض السياسية والاجتماعية ، ولذلك لانعدها ذات كبير وزن نقدي أو اصلاحي مثل التقليدية . كما ان طبيعة موضوعاتها أيضا بعدت بها عن عنصر السخرية الذي كان عماد المقامة التقليدية ، ولعل اهم شيء يخرج به الدارس لهذه المقامات ، هو الصورة الجيدة التي تعطيها للمدن الأندلسية كما تشف بعض الصور في الحياة الأندلسية

في مختلف وجوهها .

ويمكن دراسة موضوعات هذه المقامات على النحو التالي :

أولا : المدح :

وهي تؤدي في هذا المقام غرضا كان من قبل وقفا على الشعر ويختفي منها الراوي والبطل ليظل صوت الكاتب هو صوتهم معا ، ونقف هنا عند مقامة أبي عامر بن أرقم "١" في الأمير تميم بن يوسف بن "٢" تاشفين الحلائم المرابطي !

وتبدأ المقامة بقوله : " قال فلان بن فلان " وهذا الاستهلال كأنه احتفاظ بشخصية الراوي في شكلها التقليدي ، وكما كانت قصائد المدح تصور الرحلة إلى المدوح وماعاناها الشاعر من تعب ورهق ، فان هذه المقامة تسلك إلى المدوح نفس السبيل ، فنجد صاحبها يصف ماقيه من المشاق ، والمصاعب في رحلته إلى أرض المدوح حيث يقول "٣" : " ... فعجت الرواحل ، لا طوى المراحل ، أمل كعبة الآمال ، وقبلة الآمال ، فبيننا أنا أسير ، وقد لظى الهجير ، ولا قعيد ولا ناطح ، الا الآكام و الأباطح ، ولا سانح ولا بارح الا الآل والبارح .. " ثم يحاول الكاتب أن يستعيض عن

(١) هو ابن عبد العزيز بن أرقم وزير المعتصم بن صمدح صاحب المرية ، برع في صناعتي النظم والنثر ، وصفه صاحب الخريدة بالاستواء على سريرة الطك في البراعة ، والاستيلاء على ابداع الضائع بسر الصناعة / الخريدة : ٣٩٨/٢ .

وقال ابن بسام : ناظم ناثر ، بوادي آشي من عمل المرية ، لم يقع لي من شعره ما أجعله سببا لذكره / الذخيرة : ٤١٣/١/٣ ، النفح : ٤٩٩/٣ .

(٢) هو ابو الطاهر تميم بن يوسف بن تاشفين : جازالى الاندلس في حياة والده يوسف سنة ٤٨٩ ، ثم كان واليا عليها في خلافة أخيه علي بن يوسف وكان له جاد عظيم ضد النصارى ايام قائد هم ابن اردمير وخاصة في سنة ٥١٩ هـ . انظر الحلل الموشيه : ص ٧٧ ، ٩٣ المقامة كاملة في القلائد : ص ١٥٣ - ١٥٤ .

الراوى بشخص آخر يتدخل في مجرى الحديث قاصا شيئا منه ، فيشتم
الكاتب يسير على تلك الحال ، ان عن له شخص " يقربه زميل ونص ،
وانا فتى عليه بزه ، تشهد له بالعزة ، يركب وجنا كآسها سبيلكة
لجين ، قد أخلصتها يد القين ، ويجنب وهما تسبح سبحا ، وكأنها
ليل يبارى صباحا " ، ثم يوجد الكاتب حوارا بين شخصيات المقامة في
محاولة لايجاد نوع من الحركة الحيوية تكسب أحداث المقامة زيادة في
التأثير ، لذلك ما ان لنا ذلك الغريب من صاحبتا حتى " وقف
فطرف ، ووضع من لثامه ، وأوجز في سلامه " وهنا يفتتم الكاتب
هذه الفرصة ويرد عليه بسرعة ، وقد توقع فوته من الرجل ؟ فقال :

اني امرى لا يعترى خلقي دنس يفنده ولا أفسن
من منقر في بيت مكرمة والفرع يثبت حوله الفصن
فصحاء حين يقول قائلهم بيض الوجوه مصاقع لسن
لا يفتنون لعيب جارهم وهم لحفظ جواره فطن

وبعد أن يتم التعارف بين الاثنين تصل المقامة الى ذروتها وتسفر
عن غرضها الأساسي ، عندما يسأل الشاب كاتبنا عن وجهته فيخببره
بأنها غرناطه ، وبذلك يكون التخلص من الرحلة للمدح على نهج القوائد
حيث يكيل الشاب المدح لغرناطه متحدثا عما بها من نعم ورخاء
واستقرار ، وكيف لا تكون كذلك ، وقد أقام بها الأمير تميم بن تاشفين
فأضحت بجوده محط " السدى والندى والأجاد والأنجاد والاصراح
والانجاد والفرور والنجاد " ثم يختم ابن أرقم مقامه القصيرة
بأبيات من الشعر ليعادل بها ما محده به من النثر فيقول :

فتى الخيل يقتادها ذبلا خفافا تبارى القنا الذابلا
ترى كل أجرد سامي السليل تحسبه غصنا مائلا
وجرداء ان أوجست صارحا تذكرك الضبية الخادلا
اندا شنهن بأرض العدى يصير عاليها سافلا
ولم أدر بدر تمام سنوا ، يسمونه الأسد الباسلا
أقام العجاج سما عليه وأقسم أن لا يرى وافلا
ولم تصرف الهول هماته ومن يصرف القدر النازلا

ومن مقامات المدح أيضا مقامة الأديب ابن المعلم^(١) التي قالها في مدح المعتضد بن عباد ملك اشبيلية وهي تسير على نهج المقامة المتقدمة ، ولكن هذه اكثر التزاما بأسلوب قصائد المدح من سابقتها ، ان تبدأ أولا بشيء من الوقوف على الأطلال ، ويكاد لحظات السعادة الماضية في حنين مشوب ببرقة ولوعة ، يقول : " سقي عهدك أيتها الدمنة الزهراء في كل عهد ، وجان قطرك أيتها الروضة الفناء كل قطر ، وسال عليك من المعنى كل ملث هطال ، وتناوحت عليك من أضلعسي كل جنوب وشمال ، منتشرة أنوارك ، لا معفية آثارك ، ومهدية أرجك ونسيمك لا مغيرة أطلالك ورسومك . . . " ثم يحاول أن يجد له عقدة يدبر حولها أحداث مقامته فيتعرض حاله في اطارين :

الأول : حال سعادته واستقراره في خفض العيش .

والثاني : حاله الراهنة عند تبدل الأيام .

ولعلنا نحس هنا صوت بطل المقامات التقليدية عندما يذكر تقلب الأيام التي قلبت حاله تعسا وبؤسا ، يقول ابن المعلم :

(١) ابن المعلم : هو محمد بن عبد العزيز بن أحمد الخشني ، من أهل قرطبة ، سكن اشبيلية ، يكنى أبا الوليد ، كان اماما في فنون الآداب وصياغة الشعر وفك المعنى ، مقاما في الشعراء المطبوعين ، شديد التأثير بالأسلوب العربي القديم ، وله تواليف في الأدب حسان ، وهو أواحد وزراء المعتضدين عباد ، وأدرك المعتمد وتوفي سنة ٤٣٠ هـ ، واخباره قليلة في كتب التراجم ، فلا نكاد نعثر على شيء من اخبار أسرته ونشأته ، الا انه كان بارعا في التنظيم والنثر بحيث استطاع أن يثبت أقدامه في بلاط المعتضد الهانئ والحافل بالشعراء والكتاب . / أنظر ترجمته فسي : الصلة : ٥٢١/٢ ، جذوة المقتبس : ٧٠ ، بغية الملتصق : ٥٢٤ ، ترجمة رقم ١٥٧٢ ، الذخيرة : ١١٢/١/٢ ، الوافي بالتوفيات : ٢٦٢/٣ ، صلاح خالص ، اشبيلية فسي القرن الخامس الهجري : ١٢٠ .

" فكم لنا في واديك من بلهنية زمان آنيف وفي مغانيك من رفاهيية
عيش رقيق ، نعل بكأسي عتاب وأعتاب ، ونرتع في جنتي صبا
وتصاب ، غدونا من عشيق الي صديق ، ورواحنا من صيوح الوغيقوق . .
ورقيينا أعي وزماننا أعشى ، حتى اذا استيقظ الدهر من هجمته ،
وهب من غطيظ رقدته وسكرته ، ضرب فوقنا بجرانه ، وصرف الينا لهزم
سنانه ، ولبس لنا جلدة النمر ، وقلب لنا ظهر المجن ، وألقى علينا
بعاغه ، وطمس دوننا شعاعه ، مستردا ماوهب وأعطى ، ومكذرا
مانح وأصفي . . . فما لبث أن صدع مروتنا ، وفصم عروتنا ، وحلل
عقدنا ، ونثر عقدنا . "

ويعد هذه الحالة لا بد من الهجرة للبحث عن العيش الكريم ،
فيستشير أحد أصفياه في ذلك فينكر عليه ذلك ويثنيه عن عزمه ناصحا
له بقوله : " أرى أن لا تريم ببهيتك وأرومتك وأن توطن أرضك ولا تفارق
عشيرتك ، وأرباء بكك عن فضلات المنى ، وأعيذك من تبرهات لعل
وعسى ، فتحسب كل بيضاء شحمة ، وتظهر كل سوداء ترة " ولكن اذا
كانت الرحلة ضرورة وقدر لا بد من نفاذه ، فعليه " من الرؤساء بأحلم
الحلما ، ومن القرباء بأشرف الشرفاء ، ولا تفرنك المناصب ، دون
المناسب ، ولا المقول دون المعقول ، ولا الدراهم دون المكارم " وهكذا
يمضي في دروب الحياة فيخييب مسعاه وتصدمه الأيام حين وجد الناس
وأخبر ثقله من أمير لا أسميه ووزيرا أقحمت الواوفيه ، وكاتب أمي ، وقاضي
جبلي وآمة مبوره في قرية مصورة . "

ويعد أن عرض الكاتب بين يدي مولاه حاله وملاقاه من عننت
ورهنق ، يتخلص من هذه المقدمات الى الغرض الهام وهو المدح ،
فما يكاد رسول مولاه يقدم عليه حتى يخف اليه : " أتساقط من الجذل
وأعثر في دعاثر العجل مقبلا فاه ، وصاعحا زاه " ثم يمضي بمدح سيده
نثرا لاشعرا ، مسبطا عليه هالات من المحامد والمفاخر ، تارة يحلل
فيها أبيات شعر مشهورة ، وأخرى يسرد الأمثال ، مما جعل سيده
يمتلي زهوا ، ويستطير فرحا ، ويقوم اليه ويدنيه منه ويقبل عينيه

وكأنه نشر من قبر أو صحا من سكر " وما قال فيه :

" هو الامام الطاهر ، والكوكب الزاهر ، والاسد الخادر ،
والبحر الزاخر ، وأهوب الطوك للدخائر ، وأعفاهم عن الجرائر ،
وأرفعهم قدرا ، وأوسعهم صدرا ، وأطيبهم ذكرا ، أعطر من العنبر ،
في كل منبر ، وأفوح من المسك الذكي في كل ندى ، الحليم فيما
يفضب ، والجواد وما يرغب ، والشجاع وما يرهب ، والقوى وما يعتف ،
واللين وما يضعف ، والرفيق اذا ساس والمصيب اذا قاس . . . أكرم
من سبحان ، وأخذ عن لقمان ، بحر علم ، وطوبى حلم ، وعالم فسي
عالم ، الأضعني عنه ناقل ، والجاحظ عند مهاقل ، اذاركب ضاق
عنه الأفق ، وانا تبدى وسع الناهر ثدى ، وان نطق بين وصدق ،
وان كتب أبدع وأعرب ، ، "

واسلوب الكاتب مسجوع مزخرف - تشبها مع ميزات العصر -

الا أن امتلاكه لناحية اللغة جعله يعبر عما يريد بتراكيب متينة سهلة ،
كما ان كونه شاعرا أيضا جعله سجعنا زرين شعري .

وهناك أيضا من مقامات المدح مقامة الأديب أبي محمد بن مالك
القرطبي "١" خاطب بها المعتصم بن صامح أمير المرية . وقد ساق

(١) هو ابو محمد عبد الرحمن بن مالك : قال فيه ابن بسام : " كان
فردا من أفراد الشعراء والكتاب ، وسحرا من بحور المعارف والآداب
شق كمام الكلام عن أفانين النور والزهر ، وورفل من النثر والنظم بين
الأصال والبكر . / الذخيرة : ٢/١/٢٣٩ وكان من الأدباء
المتجولين المادحين . وكان كثير الشكوى من الفقر . حتى أعياه
ذلك ، فجعل يتحدث عن الغنى واليسار ، وقد عاش في
كنف ابن صامح بالمرية وبني هود أصحاب سرقسطة ، ولم تتحسن
أحواله ، الا بعد أن أصبح عاملا لأمير المسلمين يوسف بن
تاشفين وابنه علي . يقول فيه ابن خاقان : ولم يزل بما اعتقل
من الاصلة والنهي ، ينقل من سماك الى سهى حتى أقطعه
أمير المسلمين ماله بالاندلس من حصه ، وأقعد على تلك المنعصة
وبوأه المراتب واللائقة به المختصة . القلائد : ١٩٤ ،
وتوفي ابن مالك سنة ٥١٨ هـ . انظر : المغرب : ١١٧/٢ .
الخريدة : ق ٤ ، ج ٢ ص ٤٤٧ ، النفخ : ١٥٥/٢ ،

ابن بسام بعض فصولها في الذخيرة وقال "١": " اقتضبت لها لطولها ، وأشار الى أنها " تعرب عن حفظه كثير عند الكاتب " وأريد هنا أن أقف عند تحليل هذه القصول على فرض ان ابن بسام أورد ما حسب الترتيب في المقاطع . فمن نظرة شاملة للمقامة لانجد فيها مانجده في المقامات التقليدية من بطل وراو وعقده ، وحيولة وكديه وسخرية وما الى ذلك . بل انها تسلك مسلك قصائد المدح ، فتبدأ باستهلاك شعبي معروف في القصائد حين يستمخ الكاتب المدوح عذرا في مخاطبته ، شفيعة شفيعة في ذلك ان المدوح " ان تطلع - لا زال طالعا نجم سعوده - الى ثيابا من أثناء عبدة فاني انبئه ، ولا أنبيء الا حقا ، وأخبره ولا أخبره الا صدقا ، أما الأفتدة من بعده فمفوءوده ، وأما الأكباد لبعده فمكبوده ، والدهر من بعده ليلة ليليا . . . والناس جبلة دهما " . ثم تعرب المقامة عن فرح الكاتب وسعادة الدولة بفتح الامير ابن صامح لها " بشرى لنا ولد ولته الفراء ، وهنيئا لنا ولحضرتة الزهراء ، ففتح تفتحت له أزاهير النجاح ، وبشر تباشرت به تباشير الفلاح . . . " ونلاحظ تضاف الصور وتكثيفها وحشدها مع التتابع والتفرع والاستقصاء والبهرج والزخرف في الاستعارات والأوصاف . وهذه الظاهرة جعلت مقامات المدح تختص بصفاء الاسلوب وعذوبته ، صفاء وعذوبة شعرية ، بل وجعلتها تستعمل قاموس الشعر في الألفاظ والصور والاخيلة والتراكيب ، حتى تبدوا المقامة كأنها قصيدة منثورة ، كما يقول ابن مالك في ذكر انتصار " أميرة ابن صامح : " يوم هزله الزمان ثني عطفه ، وشمخ عزة بأنفه ، فالآن حين انصدع جون الهزيع ، من جون الصديق ، فوجه الزمان ضحيان مشرق ، وعود الدهر فينان موري ، والعيش غضة مكاسرة ، عذبة موارد ومصادره ، طاب كما لذت لشاربها الشمول ، وتضوع كما خطرت على الروض القبول .

ومقامة ابن مالك هذه تشبه الى حد كبير قصائد المدح عند المتنبي وأبي تمام ، فانها تظهر - كما كان الشاعران يفعلان - عظمة المدوح من

خلال مواقف في الحياة تختبر فيها النفس البشرية كالمشارك مثلا ،
فوجد ابن مالك يقف من مدوحه على يوم صعب من أيام الحروب التي
خاضها ، فيصف أولا المعركة وشدتها وصلابتها وصفا عاما حتى نستشف
من قوة وقعها قوة كل شخص يشترك فيها ، ولا سيما اذا كان ربط الجأش ،
ثابت الجنان غير عابي ، بأهوالها ونوازلهما مثل مدوحه فيقول : " . . لا تسمع
الاهمهمة وصهيل ، وقعقة وصليل ، فخلت الأرض تميل ميلا والجبال تكون
كثيبا مهيبا ، لا تعلم لأصوات تلك الغمام ، وضوضاة تلك الهمام ،
من وهواه صهيل ودراب طبول ، أزعيرليون بأجام ، أم قعقة رعد
في ازحام غمام ؟ فتزاحم في الأفق الهميم والهديد ، وتلاطم في الجواند
التنيم والوثيد ، فكادت الدنيا بنا تميد ، لا تبصر غير مطلة جأوا ،
وقوارة شهباء ، قد ضعفت التلال ، ودكدت القلال . . . " .

وفي مثل هذا اليوم الملتهب بلظى الحرب ، والذي تطير فيه
الأنفس شعاغا من الهول والخوف نرى المدوح في رباطة جأش وقوة
يهزأ بكل ذلك ، وهنا يكمن المدح الحقيقي في اطار من سهر أغوار النفس
الانسانية ، فان المدوح لما سفر وظهر لم يد ر الناس وهم في زهول يومهم
ذاك " أبرد الليل أم شمس النهار " بل ان غرة وجهه قد " جلت
غيابة ذلك القسطل " ، وهنا بيد والمدوح في وسط كل ذلك في صورة
اسطورية رائعة لبطل ملحمة علي ، ثم نرى ابن مالك يسلك مسلك المتنبى
وابي تمام - وبخاصة عندما كان المتنبى يرافق سيف الدولة في ميدان
القتال - في وصف عدد الحرب وعتادها ، فيصف لنا هيئة المحاربين
واستعدادهم لذلك الموقف " لكل قد أخذ عتاد اليوم للباس الشديد ،
يظاھر بالحديد على الحديد ، تلبب بالسابرية وتدرع وتعصب بالصقال
وتقنع حتى اليلاميق والدروع سواء ، وحتى المقلة النجلاء والحلقة الحوصاء
من كل مسرود الدخارص ، متألف دلامص ، كأنما جللته بحبكتها السحاب ،
أو خلع برده عليه الحباب ، أو غمس في ماء فجمد عليه الحباب " .

هولاء الفرسان بأيديهم السوام المرهقة التي تلمع كبوارق الجو

" لكنها ماهزت فبوارق ، وازا صبت فصواغق ، من كل ذي شطب . . .
ازا أصاب فكل شي " مقتل ، وازا خرف كل عضو مفصل ، أمضى في
الأشباح من الأجل المتاح ، غضب الحد صقيل ، يكاد اذا انتفى
يسيل ، ويكاد مبصره يغني عن الورد اذا اخترط من الفم ، مالم
يخله ريعان سراب في صحصحان بياب ، لاشتباه فرنده بحباب في
شراب . . . "

وهكذا يمضي في وصف السيف ، ومنه ينتقل الى وصف الخيل
بقوله : " فرأيت مقربات خيل يتخايلين تخايل المذارى الزود ، ويتهانين
تهادى المهاري القود ، فكانها يتوجسن عن أطراف أقلام ويتشاون عن
مقل آرام . فمن مبيض شطر كايضاه المهرق ، ومسود شطر
كاسوداء العوهق ، كأنما اختلس نصفه من الفلق ، واحتبس بنصفه الفسق
مقابل الخلق بين الشمس والقمر ، ومقسم السريال بين الجح والضرر . "

وقد أطال ابن مالك في الوصف بأسلوب مسجوع محلى بالزخارف
اللفظية والمحسنات البديعية بحيث استطاع أن يرسم صورة مثيرة للموقعة
فجعل القارى ينظر الى ذلك الغنير المدلهم ، تلمع من خلاله بوارق
السيوف بأيدي فرسان على ظهور جياذ شديدة الحركة . ولكن هذا
الاتباع الدقيق والتفريع للجزئيات كالوان الخيول وحركاتها ودقات قلوبها
وما الى ذلك جعل هذه الأوصاف تبدو أغراضا منفصلة عن المقامة .

ثم يقف الكاتب المقامي على فاصلة استراحة خلال هذه الحرب
وليخطب المدوح مباشرة ، فهو قد خاض هذه الحرب لعلمه : " ان
الداء يبرأ اذا حسم ، والخطب يستشري كلما قدم ، وأنهم ان تركوه في
اليوم كراعا صاروا في الغد ذراعا . . . " من أجل ذلك ولما يتمتع به
المدوح من رأى ثاقب يزن الامور في صحة وسلامة تدبير ، كان لابد
له من القتال ، فرمى الاعداء " ببدييات عزم كالنجم العواتم وماضيات
رأى كالسيوف الصوارم ، وآراء تصدع صفاة الجلمود ، وعزمات تنقب
في الصخرة الصيخود . . . "

والملاحظ ان هذه المقامات تحرض على تنوع الايقاع في العرض حتى يحيط الكاتب بأكبر قدر من جوانب شخصية المدوح ، فأننا نرى الى الآن رأيناه في حالة حرب وقهر ، ثم حالة تفكير واثزان ورجاحة عقل وهنا نراه في حالة عفو وتسامح " عفو كظل المزنة الممدوح ، وكرم كشط اللججة المورود " . ولولا هذا العفو عند المقدرة لباد الأعداء " كما بادت جيبس في وباره ، ولنضلت تلك المنازل نفل الجلد ، ومحت كما محت وشائع من برد . . . "

ومن هنا يتوجه الكاتب الى الناس محدثاً اياهم من الاعتزاز ، " بخلقه الفضفاض ، وكرمه الفياض . . . فالبحر قد تروى غواريه وليس بظام ، والعارض قد تصيب صواعقه وليس بركام ، والنصل قد يبرى وهو غير موئل ، وأين نار ليس لها شرار ، وأين خمر ليس لها خمار . . . ؟ " .

ثم يصور مدوحه بأنه يلبس لكل حالة ليوسها فهو " جذب وريبع معرق ، ليل ونهار مشرق فيه الصاب والعسل ، وفيه السهل والهيل ، له خاطر على خواطر الحوادث مرسل ، وطرف بأطراف البلاد موكل . . . " . وبعد ذلك يسلك الكاتب مسلكاً نفسياً في مخاطبة المدوح - كثيراً ما سلكه الشعراء في قصائدهم - فهو يبين ان بقاءه مع المدوح ليس للحاجة الماسة والموز ، ولا رهبة وخوف بل هو تدبير ورجاحة عقل فهو " ليس ممن سقط ، العشاء به على سرحان ولا كمن قال مرعي ولا كالسعدان . . . " فملازمة الكاتب لأميته اذن يسكن " حيث مد المجد رواقه ، بحيث يعتصر الندى من عوده ، ويرتشف صرف الجود ممن ناجوده ، فانتقيت الجارقيل المنزلة ، وبوات رحلي في المحل المبقل وزعت في أثر الغمام المسبل " .

فالمدوح نسيج وحده ، ولا تجود الأيام بمثله ، ولولا ذلك لكان للكاتب " في الارض العريضة مساح وفي أبناء الكرام منادح ، غير أنني عن أكثر المراتع عزوف ، ولا أكثر المشارع عيوف . . . " .

ثم نراه يمدح نفسه ويعظمها ليجسم من خلال تعظيمه لها عظمة المدوح فيقول : " واني لكالسيف ، لا يحمد كل من حمله ، وكالرمح لا يسر بكل من اعتقله ، وما كل عجيب في عيني بعجيب ، ولا كل غريب في نفسي بغريب . . . " ولكنه وجد طلبته عند مدوحه ، وجد مكانه اللائق ، به ، فليس غريبا ان يدعو على نفسه بعد هذا كله ان ينسيه الله رشده " يوم أنساه ، وأبدلنيه يوم استبدل سواه ماوصل وماقطع ، ورفاه واصطنع ، وماضرا او نفع ولئن أعقب يوما من الدهر بحرمان - وحاشاه - فلقد سبق بمحروف ، وان ساءني منه يوما فعله - وخلاه - فان اللواتي قد سررن ألوف . ولقد ألقى وده صدرى خلا من غيره فاستوطن وصادف قلبي فارغا فتمكن . . . "

ثم يختم المقامة بمدح تقليدي على نهج الشعراء كالتفني بالسماحة والكرم والندى وحسن الخلق وغيرها فيقول : " مارأيت وجهها أسمح ، ولا حلما أرجح ، ولا سجية أسجع ، ولا بشرا أهدى ولا كفا أندى ، ولا غرة أجمل ، ولا فضيلة أكمل ، ولا خلقا أصفى ، ولا وعدا أوفى ، ولا ثوبا أطهر ، ولا سمنا أوقر ، ولا أصلا أطيب . . . ما خص الله به ثالث القمرين ، وسراج الخافقتين وعماد الثقلين ، المعتمم بالله ذا الرياستين . . . واني وان أطنبت فأطبيت ، وأسهببت فأعديت ، لخجل أن يكون مثلي يثير غبارا على جبينه ، وينظم سوارا عن يمينه . . . " وفي المقامة تلهف الكاتب على نفسه ان قدمت به عن المشاركة الفعلية باللسان ، ومكتفيه باللسان ، ولكن هذا ليس لجبن فيه أو خور عزيمة ولكن بسبب " أفراخ كزغب القطا ، يدبون في نائلة عندي ديبب الكرى فيستشفون علالي ويستنزفون بلالتي . . . " ولو نال عطا ليوء من به حياة هوءلاء الصغار الضعاف " لامتنى من جداوة السابح اليعبوب ، وتقلد من نداه الصامم الرسوب ، واعتقل من عطاءه الصعدة السمراء ، وأدرع من حباؤه الفضفاضة الجدلاء ، فيصير هناك ملوكه ابن مالك ، يلاعب الأسننة كعامرين مالك ، فينظر أسن منظر ، ويبلو أفضل مخبر . . . "

ثم يأخذ الكاتب في مدح نفسه ليدفع قدرها حتى يرتفع قدر عطاء عطائه ، ولا غرو فهو : " رب القوائد والقنا المتقصد ، فطورا طعنا بالمثل وضربا بالمنصل وطورا ارتجالا بالخطبة الفيصل كخطبة قيس بن سنان ، في حمالة عيس وذبيان ، خطبة ثباري التريخ في هبوسها ، من لدن طلوع الشمس الي غروبها ، حضا على السلم والنجاجة ، ونهيا عن الحرب والمناجزة ، فلو شهر هنالك لشهد أمرا معجبا ، وأبصر خطيبا مسهبا ، فيرى شقشقة وقرما وصعبا ، يجنحهم الي السلم لما لما وثبا وثبا " .

والجدير بالذكر ان مقامات المدح لا تختص بالحكام والقواد وحدهم ، بل تتسع قمتها لتشمل رجالا من العلم والأدب والمعارف المختلفة وتمثل هذه النزعة مقامة أبي بكر يحيى بن محمد الأركشي " ١ " المسماة " قسطاس البيان في مراتب الأعيان " ونقف منها عند حديثه عن علي بن خلف الأنصاري " ٢ " حيث يقول : " فقيه عارف ، وحامل أدوات معارف ، وماهو الا زبدة زمان تمخض العصر عنها ، وروضة علوم تزوع القطر منها ،

(١) هو أبو زكريا يحيى بن محمد الأركشي : من حفاظ الأدب ، راوية أبي اسحاق بن خفاجة ، كان أدبيا كاتبا شاعرا ، ولد سنة ٥٠٧ هـ وتوفي مقتولا بداره في قرطبه سنة ٥٨٦ هـ . ولا تكاد كتب التراجم تفصح عنه . انظر المغرب : ٣١٦/١ ، الثكلمة : ٧٢٥ ، النفع : ٤٦٣/٢ .

(٢) هو علي بن خلف الأنصاري يكنى بأبي الحسن ، فقيه حافظ محدث زاهد فاضل أديب ، كثير الرواية والتأليف ، ذائع الشهرة توفي في حدود ٥٧٠ هـ . ومن مصنفاته : رى الظمان في تفسير القرآن ، كتاب الامعان في شرح مصنف أبي عبد الرحمن وغيرها .

تلتصق أشنائها من عنده وتقتبس ، ويفزع اليه كل ما اشكل منها
والتبس . ذهب في اقتنائها أهدي مذهب وأمتطى الي حاملها
صهوة الهجير الطهب ، حتى انتهجت له شعابها وانقادت الي فهمه
صعابها ، وما زال متبعا مساقط أثرها ، حتى روى من سلسيلها
وكوثرها ، فشيء ما عني به تشيدا ، وجوده اتقانا وتقييدا ، فظالموا
العلم والأدب ينسلون اليه من كل حدب فيقتبسون عيونه من عنده ، ويقتد حون
فيه وارى زنده . . . " ١ "

وواضح أن هذه المقامة لا تحمل من سمات المقامات غير اللغة
المسجوعة والأسلوب المزخرف .

والواقع أن ليس هناك ما يميز أسلوب مقامات المدح بسمات خاصة ،
فأسلوبها أسلوب العصر المطرم بالسجع كقول ابن أرقم فيما تقدم " لله أنت
فما أصون جارك ، واكرم بجارك لم تدب الضراء ، ولم تمش الحمراء " .
بالإضافة الى ما فيه من جناس وبأشكاله المختلفة وزخرف لفظي وصناعة
مع عناية نسبية بالأمثال وحل الشعر وتضمن معاني الأدياء والشعراء
السابقين كقول ابن مالك : " قاني وان كنت الأخير زمانه ، والسكيت
أوانه . . اني آتي بما لم تستطعه الأوائل " فهو معنوية المعرى
المشهور ، أو قوله " فلا غرو ان يفوق جميع الأنام . وهو من الأنام ،
فان المسك بعض دم الغزال " مأخوذ من بيت المتنبي :

فان تفق الأنام وأنت منهم فان المسك بعض دم الغزال " ٢ "

وقوله :

" كالغيث شؤبوا بشؤبوب والرمح انبوا على أنبوب "

نثر لقول اليحترى .

(١) الذيل والتكملة : ٢٣٠/١ .

(٢) ديوان المتنبي : ٢٠/٣ . شرح الكعبرى . ط بيروت ١٣٩٢ هـ

لا يحتفى خلق القضي ولا يرى تشبها في سوءه وبفريب
شرف تتابع كابرًا عن كابر كالرمح أنبوبًا على أنبوب "١"

وقوله : " فانتفيت الجار قبل المنزل ، وبأت رحلي في المحل
المقل ، ورثعت في اثر الفمام المسبل " نثر لقول أبي تمام :

بأأت رحلي في المراد المبجل

فرتعت في أثر الفمام المسبل

من مبلغ أبناء يعرب كلمس

أنى ابنتت الجار قبل المنزل "٢"

وقد أكثر ابن مالك خاصة من كتاب مقامات المدح حل الأبيات

الشعرية المشهورة مما جعل ابن بسام يعقب على مقاماته تلك بقوله "٣"

" ومد ابن مالك في رسالته هذه أطناب الاطناب ، وشن الفارة فيها
على عدة شعراء ، وكتاب ، من جاهليين ومخضرمين ، ومحدثين ومعارضين ،
ولو ذكرت من أين استلب واختطف جميع ماوصف ، وانصرف الى كل
أحد كلامه ، نثره ونظامه ، لحصل هو ساكتا ، وبقي باهتا . "

ولاشك أن المدح المبالغ فيه قد قعد بالمقامة عما كانت تمازجه

من طرافة الموضوعات المقامية التقليدية ، ولم يشفع لها محاولة كتابتها
تصيد الحوار من خلال الشعر أو محاولة ايجاد شخص آخر يشارك
في الحديث أو قاض يقوم بدور الراوى وما اليه ، ورغم ذلك ظل
الأسلوب مجال تفوقها الوحيد فحافظت على فن التصنيع وتأنف اللفظ
والاغراق في السجع والبديع كالجناس والطباق والاغراق في المقابلة
والموازنة وسائر أوجه البلاغة .

(١) ديوان البحرى : ٢٤٧/١ ، تحقيق حسن كامل الصيرفي ،

ط القاهرة ١٩٧٢ م .

(٢) ديوان أبي تمام : ٤٩/٣ ، شرح التبريزى ، تحقيق محمد عبده

عزام ط القاهرة ١٩٧٠ م .

(٣) الذخيرة : ق ٢ ج ١ ص ٧٥٢ .

ثانيا : مقامات الهجاء :

اختصت المقامة غير التقليدية بالهجاء اختصاصها بالمدح ، هجاء يأتي على أشكال متعددة ، تارة يسخر ويتفكه ، وطورا يفحش ويقذف . . . وهو في مضمونه لا يخرج عن رسالة سباب شخصي يروج الكاتب لانتشارها يصيبها في قالب مقامي .

ولعل المقامة المسماة " بالقرطبية " والمنسوبة الي الفتح بسنن خاقان " ١ " في هجاء البطلبيوسي " ٢ " أشهر مقامة هجاء في الأرب

هو

(١)

هو أبو نصر الفتح بن محمد بن عبد الله القيسي الأشبيلي ، أصله من صخرة الولد قرية على مقربة من قلعة يحضب من أعمال غرناطة ، اشتهر بابن خاقان لاتهامه بالخلوة ، وقيل انه لقب بذلك للنزاية عليه والتنقص والا فهى تعني الملك بالشركية . كان بارعا فسي البيان والأرب كأنما يفرف من بحر زاخر ، أو يقطف من زهر ناظر ، حسن صناعته وسعة براعة . قال فيه صاحب المطرب : كلامه في تواليفه كالسحر الحلال والماء الزلال ولكنه مخلوع العذار كثير الوقوع في الاعراض مما صده عن ان يكون علما من اعلام كتاب دولة المرابطين التي قامت على اساس الاسلام والجهاد وقد توفي ذبيحا في فندق بمراكش بعد أن خلى بأحد العبيد سنة ٥٢٨ هـ أو ٥٢٩ هـ ، وقيل أمر بقتله الأمير علي بن يوسف ، أخو الأمير ابراهيم ، المطرز باسمه كتاب القلائد ، ومن كتبه : مطمع الأنفس ومسرح التأنس ، راية المحاسن وغاية المحاسن ، قلائد المقيان ، ترجمة ابن السيد البطلبيوسي وغير ذلك . انظر : ترجمته في : معجم الصرفي : ٣٠١ ، وفيات الأعيان : ١٩٤/٣ المغرب : ٢٥٩/١ - ٢٦٠ ، النفع : ٢٠٧/٤ ، وغيرها .

(٢)

هو أبو محمد عبد الله بن محمد السيد البطلبيوسي ، نزيل بلنسية ، انتصب فيها للاقراء ، وكان عالما باللغات والآداب والعلوم القديمة ، له عدد من الكتب منها : شرح أدب الكاتب ، شرح الموطأ ، شرح سقط الزند وغير ذلك ، وكان مولده سنة ٤٤٠ هـ وتوفي سنة ٥٢١ هـ / انظر ترجمته : بغية الوعاة : ٥٥/٢ ، الدياج المذهب : ٤٤١/١ ، شذرات الذهب : ٦٤/٤ ، أزهار الرياض : ١٠١/٣ ، تاريخ الفكر الأندلسي : ٣٣٤ ، ترجمة حسين تونس .

الأندلسي ، ان أثارت حولها جدلا وتبرأ منها كل من نسبت اليه من الكتاب ، وذلك لما فيها من الفحش والاقذاع ، وهي تسلك في بنائها شيئا من أسلوب المقامة التقليدية ، فنجد فيها بطلا ذا مواهب أدبية ، شغوفا بالأدب وأهله ، يرتحل طالبا لقاء الأديباء والعلماء ، واسم هذا البطل علي بن هشام ، حيث يشد رحله مهاجرا من أرض الشام قاصدا بلاد الأندلس ، ساعيا للتعرف على علمائها وأدبائها ، فنسمع صوته في أول المقامة يقول " ١ " : " قدمت الأندلس من أرض الشام أجوب البقاع وأقرأ الأصقاع ، وأصاحب أهل الأدب والسنن ، وأجانب أهل الأهواء والظنن حرصا على الثلاث التي تزين الغريب وتنفي التأنيب والتشريب ، وقدما كنت مايشوفني الأديباء وأقول هم في الأوطان غرباء ، فلي في البلاد من هوهم نصيب ، وكل غريب للغريب نسيب . "

ويمضي في رحلته حتى يحط رحله ببلنسية (حيث يقيم البطل يوسني) ويهتبل البطل الفرصة ليجري قلمه في الوصف على سنن أبطال المقامات من قبله " وقبل ماوصفت لي بلنسية ببها ووسام ، وقيل لي هي ثغر الجزيرة البسام ، فأنخت بها الجمل ، وقد دانت الشمس الحمل وصدع القمرى وهدل ، وقام وزن النهار وفاعتدل ، فرأيت أرضا عليلة الأرواح ، ظليلة الأرواح ، صقيلة الجوانب مترعة المذانب ، تسلي عن أهل وأوطان ، وتجتذب القلوب باشطان . . " ولما استقر به المقام في هذه المدينة بدأ في مهمته التي رحل من أجلها يقول : " فسألت حينئذ عن حملة الأدب ونقلة كلام العرب " فدل علي " الشيخ السرى أبي محمد البطل يوسني ، علة العلل ، وشفاء الظمان من العلل ، مطاف الطلبة وامام الخالصة الحلبه . . . " ومن ثم يتوجه بطلنا قاصدا حضرة الشيخ عله يجد بساحته ماينسيه عناء سفره ، ولكنه قبل أن يحل بربيع الشيخ يلتقي في الطريق " بفتى له للألاء ورواء ، عامته بين الرجال لواء ، فرعه أفرع ، وجيده

(١) المقامة توجد ضمن مخطوط الاسكوريال رقم ٥٣٨ ، مج ١ ، ورقة ٢٢ - ٢٥ .

أطلع ، وأنفه ممطول ، وخلقه مجدول " ويساير هذا الفتى خديسن له واضح بسام تقرنك صفحته أقسام الكلام شعلق سر الحسن أسرته ، وتطلع بدر الم آزرته " ثم ينزل الفتيان بظل ظليل يتخذ ثان ، ويحسن بطلنا بأنهما قد وقعا في نفسه موقعا حسنا ، وصادقا من قلبه هوى وقبولا ، ومن ثم يتوجه اليهما ، مشاركا في المجلس ، فيليث جمعهم ذلك ساعة في مدارس الأشعار وانشأها " حتى اذا درس الأصيل وحنان من يومنا الرحيل سألتهما عن الشيخ الحليل " وهنا يتغير حدث المقامة ان يبدأ غرضها الأصلي ، ويتخذ الكاتب من الشابين شخصيات مساعده ليكسب الحدث النقي نوعا من التأثير من خلال ايقاع حركة الحوار المتبادل بين الأشخاص الثلاثة وهي - بلا شك - اداة أكثر تأثيرا في مجال التشويق والتركيز نجح الكاتب في استغلالها . وسؤال البطل عن الشيخ ينبرى أحد الشابين ليصف الشيخ بكل سوء وقبح وفاحش الصفات وأقذ عنها فيقول : " يأتي المناكر في كل ناد ، ويهيم بالعمة في كل واد ، لا يرجى له ارعواء ، ولا يأسو جرحه دواء ، تسود أعماله كلما اسود سباله ، ويشد قرمه كلما زاد هرمه ، يروم الزاجر قمعه فتمتلك المشهوة ناظره وسمعه . . . " ويمضي موردا ألوانا مختلفة من المثالب والمعائب في حق الشيخ فهو مدلس في عمله يتخذة أجبولة لأغراض خسيصة لم يردعه عن ذلك علم ولا دين ولا خلق فهو " قد جعل الدفاتر شركا وقال أنا البحر لا أعدم حركا ، راكبه راكب البحر المحيط ، وجايب صحراء الغبيط . . . " وحتى يعطي الكاتب المقامي قلمه انسراحا ليكيل سبابا جديدا للشيخ ينكر - ابتداء - قول هذا الفتى انكارا يستفز حمية الصدق فيه ، فيحاول أن يأتي بينات أخزى تضي على قوله صفة التصديق والقبول ، وهذا الأسلوب الذي اتبعه الكاتب له أثر نفسي هام استغله في اعطاء الهجاء بعدا أكثر تركيزا وحده ، ولما احس الفتى بان كبرياء صدقه قد جرح ، يستعين بصاحبه وخذينه ، ليقص على البطل (علي بن هشام) طرفا من مأساته مع الشيخ فيقول : " الشيخ علمني الكتابة وأمضني الكيا به . . ثم أرواني بالضرب والضرب ورواني الشعر والغريب . . . " كل هذا حسن لا غبار عليه ، ولكن

الشيخ لضعف خلقه ورقة له يهنا كان يرجو من ذلك ثنا آخر " قال لي
قد بلغت أشدك فامحص لي حبك وودك ، وادركت استواك يألف علي
موافقتي هواك . . " ثم يراود الشيخ الفتى عن نفسه . . . ويمضي الفتى
قاصا وقائع متعددة يدلل بها على ضعف الشيخ الخلقى ومجونه
وتهالكه على الملذات . . . " (١)

وما أن يسمع بطلنا بفعلات الشيخ المنكرة ويدرك حقيقة خلقه
وعلمه حتى يقول : " فلما ولج سمعي ما ولج ، وانبلج من أمر الشيخ ما انبلج
بالغت في الطعن ، وأمعنت في السباب واللعن واستخرت الله في
الظعن ويمت حضرة ابن معن " (٢) ، ثم قلت " ان ارضا يعظم شيوخها
وأدباؤها لحديرة أن لا يشرب ماؤها وأن لا يلمح أرضها وسماؤها ،
ثم أنشدت بلنسيه وقد وليت وأقسمت أن لا أطودها وآليت :

فما أضرب أهل العشق أنهم هسوا وما عرفوا الدنيا ولا فطنوا

وبهذا تختتم هذه المقامة ، وهي ان لم تزل مجهولة الأب والنسب،
الا أنها من أحواد المقامات غير التقليدية اسلوبا وتشيع بالحركة والاثارة ،
وان قعد بها الهجاء البديء الفاحش عن سمو الأدب وجلاله .

ورغم أنها نسبت الى الفتح بن خاقان الا أن الشك في نسبتها
اليه لا يزال قائما ، فلم يجزم أحد من الأدباء والنقاد قديما وحديثا
بنسبتها اليه . خاصة ان الفتح قد ألف كتابا مستقلا عن السيد البطليوسي
بالإضافة الى أن ترجمته للبطليوسي في كتابه قلائد العقيان " (٣) لم

(١) في المقامة أمثلة كثيرة تصلح للاستشهاد ولكنها تتضمن جملا
وتعابيرا والفاظا تجرح الشعور لما فيها من الفحش والاقذاع
انظر الورقة ٢٣ - ٢٤ من المخطوط السابق .

(٢) ابن معن : هو أبو يحيى محمد بن معن بن صمدح التجيبي ،
من ملوك الطوائف وكان صاحب المرية . أنظر أخباره في الدخيرة :
ق . ج . ٢ ص ٢٣٨ ، ط القاهرة .

(٣) ص (٢٢١) .

تغمط الرجل حقه بل وصفه بالفقيه الاستاذ شيخ المعارف وإمامها ، كما أن المصادر التي اطلعت عليها لم تذكر أن خلافا نشب بين الرجلين من قبل أو من بعد .

وقد نسيت هذه المقامة أيضا التي لدى الوزارتين أبي عبد الله بن أبي الخصال كاتب أمير المسلمين علي بن يوسف والذي استنكرها بدوره وثبرا منها في رسالة بعث بها إلى الحسن بن سراج ^١ واستهلها بقوله :

" ما كنت أشتم قوما بعد مدحهم ولا أكر نعمى بعد ما تجب " ويعتقد ابن أبي الخصال أن حساده وأعداءه قد دسوا عليه هذه المقامة البذيئة فيقول : " واني لبي بالسلامة من كاشح يفرى بي ، ويد ترميني من نحيث لا أدري ، تمنحني الفصاحة ضراما ، ويمنعنيها بردا وسلاما ان مرّ به ذكرى غمز وغمض ، أو ادعي لي منها حظ نفس ونقص " ثم ينفي نسبة المقامة إليه بقوله : " ... ما هذه المقامة الا قيامه حشرت الكرام وحاشت وما استثنت ولا حاشت ، أصابت وأشوت ، وصابت وأخوت ، وعمت لتخص ، وناجت لتعلن وتقص ، والمناجي لبيب ، وقد يؤدى من المقمة الحبيب ، اللهم طهرها من دنس الدعوة ، واجعلني فيها مستجاب الدعوة ، حتى نندعوها لأبيها ، ونتبع الأفسط عندك فيها " .

كما رد على هذه المقامة أيضا أديب آخر يسمى الوزير أبو جعفر ابن أحمد ^٢ ، وكتب رسالة تسمى : " الانتصار في الرد على صاحب

-
- (١) الحسن بن سراج : ستأتي ترجمته في الباب القادم ان شاء الله .
(٢) ذكره صاحب القلائد بقوله : كاتب مجيد ، وفاضل مجيد ، انخفض عن الأرتفاع ، ونفض يده من الانتفاع ، فلم يلح في سما ولم يرد مورد ماء ، وكانت له نفس عليّة تزهبها الجوانح والضلوع . . وما زال يفصّ بلايام وحالها حتى أضله الحمام .
القلائد : ١٨٨ ، الخريدة : ٤٤٢/٢ .

المقامة القرطبية " واستهلها بقوله " أيا " تبا لمن جعل رأس ماله
الخسران ، وأنفس خلاله البهتان ، يقرف بالمجال ويقذف عليّة الرجال ،
وينسب إلى الجلة النقصان ، ويغضب في أهل الملة الرحمن ، ويرضى
الشیطان ، فيقع في لحم أخيه سبعا ، ويرتفع فيما يخبره ضمنا ، كلامه
زور ونظامه فجور ، ونثاره كذب ، ومضاره لعب ، ان ذكر العلماء
أفحش أو وصف الفقهاء أوحش ، أو جلى الأخبار ثلث ، أو تلى الأخبار
قلب ، والقضاء عنده خدم سدنه ، والولاية ظلمه خونه والسياسة حباله ،
والرياسة أباله ، والخير ريا وسمعته والبر حيلة وخدعة ، له في كل
مصر مقالة وعلى أهل كل عصر استطاله وفي كل قوم صيد وفي كل يوم نشيد ،
قد طوق نفسه طارا وألحق بأهل الأدب شنارا " وهكذا تضفي
الرسالة على هذا النحو زامة كاتب المقامة وسلوكه الذي يخرج به عن
نطاق الأدباء ، وهي في ذلك تسلك سبيل الوعظ والارشاد ، ناهية
عن تتبع عيوب الناس ، داعية إلى الخلق الاسلامي القويم ، ان أن
الأولى بالمرء " أن يتأمل حال نفسه قبل تأمل سواه ، وينظر في خاصة
أمره قبل من سواه ، وأحرى أن يبدأ بتأديب اخلاقه ، ويأخذ في
تهذيب أطرافه ، ولا يركب مثل هذه الشنما في أهل الزمان ، ويرغب
عن هذه العوراء في الجماهير والأعيان " بل كان الأولى به
أن " يصرف في نشر مفاخرهم لسانه ، ويصرف إلى ذكر مآثرهم عنانه . .
حتى يودع جيد الدهر من ذلك قلاده ، ويجعل فضائلهم شهادته ،
ان كانوا أئمة الاسلام السموع منهم في الحلال والحرام ، والصناعات
المخصوص بالتقديم والتفضيل . . . وعساه لو جارا بعضهم في ميدان ،
أو باراه في محاوراة أو بيان لغة بكسيت الحلية ، وابتاخر المرتبة ،
فأضحى لا يطاولهم فترا ولا باعا ولا يكابيلهم مدا ، ولا صاعا ، فليست
هناته في هذه العورة ، وليقصر شباته عن هذه السورة ، وليكف من
عزب لسانه وليكف بالأمثل بمكانه فهو له أنفع ولقدره في الدارين
أرفع . . . "

(١) الرسالة كاملة في مخطوط " رسائل أدبية " بدار الكتب المصرية :

وهكذا تبقى هذه المقامة مجهولة المؤلف تكتنفها الشكوك والافتراضات ، ولكن الا يمكننا القول بأن الفتح بن خاقان هو الذي كتبها ونسبها الى الفقيه ابن أبي الخصال لغاية في نفسه أو للافساد ما بين الرجلين العالمين وبخاصة ان ابن خاقان كان على شيء كبير من سوء الخلق وفساد الدين والضمير ، قال فيه الرشيد بن الزبير "١" . " كان يضع من نفسه بشدة تبذله وكثرة تنقله وغضبه من ذوى الرتب ، واساءة الأدب على الأدب وتحليه من الخلاعة بما تعزف عنه نفس كل ذي عقل رصين واسفافه من الدنيا الى ما لا يرضاه أهل المروءة والدين " . وقال شيخه الصدفي في ترجمته له "٢" : " ولم يكن مرضيا وحذفه أولى من اثباته " كما يذكر المعزى ان القاضي عياض قد حد ابن خاقان في الخمر "٣" . فهذه الصفات التي تحلى بها الرجل تتفق مع ما جاء في المقامة من العبارات والجمل البذيئة المقدعة في الهجاء والفحش ، أضف الى ذلك ان ابن خاقان لم ينف نسبة هذه المقامة اليه ، حسب ما وصلنا من أخباره كما انه تعامل على ابن أبي الخصال في ترجمته له في القلائد حين قال عنه . "٤" : " . . . وهو وان كان خامل المنشأ نازله ، لم ينزل المجد منازل ، ولا فرع للعلاضيا ولا ارتشف للسناء رضابا فقد تميز بنفسه وتحيز من جنسه وظهر بذاته وفخر بأدواته . . . " .

وقد أشار الى هذا ابن الخطيب في ترجمته لابن أبي الخصال بقوله : "٥" . . . وعرضه العقور أبو نصر في قلائده " وأشد من هذا ما رمى به صاحب القلائد أمام علماء المسلمين في الاندلس المعروف بابن باجه أو بابن سينا المعزب حين تهاون بطلب الفتح

- (١) الخريدة : ق ٤ ، ج ٢ ص ٦١٠ .
- (٢) المعجم في اصحاب الصدفي : ٣٠١ ، ط : مدريد ١٨٥٨ م
- (٣) نفع الطيب : ٢٠٧/٤ .
- (٤) انظر ص ١٩٣ .
- (٥) الاحاطة في اخبار غرناطة : ٢٥١/٢ .

شيئا من أدبه ليضمنه قلائده فقال فيه : " هو رمد جفن الدين ، وكمد نفوس المهتدين اشتهر سخفا وجنونا ، وهاجر مفروضا ومسنوننا لا يأخذ في غير الأباطيل . . ناهيك عن رجل ماتطهر من جنابه ولا أظهر مخيلة انابه . . فكر في أجرام الأفلاك ، وحدود الأقاليم ورفض كتاب الله العلي العظيم ، ونبذ وراء ظهره ، ثاني عطفه ، وأراد أبطال ما يأتيه الباطل من يدين يديه ولا من خلفه . . . " . ولم يسع ابن ماجه عندما بلغه هذا الا ان ينقذ اليه ما طلبه مشغوعا بالمال ، فاستصلحه بذلك ، فألف الفتح كتابه مطمح الألف نفس وافتتحه بترجمة ابن ماجه مسبغا عليه أثواب الحمد والثناء ، واصفا اياه بالبدر الساطع وبرهان علمه لكل حجة قاطع .

والعجيب أيضا في أمر هذه المقامة ان البطليوسي الموجهه اليه لم يرد عليها ، أو لم أجد ردا له فيما قرأت من رسائل ومقامات أندلسية ، ولعله رأى الترفع عنها ، وتجاهلها أبلغ رد عليها والذي يبدو ان البطليوسي - لمسب غاب عنا - قد اختص بقدر كبير من عداة معاصريه ، ان نجد مقامه أخرى لمن يسمى بأبي الحسن المرسي (١) ، يهجو فيها البطليوسي ويذمه ، وقد اختار لها صاحبها عنوانا طريفا فأسمها " مقالة السوء الى أهلها أسرع من منحدر سائل "

(١) أبو الحسن المرسي : الذي يبدو أنه شخصية غير معروفة ، فلم أهدت الى ترجمته فيما رجعت اليه من تراجم ووجدت في البشيرة من اسمه علي بن محمد بن ديسم أبو الحسن المرسي ، روى عن أبي عبد الله بن حميد وأبي القاسم بن حبيش ، وأقرأ القرآن والعربية . . . مات ظنا ٦٢٣ هـ ، بينما توفي البطليوسي ٥٢١ هـ ، ولعل قول السيوطي ظنا تقرب الشقة بين الرجلين ، ان لم يكن غيره . أنظر بغية الوعاة :

ويبدو من المقامة ان البطلْيوسي قد أقام زنا بناحية العرسي هذا ورهطه ، ولما غادرهم بمد طول عشرة ومقام ، كتب اليهم كتابا يذم فيه محلة سكنهم ، وسوء معشرهم ، واجحاف ضماقتهم ، وتستهل المقامة بالحديث عن كتاب البطلْيوسي وما احتواه "١" وصل اليها أيها الشيخ البشري كتابك المحبر الموشى الذي أكمل نقائصك وعرض (.....) "٢" وعمت فيه وخصت ... ورأيانك قد أودعته ذم نواحيننا وأعلمت فيه بتحقير بوادينا .. " ويستفرب المرسي من دوافع هذا التصرف ويتساءل في اندهاش "كأورينا زندك فرميتنا ، وجزيتنا جزاء سنار .. " ومن هنا يتحسر على الذى كان على الجحود ، وضيعه الولاء والوفاء ، وقد كان أولى بهذا الشيخ ان يثنيه عن فعلته شبيه أو يصدده وقاره أو تحميه معرفته بالعلم أو طول تعرسه بالشرع والفقہ ، " أما آن لمشييك أن يرع ولقلبك أن يفرغ الى التوبة وينزع ، ما اكفرك للعشير وما أشد فطام الكبير .. " ثم ينبغي على الشيخ خسرانه ان لم يفده كبر ميلاد ، ولا تقادم سنن ولا وقار شيب ، ولا جدال علم ، ولا ساحة دين ولا معرفة حقيق " تا لله لو جنحت الى رشاد وبنيت اعتقادك على أسس وعماد لجزرك العمر ونهاك ، وأضأ لك الشيب طرق نهاك ، ولم تجعل سباب الناس ذريعة الى الاستخفاف بالشرعية ، لقد بان جور سبيلك ، ونهضت عروق تضليلك .. " .

وبعد هذا العرض لأصل المشكلة التي أوقعت سوء التفاهم بين الطرفين بتوجه المرسي بهجا وشخصي للبطلْيوسي فيذكر طباعه وأخلاقه ويعرى زيفه فيقول هذا الشيخ " فاسق يستمير حدية مخبت وناف للنهوة في صورة مثبت ، باعتبارات المله من نهي الأهواء المضلة ، وحرص مقول الاسلام عن موضع الفعل والكلام ، ويا للأنوار تقتبس من ظلما وتليس عن أمة لخناء ، ورياض ترتان في عذره ، ودرر تطلب

(١) المقامة موجودة بمخطوط الاسكوريال رقم ٤٨٨ ، مج ١ من

ورقة ١١٦ - ١١٨ .

(٢) بياض في المخطوط بمقدار كلمة ورقة ١١٦ .

في سباخ ديره " وليظهر للناس جور الشيخ وتنكره ، يقص علينا
ظرفا من أيام البطليوسي بديارهم " ايام ترفل في الكساء ، وتقراً
سورة النساء ، وتزين بخوطة البانة الملباس ، وتخضب الكف بحناء
الكأس .. فلم نسيت نزلها وقراها ، وضربت المثل بدناءة قراها
هلا (خدت) " ا " ذراها وسقبت بدمعك ثراها ورعيت عهود صباها
واستشفيت بنسيم صباها " .

وما نكاد نمضي مع المقامة قدما حتى يتضح لنا سبب عداة
المرسي والبطليوسي وندمة لديار الأول ، ذلك أن الشيخ لم يفاد
المرسي باختياره ، وانما طرد من هناك لأمر كان منه " وهبك
نفيت من أقطاؤها ، ومحيت من اسطارها ، وطردت عنها طرد الجرب ،
وجي على قميصك بدم كذب . أما تشوفك تلك السرحات ، أما تعطفك
تلك البكر والروحات ، ماحق الوفاء لتلك الأرجاء معارضة الذم والهجاء
أعد نظرا في عطف ذلك الزمان ، فان حسن العهد من الايمان .. " .
وتستمر المقامة على هذا النهج من التقريع والهجاء أعد نظرا في
عطف ذلك الزمان ، فان حسن العهد من الايمان .. " وتتستمر
المقامة على هذا النهج من التقريع والهجاء للبطليوسي حتى نختم
بذلك .

والواقع أن هذه المقامة أضعف من المقامة الأولى في التيارات
الفني لاعتماد مؤلفها المرسي على صوته وحده ، وبذلك لم نجد بها
أثرا للايقاع او الحوار والحركة ، فهي ثقيلة وقع عبء حركتها على
المؤلف وحده ، ولعل محمدتها الوحيدة سموها عن الهجاء القاحش
واستعمال الألفاظ البذيئة المبتذلة .

وهناك مقامة هجاء أخرى : مجهولة المؤلف ، وهي في ثلب من يسمى بابن الرياحي " ١ " ؛ ويبدو أن كاتبها من أهل العلم والفقهاء وليس من أهل الأدب ، لأن خطابه في المقامة موجه إلى رجالات الشرع والفقهاء ، والذي يتضح من المقامة أن ابن الرياحي هذا قد شغل في وقت من الأوقات مناصب هامة بالدولة ، وقد تجبر وتسلط على رقاب الناس مستغلا منصبه الرسمي ، ثم دارت عليه الأيام وجارت ففقد المنصب والشهرة والحماية . . . والمقامة في ومحصلها استعداد من الكاتب ، لينزل أمير المسلمين أوقع العقاب بابن الرياحي ، وقد افتتحها بخطاب أولي الأمر " أطال الله بقاء الفقهاء الجلة والوزراء العلية (باضرين) " ٢ " للأولياء منزحين عن سخافة الأغبياء والأوفياء

ثم يستنفر سماحتهم وحلمهم وسعة صدرهم على ابن الرياحي وأمثاله فيقول : " ولعمر الله إن حلم الفتي في غير موضعه جهل ، وإن أجدر الناس بالذم من هؤلاء أهل ، فالسفيه يهتضم الحلما ، والجاهل يناقر الفقهاء ، والوضع مغرى بانتقاص الأشراف "

(١) ابن الرياحي : لم أعثر على هذا الاسم فيما رجعت إليه من تراجمه ، ولكن أغلب الظن أنها في عصر المرابطيين فقد جاء في أحد فصولها " وسعيد النظر في أمرة أمير المسلمين " ، والمرابطون هم أول من اتخذ هذا اللقب في الأندلس ، كما ندرك منها أن ابن الرياحي كان يقيم في بلنسية لقول الكاتب فيها :

القد هانت بلنسية الخزايا
هوان المسك من تحت السلاح
إن الأوغاد تحكم في الرعايا
كفربان تحال على الجراح

المقامة في المخطوط رقم ٤٨٨ ، ج ١ ، ١١٤ - ١١٦ .
(٢) هكذا بالمخطوط السابق ولعلها (ناصرين) .

وهكذا بعد أن جذب إليه الأسماع واستأثر بالأهتمام الكافي من أولئك النفر ، يبدأ في قذف ابن الرياحي حما ، مبينا أي تنوع من الرجال هذا " الوغد الديني " ، والعي المجترى ، الجاهل المتغافل ، المبادر بالسفه ، التناكل عن الفضل المتناقل فلانا ، المضر للتحقد والنفاق الطارق عن جماعة الاتقاق ، الشهير المثلثب في الأقطار والآفاق ، التعاري من كل فضيلة ، المحتوي على كل رذيلة لم يستضي " بنور علم ولا أدبه ، وعشية ظلمات الجهل من كل حدب ، لم يسلك قط لاقتباس علم سبيلا ، ولا عرف لحديث تأويلا ، ولا عاشر نكيا ولا نذكر الله الا قليلا . "

ومما زاد الهجاء قسوة ان ابن الرياحي هذا مع جهلجه وسوء خلقه مغترا بما لديه معتقدا في نفسه " انه قد أتى بالحكمة الجامعة ، والحجة البالغة القائمة " ثم يري ان ابن الرياحي لم يصل الى هذا المنصب لعظمه أو فضله ، وانما هنو من المتسلقين الى ذلك ، فقد خدمته رياح مواتية عندما أصهر الى أحد الكرام ، وبذلك انتقل من خمول وضياح الى ذكر ومجد وصوله ، يقول الكاتب : (وذلك انه لما انتقل من سكن الخان والتصرف في النفاية بالنهر كاسة ، وعد وتعلق بسبب من حزمة الرياسة وتزيا بزي المشارف بعد التزيي بزي الغلام والحواسه ، وتظاهر الى ابن الكناس وتشبه بالناس ، وان كان أشبه الناس منهم بنسناس " وقد وجد ابن الرياحي زمانا مساعدا لتسلطه حينئذ انقلبت القيم وسادة دولة السفلى . " وأدرك وقتا نسخت فيه المعارف بالمناكر ونفقت سوق كل خائن وماكر ، وغارت نجوم الأشراف . . . " وفي مثل هذه الأجواء لا عرابة ان يجد ابن الرياحي وأمثاله سوقا نافقة " فليس ثوب الكبر والازهاج " ، وصعر خده ، واعتقد انه من ذوي الثيل والدهاء ، وأنه واحد من خواص البلد وأعيانه ، ونسج عصره وزمانه " ومن هنا ولكونه ليس أهلا لتولي مثل هذا المنصب أو يتسلم مثل هذه السلطة ، جاءت أحكامه جهلا وظلما وبعدا عن سنن العدل فكان " أعدى من الذئاب البرية ، يحكم أحكام الجاهلية ، ويفضل اضرار

المسلمين " ولكن دارت الأيام وتقلبت صروف الدهر فانكشف الزيغ
وأسفر عوجه الحق ، وعادت الأمور الى نصابها فدالت دولة ابن الرياحي
" وأكبل بالحديد ، وصفد كالشيطان المرید ، وأخذ منه بعض الثأر
بعد تخليد قبيح الآثار ، وحيل بينه وبين ذلك العمل ، وقطع منه
سبب الرجاء . . . فالأيام دول ، والحروب سجال ، وكل دهر له
حال ، وان كانت للباطل صولة فاللحق دوله . " ثم تدخل المقامة
في غرضها الاصيلي وهو استعداد الحكام على ابن الرياحي وصهره فيقول
صاحبها : " وسعيد النظر في أمره امير المسلمين : فيكشف صدور
قوم مؤمنين ، وحق له ان يوالي المظاهر ، بعد المصاهر ، ليتصل
المفاخر بالمفاخر ويقال كم ترك الأول للآخر . . "

ثم تختتم المقامة بقصيدة هجاء للرياحي تبلغ اكثر من ثلاثين
بيتا ، ولعلنا نحمد لهذه المقامة خلوها من الفحش والاقذاع في
القول .

والملاحظ على مقامات الهجاء ، انها لم تختص بعداء فكبرى
أو مذهبي او عقائدي أو ادبي يكون من اجله الهجاء والقدح ، بل هي
لم تخرج في مضمونها عن صراعات ، وعدايات ذات طابع شخصي ،
صاغها كاتبوها في قالب مقامي ، حتى تكتسب رواجاً اكثر لما لقالب
المقامة عند استغلاله من دور في تنوع الهجاء .

ويبدو ان المقامة تتصل بجاذبة ذات وزن كبير في التاريخ السياسي
الأندلسي ، ولكن عدم معرفتنا لاسم الكاتب ، والشخصية ابن الرياحي
الحقيقية ، اضعفت فرصة عظيمة في ربط هذه المقامة باحداث التاريخ
الأندلسي ومعرفة الظروف التي كتبت فيها ، وحقيقة الثورة التي
أطاح بها ابن الرياحي هذا فالمخطوط المذكور لم يذكر اكثر من " مقامة
لاحد الكتاب في ابن الرياحي " .

أما المقامات الغزلية ؛ فهناك أمثلة لها كالمقامة الأبرحية ،
او العياضة الغزلية ، لمحمد بن عياض "١" اللبلي ، وقد أورد منها
ابن سعيد "٢" جزءا يسيرا لا يمكننا معه الحكم عليها واستخلاص
خصائصها الا ان القطعة الباقية منها تدل على ان الغزل هو موضوعها
ومطلعها ؛ " قال ميزان الأشواق ومفيار المحبين والعشاق : نبت
بني معاهد الأحاب في ريعان الشباب ، لقينة أذكت نيرانها ، وألقت
بمسقط الرأس جرانها ، فأمتطيت الليل طرفا ، ومزقت السنان طرفا ،
وجعلت ألمسح الأرض نجدا ووهدا وأستطعم الآمال صابا وشهدا ،
كالعنز لا يستقر بمنزل ، ولا وجد عند رجله بمعزل ، اصعد من
خصور القيغان الى روادى الرعان ، وأنحدر من فنون الهضاب السى
بطون اليباب . . . " ويستمر على تلك الحال تقذف به صدور المشارق
الى أعجاز المفارب حتى يصل الى البلد الذى كان يكلف به ويعشقه
(. . . وكنت اكلف بالبلدة الحمراء كلف الكفى بالصعدة السمراء ،
وأحن الى جوارها ، حنين الناقة الى حوارها الذى اشتهر من حسنها
وطيبها وغميها ، واختيالها في حلق شربها وعضها " وكان ينشد من
ذلك " اعتلاق كل ظريف . . . والاصفاك الى نيا طريف " ويختتم هذا
الجزء من المقامة أبيات يتفضل فيها بمن أحب فيقول :

(١) هو ابو عبد الله محمد بن عيسى بن عياض القرطبي ، ويقال
اللبلي ، ولعله نزلها فنسب اليها ، وكان متقدما في الآداب
ولا حقا بافذان الشعراء والكتاب واليه تنسب المقامة العياضية
الغزلية ، ويقول ابن الأبار انه حدث بها (أى المقامة)
عن أبي زكريا يحيى بن حسان المرادى ، كما نبه على ان نسبتها
الى محمد بن عبد الرحمن بن موسى بن عياض المعروف بالمنتشى
والمتوفى سنة ٥١٩ هـ " غلط وانها للأول ؛ انظر التكملة :

٥١٥/٣ ، ترجمة رقم ١٤٠٦ ، وج ١ ص ٤٢١ ، رقم

٠١١٩٥

(٢) انظر المغرب في حلى الرب ، ٣٤٤/١ - ٣٤٥ .

عريد بالهجر والعتاب	نشوان من خمرة الشباب
طفا على ريقه حباب	فاحتجب الخمر بالحباب
أنكرت الاسقام طـرف	وأى سيف بلا ذباب
ان انا لاحظته تـوارى	من دمة العين في حجاب
ابصرته جدولا وورقا	من دمع عيني واتحابي
لم تستبق سلوة وجب	الا وطرف السلوك اسبي

المقامة الجامعه : وسميتها بذلك لانها تتناول موضوعات متعددة يصلح كل منها ان يكون مقامة مستقلة بذاتها وتمثل لها بمقاومة أبيي عامر بن شهيد^(١) والتي يقول ابن بسام انه حذف بعض فصولها لطولها وفي اولها يتناول صنعة الكتابة والكتاب لعصره ويرى " ان صناعة

(١) ابن شهيد : الاديب المشهور ، أبو عامر احمد بن أبي مروان ابن عبد الملك من شهيد بن اشجع وهي يطن من قبيلة غطفان العربية كان جده احمد بن عبد الملك وزير الخليفة الأموي الناصر عبد الرحمن الثالث ، وأول من تسمى بذي الوزارتين في الأندلس ، وولد أدينا في خلافة هشام بن الحكم بن عبد الرحمن الناصر . والأمريومثد بيد ابن ابي عامر الحاجب التذيى تلقب بالمنصور ، وعاش في كنف المهصور عيشة راضية فترة من الوقت عندما كان أبوه ندما له . . ذكره ابن بسام وبلالغ في الثناء عليه كقوله فيه " . . شيخ الحضرة المعظمي وفتاها مبدأ الغاية القصوى ومتهاها نادرة الفلك الدوار ، وأعجوبة الليل والنهار نظم كما اتسق الدر على النحور ونثر كما خلط المسك بالكافور . . " الذخيرة ١٩٢/١/١ . كما اثني عليه ابن حيان أيضا بقوله : " ولو تأملته ولسنه وكيف يجمر في البلاغة رسنه قلت عبد الحميد في أوانه ، والباحظ في زمانه " نفس المصدر السابق ، وقال فيه ابن خلكان " كان من أعلم أهل الأندلس " الوفيات : ١١٦/١ . وفيه نظر لانه عرف بقله الاطلاع واقتناء الكتب ، كما يقول ابن حيان / الذخيرة ١٩٢/١/١ وتوفي بدها عضال سنة ٤٢٦هـ انظر ترجمته : مطمع اه نفس : ١٦ ، معجم الاندياء : ٢١٨/٢ المغرب : ٧٨/١

الكتابة مخنة من المحن ومهنة من المهن والسعيد من خدمت دولة اقباله
والشقي من كانت رأس ماله زو والعاقل من اذا أخرجها من مثاليه لم
يدخلها في مناقبه " ١ " وسبب ذلك عنده ان هذه الصنعة قد " تناولها
يمد كثير من الشوق ، وطاعوها ببيع الخلق فسلبوها تاج بهائها ،
ورداً كبرياتها ، وصيروها صناعة يكاد الكريم لا يعيرها لحظة ، ولا
يفرغ في قلبها لفظه . . . " ويستمر في وصف الكتابة والكتاب واحوالهم
وواجباتهم في مراعاة الاحوال والظروف عند الكتابة فيقول : " والعاقل
من يبرز يوم السرور في زى الأعياد ، ويوم الحزن في ثياب الحداد ،
وسيان في الفجاجة والتبرد ، من جد عند الهزل أو هزل عند
الجد . . . " . ومن الواضح ان الموضوع هنا رسالة في الكتابة والكتاب
على نحو ما هو في المشرى عند عبد الحميد الكاتب وأضرابه ، ويتبعه
عن نهج المقامات كما تحدثت خصائصها في الأدب العربي .

ولكن عندما تنتقل الى موضوع آخر فيها ، نراها تسلك النهج
المقامي ، وترينا مشاهدات في الحياة والناس بالأندلس ، ونرى الريف
الأندلسي وقد احل الكاتب ضيفاً بمنزل يدوى ، ويقفنا من خلال
وصفه للبدوى على مؤثرات نفسية واجتماعية هامة فهو قد " هس ويش وكس
منزله ورش ، وصير عياله الى ناحية ، وجمع اطفاله في زاوية ، وجعل
يدور كالخدروف أمام الصفوف يتلقى الواحد منا بعد الواحد ، يأخذ بركابه
ويكشر عن نابه ويتمثل :

أخذ من كذا بركاب الضيف أنزله
ألد عندي من الاسفنج بالمسسل
أو من رقائق كانون طهوجة
أورائب بقرى جيد العمسل
أو من خوار عجول في سارحها
أو من ركوب الحمير الفزة في الكفل "

ثم تضي المقامة واضحة منازل الريف الاندلسي من الداخل والخارج ، فتحدث عن فن البناء والزينة داخل الدار : " ثم مال بنا الى بيت فكس ، منوع مجنس ، قد جلتل حصرا بلديه ، وغشاة بسطا بدويه ، ومد فيه شرائط وحيالا ، كأنه يريد أن يخرج خيالا ، وطق منها غلائل وملاجات ، والدوهمامين وسراويلات ، وكمم شئت من خرق معصفرة ، وعصائب مزغفرة ، حتى المقنعة والخمار والدلال المستعار . . . " فالمقامة هنا تقفنا على معلومات هامة من المنزل الاندلسي الريفي ، ترىنا كيف يزخرف ويزين ، وليس هذا فحسب بل " قد اتخذ في الحائط كوة وثانيه ، وملأها حقاقا وآنية ، وأوسعها من عتاد العروس فاخرة ، ومن طيب البادية أوله وآخره . ومن طيب البادية أوله وآخره ، مثل حراقة الورد بالبلان ، وعصارة العصفور بالزعفران ، وشيء من الاشهر ، والاستفندلج ومراود الزجاج وحببات المستكي واللبان ، وغبار الفوص وقشورالمرمان . . " ويظهر لنا هنا مدى ماكان للأندلسيين من شغف خاص وولع بالروائح والعطور ، وقد تعجب صاحب المقامة من كل ذلك وسأل مضيفه البدوي " ممن أين لليداوة بهذا الرونق والطلاوة ، ز وكيف حتى أغرت على حانوت المطار ، ومتى نقل سوق البزالي هذه الدار ؟ لقد قرت بك الأعين ، وسرت النفس ، هذا زى العروس ، فأيمن العرس " فيضحك البدوي وينشد :

يا أخي نحن على اننا نتاج بدوي
سادة نايي لنا في هذه الدنيا بدوي
عندنا ان جاء ضيف شبع جسم وري
وسرير حشوه ريب من الفراريج وطبي
وكسرامات كثيرات وهيثات وزى

ثم نلاحظ أن المقامة تعتمد من خلال الايحاء بالرمز الى شيء من المعاني السياسية ، وذلك عندما هم البدوي باكرام ضيوفه ، عمسد الى ديك هرم له ليدنحه ، ولكن الديك يحتج على الذبح قائلا :

" أيها السادة الملوك ، فيكم الشاب متع بالشباب ، والاشيب نور شيبه مع الكواعب والاتراب ، وقد صحبتكم مده ، وسبحت الله تعالى على رؤوسكم مرارا عدة ، أوقظكم بالاسحار ، وأوذن بالليل والنهار وقد أحسنت لدجاجكم سفارا ، وربيت لكم من الفراريح اعدادا ، فالان حين بلي في خدمتكم تاجي انعى الى دجاجي ، وتحنى الشفرة على اوداجي ؟ وحين أدركني الشيخ يمزق في لحمي ويطيخ ؟ يا للكرام ، من ذل المقام وجعلت دموعه تنسفخ من دمه . . . ثم غشي عليه ، فاجتمعت البداوة من كل ناحية اليه ، يضربون وجهه بالماء ويخلصون له في الدعاء ، ثم أفاق من غشية وأنشد :

علام يقتل شيخ	من كل ذنب برى ؟
محقق متحمر	موحد سني
هل نص هذا كتاب	او قال هكذا نبي
لا ذنب لي غير أني	موذن بدوي

وإذا علمنا ان المقامة مهداة الى الفقيه ابن الحديدى ، وهو رجل كان له دور بارز في التاريخ السياسي الاندلسي في عهد ملوك الطوائف ، فقد كانت دولة بني ذى النون في طليطلة ، تعتمد عليه اعتمادا كبيرا فقد قسم المأمون ابن ذى النون الحضرة قسمين وادار سياستها على رجلين ، فجعل تدبير الاجناد والنظر في طبقات القواد الى ابن الفرج وبقية الاصدار والايراء والنظر لجماهير الناس وكواف البلاد ، والرأى والمشورة الصغيرة والكبيرة الى الفقيه ابن الحديدى " ١ " ، وأوصى

(١) الذخيرة : ق ٤ / ج ١ ص ١٥١ (اخبار الحديدى مع

بني ذنون) .
ابن الحديدى : هو يحيى بن سعيد بن أحمد بن الحديدى ، من أهل طليطلة ، يكنى ابا بكر ، كان نبيلاً متفتناً ، فصيحاً مقدماً في الشورى ، كانت له مكانة عظيمة عند المأمون ابن ذى النون ، استثقله حفيد المأمون القادر بالله حتى قتل بقصره سنة ٤٦٨ هـ - الصلة : ٦٦٩/٢ ، المغرب : : ١٣/٢ .

المأمون حفيده يحيى الملقب بالقادر - والذي سيملك بعد ٣٥ -
" بأن يشد على ابن الحديدى كلكتا يديه ، ولا يفتات بأمر من الأمور
عليه "

وكانت مشيخة طليطلة تسعى للتخلص من ذلك الحفيد ، فوقف
ابن الحديدى في وجوههم وكشف عن دسائسهم في حياة المأمون
فعتب عليهم وأودعهم السجن جميعا ، فلما هلك المأمون (آل الامرالى
القادر هذا أخذ من بقي من تلك الحفنة يفرى القادر بالتخلص من الفقيه
الذى أنقذه ، وبالفعل أمر بنفيه من طليطلة ولم يسمع لنصيحة ابن
الفرج بأن يحفظ للحديدى يده ، فخرج " والدولة متعلقة بأذياله
وطبقات اعيانها عن يمينه وشماله والعامه بين يديه ومن خلفه يتسحنون
بآثاره " وبعد ذلك أمر القادر باطلاق سراح الناقمين على ابن
الحديدى ودخلوا البلد سرا ملثمين سنة ٤٦٨ هـ واستدرج ابن
الحديدى الى قصر القادر بواسطة صديقه الفقيه ابن المشاط الذى غدر
به وأحفا طبه أولئك الاشرار وقتلوه . " ١

" ولما أحست العامة بقتله وهمت بسلاحها من أجله ، ثار اولئك
المخرجون في وجوعهم ، أطلال في أسمال فأخذ كل واحد منهم بطرف
من الطريق ونذهب ممن كان هناك من العامة بفريق ، بين صديق لهم
يسر ، وعدو يفر ، وتشاغلوا بنهب دور بني الحديدى حين عجزوا
عن نصرته وعلموا ان لاسبيل الى كبرته . . . " ٢

فاذا علمنا هذا كله عن أهديت اليه المقامة عرفنا أن هذا الديك
الهمم المستباح الدم ، ظلما وعدوانا ما هو للاسمر . لفقيناهم
الحديدى ، ويوضح الكاتب قصده هذا حين يقول على لسان
الديك ، واصفا صاحبه البدوى ، وكأنه يصيف حفيد

(١) الذخيرة : ق ٤ ، ج ١ : ص ١٥٤ .
(٢) المصدر السابق : ص ١٥٥ .

المأمون يحيى القادر " لا أكذب ، الحق طريق مستبين ، واتباعه مروءة ودين ، أما انه لعل خلق عظيم ، كريم ابن كريم ، غير انه لوم في أمرى وأفرط ، وغلط ماشاء أن يغلط " ، ولعل هذا الربط للرمز في هذه المقامة بتاريخ الأندلس السياسي من خلال واقعة الفقيه ابن الحديدى ، يجيب على تساؤلات الدكتور احسان عباس حين وقف على هذه المقامة قائلاً : " وليس وراء مفهومها الظاهرى ، فيما أرى أية رموز أرادها صاحبها ، اما لماذا قدمها لابن الحديدى وهل لها من صلة بالمقدمة عن فن الكتابة وهل يمكن من سياستها كله استنتاج غاية وراء اظهار البراعة البلاغية فتلك اسئلة لانستطيع ان نجيب عنها " (١)

ثم تنتقل المقامة الى موضوع آخر يعنى بالوصف والتصوير واظهار البراعة وذلك عندما يكون المجلس في دار البطارىق ، وطمع الكأس والأبريق ، ف يأخذ في وصف هذه الدار وصفا دقيقا يتمتع السمع والبصر وكل الحواس حين تمتزج وتتداخل لتسير أغوار نفسية الكاتب الهائمة بالشراب والمذاقات المختلفة والمنطلقة من كل قيد ديني أو خلقى " فأصغيت فاذا بصوت ناقوس ، في دير قسيس ، وقرية آنه ، كلها حانة ، دار البطارىق سائمها الخنازير ، وحياضها المعاصير ، ومياهمها الأنهدة والخمور ، وشكلها مثلث مسطوح ، هندسة حوارىوا المسيح ، نباتها غطون من قدود ، تهتز في اوراق من برود . . . وفيها مدام من رضاب ، وسقاء من كواعب أتراب ، وغيد لمهوى القرط ، وارتجاج لكثب في مرط ، وجولان لنطاق ، وفصص لخلخال في ساق . . . ومكوب تكلف وتشغف ، ونفوس تنشأ وأخرى تتلف " والواقع اننا نحس شريظا متحركا من الصور المشربة بروح الواقع الحيوى الذى شهدته ، فلم يفانر صغيرة أو كبيرة الا وأبرزها ووقف عندها وتمتع بها ، ومن ثم لم يكن في هذا المقام - للمقامة من غرض سوى الوصف والتصوير واجادتهما .

(١) تاريخ الادب الاندلسي (عصر الطوائف والمرابطين) ص ٣١٠

ثم تضي القامة لتعالج موضوعا آخر هو " رحلة الصيد " ، ولا يكد
الكاتب يخرج في ذلك عن اجادة الوصف والتعبير مثل الموضوع السابق
يقول : " ثم أغدنا سيرا ، وكأننا ننفر طيرا ، حتى نظرنا من السائمة
شرح في مروجها ، كالمذاري تميم في نيايجها ، كالأضير ،
وما تميم ، ومازلت أروى هناك بالراشبولمين ، حتى كناد كيانسي
ينقلب الى كيان التيس " وبعد هذه المقدمة تبدأ غلطة الصيد والمطاردة
" ثم رحلنا وتذكرنا الطراد ، فحشت الجياد ، وتواثبت آسار ، واستعد
بباز وكلاب ، فاذا بحر من تبرك يخرقه سفين من برك ، وفي السبور
صقور اذا نظرت ، وليوث اذا جردت ، تنظر من أمثال الدنانير وتتخطف
بأشباه المرهفة الذكور ، فأرسلناها ارسال سهام الاحداق ، الى قلوب
العشاق ، فلم نر الا ريشا مخلوجا ، ومنسرا يحسن توديجا " وبعد
ذلك يتجهون الى عين ماء في رقة النسيم ولذاعة الخمر فيقضون يوما
خافلا ، بكل مالذ وطاب ، وينقش ابو عامر على مرمره بيضاء قصيرة
يخلد فيها حوادث ذلك اليوم .

وتنتهي القامة أخيرا بمشهد كأن أبا عامر أراد ان يتطهر مما علق
به من الأثام التي اقترفها ، بشرب الخور والنظر الآثم الى فتيان وجواري
الدير وما الى ذلك ، فالتقى بفتى هارب مستعمينا () من ظلمات
الفولية ، بنور الهداية ، ومن ذل عبادة الأوثان الى عبادة الرحمن " .
ثم يتوجه الى الفقيه ابن الحديدي . فيقص عليه قصته قائلا : " أيها
الفقيه للاشياء غايات تنتهي اليها ، ومقادير تجري عليها ، أما
والخلاق العليم ، والفاطر الحكيم ، الذي أسعد قوما بالهداية
وأثابهم عليها ، وأشقى آخرين بالضلالة وعذبهم بها ، لقد أنحلتني
عبادة الطواغيب فصعدت الصليب وقرعت الناقوس ، وفعلت كل ما قسرت
به عين ابليس ، قدر لم يكن ليخطئني ولا يتخفاني الى ان استنقذني
ربي وهداني " ثم يعلن اسلامه امام الاشهاد " وأنا اشهد ايها الاشهاد
أن الله اله واحد ، وليس له ولد ولا والد ، كان ولم تكن الاكوان لا أرض
ولا ماء ولا دخان ، مخترع الكل ومنشئه ، ومعيده ومبدئه ، له المثل

الأعلى ، والاسماء الحسنى

ولعل أهمية هذه الاغراض المتعددة في المقامة تكمن في كشفها لنا شيئا من تاريخ الاندلس في حوادث سياسية مثل قصة ابن الحديدى ، أو وصف الريف الاندلسي في منزل البدوى ، ورحلة الصيد بالاضافة الى بيان بعض عادات أهل البطالة في الاندلس كالنزول بالاديرة لشرب النبيذ بين الرهبان والقسس ومن حولهم ، ثم أوضحت المقامة ان كثيرا ممن العبيد كانوا يهربون من ظلمات الجهل ومن سيطرة اسيادهم غير المسلمين الى نور الهداية والعدل الرياني باعتناق الاسلام .

وبجانب ذلك لم تخل المقامة من نزعة العصر الفزلية الماجنة والتعلق بالمذكر ، فالكاظم يصف الشاب الهارب الذى يريد الدخول في الاسلام بقوله : " ذهب عقيق خديه ، ونم شاربه بالتذكير عليه ، متقلد حسام كأنما طبع من لحظة لا من لفظه ، على جواد ظمان الأسافل كخصريه ، ريان الأعلى كرد فيه ، تستعيد عيون البرزة من الشطر اليه وتزدحم اطماع الفجرة حوالبه .

ومثل هذه المقامات تنهج منهج الرحلات غالبا ، حتى يتمكن صاحبها من تنويع الموضوعات والتنقل فيها ، وكل مجلسه او موضوع ينتهي بلازمه شعريه على منهج المقامة التقليدية ، ومثل هذه المقامات كأن هم صاحبها أن يكتب مقامة واحدة جامعة ، تحتوى على عدد من الموضوعات فيتضح اسمه في زمرة المقاميين ، ويكتفى بذلك ، أما الاسلوب فلم يخرج عن اسلوب العصر بجناسه وزخرفته وسائر صنعتها .

الباب الثالث

الرسائل الأدبية في الاندلس

أنواعها ، وسمايتها

الفصل الأول

رسائل السخرية والمهزل ، والمناظرات ، ورسائل العاطفة ،
ورسائل الوصف

لقد كان القرنان الخامس والسادس الهجريان فترة ازدهار الأدب شعره ونثره في الأندلس ، حيث نجد حشدا هائلا من الشعراء والكتاب الذين أغنوا الأدب العربي بانتاجهم الأدبي . والذي يهمننا في هذا المجال الجانب النثري والرسائل الأدبية منه على وجه الخصوص لأنها هي التي تتناول موضوعات كانت قبل وقفا على الشعر كالسخرية والوصف والعاطفة وغيرها ، كما نقلت الى النثر أهم أدوات الشعر من خيال وتصور وغيرها ، فلذلك تخرج من دائرتها الرسائل السياسية لأنها تكون في العادة موجهة من السلطان لأداء مهام معينة فينحصر غرضها في جانبي الفكر والصيافة ، كما تخرج أيضا الرسائل الاخوانية لأن معظم غايتها يوجه للمناسبة التي صيغت من أجلها ، كالتهنئة والتعزية والشفاعة وما الى ذلك .

وبذلك نعد كل رسالة أدبية نثرا أدبيا ، وليس بالضرورة أن يكون كل نثر أدبي رسالة أدبية ، فلا يعدم الباحث العثور على نصوص نثرية أدبية خلال الكتب المولفة في شتى الموضوعات يمكن أن تدخل ضمن الرسائل الأدبية ، مثال ذلك بعض القطع الوظيفية أو الجدلية ، في كتب العقائد والفرق ككتاب الفصل في الملل والنحل لابن حزم . والذي يعتمد الجدل في الرد على الخصم بأسلوب أدبي كقوله " ١ : () وإذا أقرت المعتزلة أن أطفال بني آدم كلهم أولاد المشركين وأولاد

المسلمين في الجبهه دون عذاب ولا تقدير تكليف فقد نسوا قولهم الفاسد
أن العقل أفضل من عدمه ، بل ما نرى السلامة على قولهم وضمانها والحصول
على النعيم الدائم في الآخرة بلا تقرير الا في عدم العقل فكيف فارقوا
هذا الاستدلال ؟ وأما نحن فنقول : ان من أسعد الله تعالى من
الطلائكة فلم يحرصهم لشيء من الفتن أعلى حالا من كل خلق غيرهم ثم
بعدهم الذين عصم الله تعالى من النبيين عليهم الصلاة والسلام وآمنهم
من المعاصي ، ثم من سبقت لهم من الله تعالى الحسن من مؤمنني
الجن والانس الذين لا يدخلون النار ، والصور العين اللاتي خلقن
لأهل الجنة ، على أن لهؤلاء المذكورين حاشا الحور العين حالة من
الخوف طول بقايم في الدنيا ثم يوم الحشر في هول المطلق وشنعمة
ذلك الموقف الذي لا يقي به شيء الا السلامة منه ، ولا يهنأ معه عيش
حتى يخلص منه ، وقد تمنى كثير من الصالحين العقلاء الفضلاء ان لو
كانوا نسيا منسيا في الدنيا ، ولا يحرصوا لما عرضوا له على أنهم قد
آمنوا بالضمان التام الذي لا يخس ، ولقد أصابوا في ذلك ان السلامة
لا يعد لها شيء الا عند عقول الممتزلة القائلين بأن الثواب والنعيم بعد
الضرب بالسياط والضغط بأنواع العذاب والتعريض لكل بلية أطيب وألذ
وأفضل من النعيم السالم من أن يتقدمه بلا . . .)

وفي كتب التاريخ كالمقتبس من أبناء أهل الاندلس لابن حيان
القرطبي^١ المتوفي سنة اثنتين وعشرين وأربعمائة للهجرة ، والذي يعرج

(١) هو أبو مروان حيان بن خلف بن حيان ، ولد سنة ٣٤٠ هـ
في قرطبة ودرس فيها وكان أبوه من وزراء المنصور بن أبي عامر ،
شهد أبو مروان القضاء الخلافة الأموية في الاندلس وقيام دول
الطوائف وكان من أكبر المؤرخين لهذه الفترة ، ألف فسي
ذلك كتابا سماه " المتين " في ستين مجلد . وقد ضاع
هذا الكتاب ولم يصل اليها .

انظر : ابن بشكوال ، الصلة ، ترجمة رقم ٣٤٥ ، ابن الآبار :
اعتاب الكتاب : ١٩١ ، تحقيق صالح الأشقر ، دمشق ١٩٦١ م
نفع الطيب : ١٦٧/٤ .

فيه الأدب بالتاريخ مع الدقة والتفصيل في تسجيل الحوادث ، أنظر
مثلا الى القطعة التالية التي يتحدث فيها عن أولية ابن السقاء القرطبي
مدبر ملك بني جمهور ووزيرهم : ((كان أبو الحسن ابراهيم بن محمد
ابن يحيى المعروف بابن السقاء ، قد كابد من شظف العيش فسي
فناء سنة مالا شيء فوقه ، ان كان يحالج السقط بسويقة ابن أبي
سفيان في قرطبة ببضاة نزره ، وأعلى ما انتقل اليه عند اكداء تلك
الحرفة ، الاستخراج في جهة الاحباش ، وارثه عن والده محمد السقاء
وبأسبابها خدم القضاة ، وتعرن مع الفقهاء ، وهو يقات معيشتنه
مياومه ، ويأوى ليله الى بيت في دويرة والده محمد بجوفي المسجد
الجامع يحاضر فيه جماعة اخوة لا يجد بينهم الى مد ساقه سنبلا ، وماهو
الا أن حمل الأمانة على كاهله فوضعها أسفل رجله ، وتذكر عض الكلاب
لعصاه ، فتحول جرنا للسرقه والخيانة ، وابتنى القصور المنيعة ،
واقتنى الضياع ، الى أملاك لا تحصى كثيرة) (") .

كما نجد قطعا من النثر الأدبي في بعض الترجمات ، كما في
مقدمات ابن بسام في الذخيرة والفتح بن خاتان في كتابه قلائد
الحقيان . يقول ابن بسام في ترجمته لابن زيدون مثلا : " كان ابو
الوليد بن زيدون غاية منثور ومنظوم ، وخاتمة شعراء بني مخزوم ، أحد
من جرّ الأيام جرا ، وفات الأنام طرا ، وصرف السلطان نفعنا
وضرا ، ووسع البيان نظما ونثرا ، الى أدب ليس للبحر تدفقه ولا للبدر
تألقه ، وشعر ليس للسحر بيانه ، ولا للنجوم الزهر اقتراته ، وحظ
من النثر غريب الصاني شعري الألفاظ والمخاني . . . " .

كما قدم لابن شهيد بقوله : " ٣ " " كان أبو عامر شيخ الحضرة
العظمى وفتاها ، وهدأ الغاية القصوى ومنتهاها ، ويتنوع آياتها ،

(١) ص ١٣٠ ، تحقيق محمود مكي ، بيروت ١٣٩٣ هـ - ١٩٧٣ م .

(٢) الذخيرة ، ق ١ ، ج ١ ، ص ٣٣٦ .

(٣) ق ١ ، ج ١ ، ص ١٩٢ .

ومادة حياتها ، وحقيقة ذاتها ، وابن ساستها وأساتها ومعنوسى
أسمائها ومسمياتها ، نادرة القلك الدوار ، وأعجوبة الليل والنهار ،
ان هزل فسجع الحمام ، وأوجد فزئير الأسد الضرغام ، نظم كما
اتسق الدر على النحور ، ونثر كما خلط المسك بالكافور ، الى نوار
كأطراف القنا الأملود ، تشق القلوب قبل الجلود ، وجواب يجرى مجرى
النفس ، ويسبق رجع الطرف المختلس .

ويقول ابن خاقان في ترجمة ابن زيدون "أ" زعيم الفئة القرطبية ،
ونشأة الدولة الجهورية ، الذى بهر بنظامه ، وظهر كالبدر ليلة تمامه ،
فجاء من القول بسحر ، وقلده أبهى نحر ، ولم يصرفه الا بين ربحان
وراح ، ولم يطلعه الا في سماء مواسمات وأفراح ، ولا تعدى به الترواسم
والطلوك ، ولا تردى منه الا حظوة كالشمس عند الدلوك ، فشرف
بضائعه ، وأرهف بدائعه وروائعه ، وكلفت به تلك الدولة حتى صار
ملجج لسانها ، وحل من عينها مكان انسانها ، وكان له مع أبي الوليد
ابن جهور تألف أحرمًا بكميته وطافا ، وسقياه من تصافيهما نطافا ،
... الى أن وقع له طلب أصاره الى الاعتقال وقصوه عن الوخذ والارقال
.....

وقد قسمت الرسائل الأدبية التي استطلعت جمعها حسب الموضوع
الذى تناولته أوغلب عليها فكانت الأقسام التالية :

أولا :

رسائل الصخرية والهزل : وأشهر رسالة أدبية أندلسية فسي

رسالة ابن زيدون^١ "المسماة بالهزلية وموضوعها أن الكاتب أحسب الأديبه ولادة"^٢ بنت الخليفة المستكفي وقد نأفسه في حبها الوزير ابن عدوس^٣ ، وقد كتب ابن زيدون هذه الرسالة على لسان ولاده الى خصمه المذكور يسخر منه ويحقره .

- (١) هو : أحمد بن عبد الله بن زيدون ، ولد بقرطبه سنة ٣٩٤ هـ في بيت من بيوت أعيانها ، فأبوه فقيه من سلالة بني مخزوم القرشيين . درس الأدب والنحو والمخة ورواية الشعر على عدد من العلماء في جامع قرطبة الكبير ، وزر لابن جمهور ، ثم نسبت اليه مؤامرة على السلطان فأودع السجن حتى سنة ٤٤١ هـ حيث فر الى اشبيلية ، وتوفي سنة ٤٦٣ هـ - انظر ترجمته : الوفيات ١/٤٤١ ، الذخيرة : ق ١ ج ١ ص ٢٩٠ ، شوقي ضيف ، ابن زيدون : ١٥-١٦ ، .
- (٢) هي : ولادة بنت المستكفي بالله ، أديبة شاعرة ، جزلة القول حسنة الشعر ، كانت تخالط الشعراء وتساجل الأديباء ، توفيت سنة ٤٨٤ هـ / انظر الظلة : ٦٦٦ ، النفح : ٣٣٨/٥ .
- (٣) ابن عدوس : أبو عامر ، أحمد بن عدوس ، ولي الوزارة بقرطبه لم يترك آثارا أدبية ولعمله مدين بشهرته لابن زيدون فيما وجسه اليه من رسائل وأشعار . / النفح ٣/٢٦٨ ، ٤/١٠٠ ، ٢٠٧ ، ٢٠٨ ، ولم يخصه بترجمة ، وانظر ديوان ابن زيدون : ٣٠ ، تحقيق سيد كيلاني ، القاهرة ١٣٨٥ هـ ١٩٦٥ م .

تحليل الرسالة :

تسير الرسالة على تدرج زمني ينهي " عن بناء محكم دقيق ومتلاحق ،
فتبدأ بإشارات الى اشخاص من أبناء الأم القديمة كالنبي يوسف
- عليه السلام - حاسنك ففضضت منه ، وان امرأة العزيز رأته فسلت عنه ،
وان قارون أصاب بعض ما كرت ، . . . وكسرى حمل غاشيتك وقيصصر
رعى ماشيتك . . . " ، ويتبع ذلك بإشارات الى الجاهليين ككليب ،
والسليك ، وقيس بن زهير وغيرهم كثير حيث يقول : " . . . وكليب بن
ربيعة انما حمى المرعى بعزتك ، وجساسة انما قتله بأنفتك ومهلها
انما طلب ثأره بهمتك ، والسموءل انما وفى عن عهدك ، والسليك بن
السله انما عدا برجليك ، وعامر بن مالك انما لاعب الاسنة بيدك ،
وقيس بن زهير انما استعان بدهاك " .

ثم يأتي بعد ذلك بطائفة من العلماء والفلاسفة القدماء فيقول :
(" . . . وان هرمس أعطى لينوس ما أخذ منك ، وأفلاطون أورد على
ارسطاليس ما نقل منك ، وبطليموس سوى الاضطراب بتدبيرك ، . . .
وبقراط علم العلل والامراض بلطف حسك ، وجالينوس عرف طبائع
الحشائش بدقة حدسك . . . " .

ويتبعهم بعض المشهورين من علماء المسلمين : " . . . وأظهرت
جابر بن حيان على سر الكيمياء ، واعطيت النظام أصلاً أدرك به
الحقائق ، وجعلت للكندى رسماً استخرج به الدقائق . . . " .

وهكذا نجد فالرسالة ذات قسمين كبيرين :

الاول : يعني بالاشارة الى اشخاص متباينين في المنازل والافكار ،
والاتجاهات والمعارف .

والثاني : سرد للامثال كقوله : " فكدمت في غير مكرم ، واستسمنت ذا يوم
ونفخت في غير ضم . . . بل رضيت من الغنيمة بالاياب ،
تمنيت الرجوع بخفي حنين ، لاني قلت : لقد هان من
بالت عليه الثعالب وأشدت :

على انها الايام قد صرن كلها

عجائب حتى ليس منها عجائب " ١ "

ونجد الكاتب يربط بين القسسين ببراءة لشطهر الرسالة في وحدة متكاملة ، والسخرية هنا تابعة من اعطاء صورة الشخصية واحدة بقدرتها الاحاطة بكل هذه الاشياء المتقدمة ، كأنما اجتمعت فيها ضروب من المعرفة والمعرفة ليست بمقدور البشر .

الخصائص الفنية للرسالة :

يرمي ابن زيدون الواظهار صورتين متناقضتين تماما لخصمه ابن عيروس ، الاولى صورته الحقيقية ، والثانية ما يعتقد انه هو في نفسه فالاولى يمثلها قوله " ٢ " : " . . . أيها المصاب بعقله المورط بجبهله ، البين سقطه ، الفاحش غلظه ، العاشر في ذيل اغتراره ، الاعى عن شمس نهاره ، الساقط سقوط الذباب على الشراب ، المتهافت تهافت الفراش في الشهاب ، فان العجب أكذب ، ومعرفة المرء نفسه أهوب ، وانك راسلتني مستهديا من صلتني ماصفرت منه أيدي أمثالك ، متصديا من خلتي لما قرعت دونه أنوف أشكالك ، مرسلا خليلتك مرتادة ، مستعملا عشيقتك قواده ، كاذبا نفسك انك ستنزل عنها التي وتخلف بعدها علي " .

ولست بأول ذى حمرة ودعته لما ليس بالنائل

ولاشك انها قتلتك ان لم تضن بك ، وملكك اذا لم تضر عليك فانها أعذرت في السفارة لك ، وما تقصرت في النيابة عنك . . . " ثم يصفه بأوصاف حسية ومعنوية تسليه كل محمده ومكرمة مادية ومعنوية كقوله : " . . . كلامك تمتة وحديثك غمغمة ، وبيانك فهفهة ، وضحتك قهقهة ، ومشيك هرولة ، وغناك مسألة ، ودينك زندقة ، وعلمك مخرقة .

(١) انظر الرسالة كاملة مع شرحها في كتاب سرح العيون لابن نباته المصري ، تحقيق أبو الفضل ابراهيم ، ط القاهرة : ١٣٨٣ هـ

١٩٦٤ م .
(٢) سرح العيون : ص ٣ ، والكلام هنا على لسان ولاده بعد ان بعث اليها ابن عبدوس احد النساء لتستميلها نحوه .

ساو لو قسمن على الفوانيسي

لما أمهرن الا بالاطسلاق . . .

وتبلغ السخرية قممها بتناقض المواقف والتي تتبعها مثاليات
مضحكة تولدها مفارقات الموقف الكلي ، فالمهجو يظن نفسه فسي
الصورة الثانية كما يقول الكاتب : " . . . انك انفردت بالمجال ، واستأثرت
بالكمال ، وساستعليت في مراتب الجلال ، واستوليت على محاسن
الخلال . . . " هذا التناقض مدعاة للسخرية حين ترى جانبين للشخصية
الماثلة أمامنا : تارة نراها من وجهة نظرها مثلا للكمال واخرى من
وجه نظر خصمها مثلا للمعاييب والمساوي ولعل مرد هذا التناقض الى
المعجزات والحوالات التي يأتي بها الكاتب ان يقول : " . . . وانك
لوشئت خرقت العادات ، وخالفت المجهودات ، فأحلت البحار
عذبه ، وأعدت السلام " (١) رطبه ، ونقلت غدار فصار أسما . . . وزدت
في العناصر فكانت خمسا . . .
وليس على الله بمستنكر ان يجمع العالم في واحد . . .

ومثل هذه الرسائل تميل الى الحوار والجدال ، حتى تكون أقدر
على اظهار الصورتين المتناقضتين بالقاء أكبر قدر من الضوء على كل صورة
" . . . كيف رأيت لئومك لكرمي كفاء ، وضعتك لشرفي وفاء ؟ وانسي
جهلت أن الاشياء انما تنجذب الى اشكالها والطير انها تقع على
الافها ، وهلا علمت ان الشرق والغرب لا يجتمعان ، وشعرت ان
المؤمن والكافر لا يتقاربان أو قلت الخبيث والطيب لا يستويان . . . " . . .
والاسلوب عموما يقوم على سعة الثقافة عند ابن زيدون عن تمثيل بحوانات
ووقائع من الجاهلية . . .

(١) السلام : الحجارة الصابة .

" والله لو كساك محرق البردين "١" ، وحلتك ماريه "٢" بالقرطيين ،
وقلذك عمرو "٣" الصمصامة وحملك الحارث على النعامة "٤" . . . "٥"
هذا بجانب الاقتباس من القصص القرآني كقصة يوسف عليه السلام ، وقصة
قارون وأمواله ، وما إلى ذلك . بالإضافة إلى الاستشهاد بوقائع
الأمم الأخرى وضروب علمهم وثقافتهم ، وخاصة فلاسفة اليونان كإفلاطون
وأرسطو طاليس وجالينوس .

والأسلوب - بعد - مفرق في حل الحكم والأمثال " فالنار ولا
العار " و " تجوع الحرّة ولا تأكل بتديبها " بجانب تضمين الشعر
منثورًا ومشطورًا حتى صارت الرسالة معرضًا لثقافة كاتبها .

وهناك رسالة أخرى في نفس الفرض لمحمد بن مسعود القرطبي "٥"
خاطب بها ابنه لما توجه إلى الغرب وقد بلغه خلع عداؤه في البطالة
والشرب ؛

-
- (١) محرق ، هو عمرو بن هند ملك الحيرة ، لقب محرق لتحريقه مائة
من بني تميم ، ويقال : ان وفود العرب كانت عنده فأخرج بردين ،
وقال : ليقم أعز العرب قبيلة فليأخذهما .
 - (٢) هي مارية بنت ظالم زوجة الحارث الفساني ، اشتهرت بقرطيين
أهدتها إلى الكعبة .
 - (٣) هو عمرو بن معد يكرب الزبيدي ، اشتهر بشجاعته وسيفه الصمصامة ،
أدرك الإسلام وأبلى في الفتوح .
 - (٤) هو الحارث بن عباد التغلبي سيد وائل في الجاهلية ، والنعلمة
اسم فرسه . (هذه التصريفات منقولة عن سرح اليعمن :
ص ٤٣١ ، ٤٣٥ ، ٤٣٦) .
 - (٥) هو أبو عبد الله محمد بن مسعود القرطبي : قال فيه ابن بسام :
كان رحمه الله ظريفًا في أمره ، كثير الهزل في نظمه ونثره ، وأراه
فيما انتحاه ، ثقيل منهاج سميته وكنيته محمد بن حجاج بالعراق ،
فضاقت ساحتها ، وقصرت راحتها وأعياء الصريح فذوق ، ولم
يحسن الصهيل فنهق . الذخيرة ق ١ ج ١ ص ٥٤٩ .
وانظر ترجمته في المغرب في حلى المغرب : ١٣٤ / ١ ط
القاهرة ١٩٦٤ م .

وغرض الرسالة يظهر من عنوانها فهي سخريّة وتهمكم ممزوجة بالتقريع من قبل الأب لابنه المنصرف عن الجادة ، وصاحب الرسالة هنا يصور لنا ابنه بصورتين مبالغ فيهما ، الصورة المثالية والصورة الواقعية ، وحينما نماذج بين الصورتين تطالعنا تلك الصورة " الكاريكاتورية " الساخرة .

ولعل ابن مسعود يختلف عن ابن زيدون بإضافة الاسئلة المعجزة الى رسالته ، وهي ضرب من الاسئلة يعلم طارحها قبل غيره استحالة الاجابة عليها ، ولكن قصده من ايرادها ان يجعل من وجهها اليه اضحوكة ، فيسأله ان يصف له في رحلته تلك " مبيض العنقا " ، والفلاة الخرقاء يوم البلقاء ، والثنية الخلقاء ، ومرسى الزرقاء ، وايوان كسرى . . والهرمين والمنار ، وجبل اللكام والفار ، وغانه السودان وغرائب البلدان وفيفاء بني تميم ، والكهف والرقيم ، وحلق وادي الاشبونة ومدينة حيبونة . .

لقد اجترأت على الزمان وأهله

ولقيت كل غريبة شنعاء

وخرجت منها كالشهاب ولم تنزل

مذ كنت خراجا من الغماء " ١ "

والاسلوب اللغوي عموما يعني باستعراض ثقافة الكاتب بكثرة الاستشهادات والاشارات والمعارف العلمية والتاريخية والاسطورية كقوله : " ٢ " . . عليك يا بني بالشجرة الجامعة والليان ، من عيون ذوى الحسد والشنان ، فأين منك الحية النضاض ، وسليك بمن السلقة والبراض ؟ أو ما سمعت ان السفر الطويل ، يرد خشبة البند الى عويد قنديل ؟ صح عندي ان العسل في تلك الجهة غير منال ومنحط غير عال فتناول اقامته وتركيبه ، واتقن صناعته وتربيته " .

-
- (١) الرسالة في الذخيرة ، ق ١ ، ج ٢ ص ٥٥٠ - ٥٥١ ، والبيت الثاني لابي تمام . انظر : يوانه : ١٦/١ ، تحقيق محمد عبده عزام ، ط القاهرة ١٩٦٤ م .
- (٢) الذخيرة : ق ١ ج ١ ص ٥٥١ .

كما أن هناك رسالة لأبي عبد الرحمن ^١ بن طاهر يسخر فيها من بعض اخوانه وقد حضر محاصرة مدينة شاطية ^٢ ونلاحظ في أولها المظهر الجاد الوقور ، ولكنه يتضمن قدرا كبيرا من التهمك حين يقول : ^٣ " سيدى الأعلى وظهرى فى الحلى أطال الله بقاءك ، وأدام تمكينك وعلاك ، تابعت اليّ - أعزك الله - مطالعتك الكريمة بعادتك من المسن والفضل ، فكان لها موقع القطر في زمن المحل ، ورأيت مآل الامراليه بوقوع الحرب وشروع النقب ، وانه وضعت الملاطيس فقلت الآن حمسي الوطيس ، وأرجوان يصحب الوطر ويسمى القدر بحول الله وقدرته . وحدثت انه دعي الى نزال فكنت أول نازل ، فقلت لمحدثي أمجد أم هازل ؟ . . سيدى - اعزه الله - أشد بأسا وأعز نفسا من أن يرى يوم جلال الأعلى ظهر جواد ، فان لبس زغفا هزم ألفا ، وان تقلد صمصامه لم يبق هامه ولكن اذكره بهزه الشهامة قول ابي دلامه :

ولو أن برغوشا على ظهر قملة

يكر على صفى ثميم لولت "

(١) قال ابن بسام : كان أبو عبد الرحمن بن طاهر أحد من جمع الحديث الى القديم وارتقى من رياسة الاقلام الى سياسة الاقاليم ، واتفق لبني طاهر بالفتنة المطغية رياسة كدرة مرسية / الذخيرة ق ١ ج ١ ، ص ٢٤ . وقال فيه ابن خاقان : به بدى البيان وختم وعليه ثبت الاحسان وارتسم ، وعنه افترا الزمان وابتسم وأورد له نثرا ، وذكر أخذ ابن عمار مرسية من يده وانحيازه الى بلنسية ، وحضوره وفاته بها سنة ٥٠٧ هـ وقد نسي على التسعين .

انظر ترجمته : فلاند المقيان : ٦٤ ، المغرب في

حلى المغرب : ٢٤٧/٢ ، لسان الدين بن الخطيب :

اعمال الاعلام : ٢٣٢ ، الذيل والتكملة : ٥٩٠/٢ .

(٢) شاطية : مدينة في شرق الاندلس تقع شرقي قرطبه وهي مدينة

كبيرة ، قديمة ، وقد خرج منها خلق من الفضلاء ، ويعمل الكاغد الحيد فيها ويحمل منها الى سائر بلاد الاندلس . ياقوت الحموي :

معجم البلدان : ٣٨/٣ .

والرسالة تسخر بالشجاعة المزعومة لذلك الصاحب الذي صوره
الكاتب بطلا هماما ، بينما هو في حقيقته ضعيف جبان . وقد سلك
الكاتب في الرسالة مسلك الجد ليمهد للسخرية والاستخفاف بعقل ذلك
المهجو .

وهناك رسائل سخرية أندلسية تنهج نهجا قصصيا يعتمد فيها
الكاتب على ايراد حادثة تسخر بالخصم وتكشف ضعف عقله ، ومن
أمثلة ذلك رسالة أبي عامر بن شهيد التي يسخر فيها من أبي عبد الله
الفرضي "١" ، وقد كان هذا الفرضي يشتغل بالكيمياء ومن ثم قصده
أبو عامر من هذا المنحى ، والرسالة فيما يبدو موجهة الى الأمير علي
ابن حمود حيث كان الفرضي وزيره يدلل قول ابن شهيد في أولها : "٣"
" . . . فلا بد من تعريف الموفق - وفقه الله - أصل هذا الفاسق
وفرعه ، وان كلفته تطويل سجمه . صحبتته منذ اعوام أيام اختلافنا الى
الزاهرة ، وان تلك المواطن قائمة غير دائره . . . وكنا كثيرا ما نتدارس
ضروب العلم : من أدب وخبر وفقه وطب وصفه وحكمه ، على أنه في أهل
الفهم واو عمرو . . وكان ولا أشعر - يدالس ويوالس . . . وصار في
ذلك وضح النهار ، ونفخة الزمار ، لوليس البدر ولخاد زليوفا ، أو تناول
الشموس لغشاها كسوا . "

ثم تبدأ القصة المثيرة بزيارة ابن شهيد له "٣" وقصدته يوما
على جهل بتلك الخليقة منه لاستريح اليه والقي من شئني عليه ، فألفيته

-
- (١) هو أبو عبد الله محمد بن الفرضي وزير يحيى بن علي بن حمود
(٣١٢ - ٣١٣) ، وكان خصما لابن شهيد ، ق (ج ١)
ص ٢١٤ . وقال فيه ابن عذارى : واستوزر (يعني علي بن
حمود) محمد بن الفرضي الكاتب فكان آخر شيء علي دولته
وارتقب بأهل البيت حلول الجنة فقد لما استفادوا بالله من وزارة
السفلة . البيان المغرب : ١٣٢/٣ .
(٢) الذخيرة : ق (ج ١) ص ٢٢٠ .

قد خلا بابيه ، وغاب بوابه فولجت فثار الى صبي غريب اصبته هنالك
قائل لي : طال انتظارنا لك وتقدمني وسرت حتى انتهيت الى دار
ذات أجوان قد غشيها دخان كقطع العنان ، تعبق منها صنان من
زرنخ وكبريت ، وزنجفور ، وانزوت ، فتذكرت يوم تأتي السماء
بدخان مبين ، يفشى الناس هذا عذاب اليم) "أ" فاستشعرت الشر
وأردت العز ثم التفت فاذا انا باكداس حمر وآلات تبر ، واشخاص
سود وصفر ، ثم أفضيت الى بيت فيه عدة أشباح كأنها قباض الارواح
غرابيب بأيديهم كلاليب . . فلما رأوني صاحوا : فضحك الواغل فامحقوه
من عاجل ، فلما نظرت الى المنية وخشيت فصل القضية ، ضحكت اليهم
وقلت : تخطتكم النعمة ، ولا هديتم سبيل الحكمة ، أهكذا تعجلون ،
ولا تدرون من تريدون ؟ قالوا : ومن انت ؟ قلت من أخذ الطلق
فسحقه بالمرق ، وشعق بيد الذكاء عن زهرة الاشياء ، فبشر الالباء
بالابناء . فقالوا : بنا رأوم بما ؟ قلت : بها جميعا وسهوا . فأومضوا
الي ضاحكين ، واستقبلوني معتدلين وقالوا : كدت والله أن تلتهم . .
قلت : وأين ابو عبد الله ؟ قالوا : انفرق يرقق ماء بيض ويصفق دم
حيض وغرضه استخراج دهن الحجر الكريم ، فقلت : حبس حديث او قديم ؟
فنادوا : آواه ، آواه على الخبير سقطتم ، ثم تلطفت وخرجت تطير بي
رجلاي ، وقد حقن الله دمي بمطغه ، واستنقذني من يدي منيتي
بلطفه . . . "

وهكذا ترى ابن شهيد يستخف بعقل ابن الفرضي واشياعه في تلك
المهنة الخطيرة وقد عبر عن ذلك برسم صورة مضحكة لهم فهم اشباح مخيفون
في وسط جو غائم بأنواع الدخان المختلفة الصادرة عن مختلف العقاقير
وقد سلك الى ذلك سبيل الحوار القصص الساخر في حديثه مع
اولئك الاشخاص " السود والصفر " . وكيف استطاع ان يحتال عليهم

(١) الذخيرة : ق ١ ج ١ . ٢٢٠ .

(٢) سورة الدخان : آية " ١٠ - ١١ " .

فيرضي عقولهم السخيفة بايهاهم أنه من أمثالهم وداخل في اطارهم ،
وان له باعا طويلا في هذه الصنعة ، وهو بهذا يريد ان ينفذ الى
التندر بسيدهم الوزير ابن الفرضي الذي شهد لهم هذا العمل وانفرد
عنهم " يرقق ما* بيض ويصفق دم حبيص " !

وهناك ايضا رسالة لابن شهيد نفسه الى الوزير ابن عباس في هجاء
وسخرية بابن الاخيلهي "١" الذي كان يكيده لابن شهيد عند ذلك
الوزير حتى تغير عليه وتبدلت احواله معه يقول "٢" : " فأنعمت
البحث واعملت لطائف الكشف حتى صح عندي انه كدر صفوك علي ،
وغير شريك لدي ، فقلت : من هاهنا أتينا ، وهن هذه القوس اللئيمة
رمينا ، وقصصي مع هذا الملح طويل . . . " ثم يبدأ بتنقصه والتندر
به قائلا : " وما كان هذا القرء أهلا لان يحمل عليه حر كلام ولا ليو مي
بفضل بيان ، وباطرا ان يرقم على عتبة دكان ، أو يصور على باب حمام
وقد غرس في وجعائه رأس نخله ، وخبيء في سمعها عش نحلته ، أو ينقش
في خاتم قيمار ، وقد علاه هنزير ، وعطس مستنجاها بآبرة زنبور فانه يقبه

(١) ابن الاخيلهي : ابراهيم بن محمد بن زكريا الزهري ، أبو
القاسم ، حدث بكتاب النوار للقالبي ، وكان متصورا في الادب
يقراً عليه ، وكان عالما بالنحو واللغة متكلماً في معاني الشعراء واقسام
البلاغة ، وله كتاب شرح فيه معاني شعر المتنبي . قال عنه ابن
حزم . وعو كتاب حسن / جذوة المقتبس : ١٥١ .

شعر المتنبي قال عنه ابن حزم ، و
ونذكر ابن بشكوال انه ولي الوزارة للخليفة المستكفي بالله ،
وان مولده سنة ٣٥٢ هـ ، ووفاته سنة ٤٤١ هـ ، الصلة :
٩٣/١ ، الذخيرة : ق ١ ج ١ ص ٢١٤ .
(٢) الذخيرة : ق ١ ج ١ ص ٢١٤ .

من بني اسرائيل الذين استحلوا الحرام ، واجتزحوا السيئات والآثام ،
فلما عتوا عما نهوا عنه ، قيل لهم (كهنوا قرده خاسئين ،
فجعلنا هانكالا لما بين يديها وما خلفها وموعظة للمتقين) " ١ " . فأى
صورة أجلب للسخرية والاستهزاء والضحك من هذه الصورة التي رسمها
أبو عامر بقدرته الفنية الساخرة لابن الافلهي ،

رسائل السخرية بين المشرق والاندلس :

لعل الباحث لا يحتاج الى عناء في الدليل على أن الجاحظ
سبق الى هذا المجال دون منازع . وهذا اللون نجده مبثوثا في معظم
كتبه حتى كاد يكون طابعه العام ، ولعل أشهر آثاره في ذلك رسالته
الموسومة " بالتربيع والتدوير " ، والتي يسخر فيها بشخص يسمى
أحمد بن عبد الوهاب " ٢ " ، ذلك الرجل الذي كان يدعي العلم وبسطة
الجسم ، ويطاول الجاحظ ويخاشنه على حد قول الجاحظ في الرسالة .
كما ان للجاحظ رسالة أخرى تسمى رسالة " الجد والهزل " (" ٣ " ،
تنحو هذا المنحى ، ولعل الكتاب والادباء الاندلسيين اطلعوا على " ٤ "
ما كتب الجاحظ في هذا المجال فاحتدوا حدوه وتأثروا بطريقته ،

- (١) ناظر الى الآية : ٦٥ - ٦٦ من سورة البقرة .
- (٢) احمد بن عبد الوهاب : من كتاب الدواوين ايام الواثق . وكانت
له بمحمد بن عبد الملك الزيات يقول الجاحظ انه يعاني ، ويتهمه
بالرفض حيث يقول له في رسالته هذه : " . . . واستبدل بالرفض
الاعتزال " ويبدو أنه رحل بعد انقطاع أمره في بغداد الى مكة ،
وفيهما أدركته رسالة الجاحظ : انظر ترجمته في الاغانسي :
٢١/٢٢ ، ط الساسي ، عبد الكريم شتر ، نصوص مختارة من
الأدب العباسي : ٢٠٩ ، ط بيروت ١٩٦٩ م
- (٣) رسائل الجاحظ : ١/٢٣٥ - ٢٣٦ ، تحقيق عبد السلام هارون ،
ط القاهرة ١٣٨٤ هـ - ١٩٦٤ م .
- (٤) ذكره ياقوت في معجم الادباء : ٧٤/٦ ، ان رسالة التربيع
والتدوير اول ما وصل الاندلس من تراث الجاحظ . ونستشف اطلاع
ابن زيدون على ادب الجاحظ من نص كلامه حيث قال : " ولواني
أوتيت في النشر غزارة عمرو ومراعة سهل " الذخيرة : ق (١ ج ١ ص ٣٣٨

وهذا ما يتضح من الرسائل التي مرت بنا آنفاً وبخاصة رسالة ابن زيدون وابن مسعود فقد اتبعنا نفس أسلوب الجاحظ الفني في عرض الصورتين المتناقضتين للمهجو ، إلا ان الفرق كان واضحاً بين الاستاذ والتلاميذ فقد امتاز عنهما بقدرته الفنية في عرف الصورتين المتنافرتين داخل اطار واحد دون فصل بينهما بحيث يحس القاري في العبارة الواحدة التباين بين ما يعتقد ابن عبد الوهاب في نفسه وبين ما هو حقيقي فيه ، وهذا ادعى للازدراء واكثف تجسيماً للصورة الساخرة كقوله : "١" كان احمد ابن عبد الوهاب مفرط القصر ويدي أنه مفرط الطول . وكان مربعاً وتحسبه لسعة جفرتة واستفاضة خاصرته مدورا . وكان جمع الأظراف قصير الأصابع ، وهو في ذلك يدعي السبابة والرشاقة زء ، وانه عتيق الوجه ، اخمص البطن ، معتدل القامة ، تام العظم وكان طويل الظهر قصير عظم الفخذ ، وهو - مع قصر عظم ساقه - يدعي أنه طويل الباس ، رفيع العماد ، عادي القامة ، عظيم الهامة ، قد اعطي البسطعة في الجسم والسعة في العلم " فأى نقيضة بعد ذلك ما به أو معنوية لم يلصقها الجاحظ بهذا الرجل . وكما كان الاحتذاء واضحاً في الفكرة عند ابن زيدون وابن مسعود فانا نلمسه ايضاً في الجمل والعبارات وطريقة الأداء ، انظر الى قول ابن زيدون في رسالته السالفة موجهها كلامه لابن عبدروس "٢" ونخرت وكفرت ، وهمت وسرت وبدأت واعدت وابرقت واعدت ، " وهمت ولم أفعل وكدت وليتني " ولولا ان للجوارز مه ، وللضيافة حرمة ، لكان الجواب في قفاأل المستق والنعل حاضر ان عادت العقرب ، والعقوبة ممكنة ان أصر المذنب " .

وقول الجاحظ في رسالته الجد والهزل "٣" : " فلو كنت اذا

-
- (١) رسالة الترميز والتدوير ضمن مجموعة رسائل الجاحظ : ص ٩٤ ، ط بيروت ١٩٧٢ م
 - (٢) شرح العميون : ٥ - ٦ .
 - (٣) رسائل الجاحظ : ٢٥٧/١ - ٢٥٨ .

أزوت ماأردت ، وحاولت ماحاولت ، رفعت قبل كل شيء الموءنسة
ثم أبيت الموءاكلة ، ثم قطنعت النهر ، ثم أذنت مع العامة ، ثم
أعطت الحرمان ، ثم صرحت بالجفوة ، ثم أمرت بالحجاب ، ثم
صرمت المنبل . . . الخ "

كما نجد الجاحظ يقول : عن أحمد بن عبد الوهاب - مستغفرا
به عن طريق ما يوجهه اليه من أسئلة بمعجز عن الاجابة عنها . - (١) .
(٢) حدثني كيف رأيت الطوفان ، ومتى كان سيل العرم ، ومد كم
مات عوج ، (٣) ومتى تبللت الألسن ، وما حبس غراب نوح (٣) ،
وكم لبثتم في السفينة ، ومد كم كان زمان الخنثان ، وخبرني ما عنقاه
مغرب ؟ (٤) وما أبوها وما أمها . . . "

وقد قلده الأندلسيون في ذلك حتى اننا نجد ابن مسعود فسي
رسالته المتقدمة يطلب من وجهها اليه ان يصف له " مبيض العنقاء . . .
الذي ورد ذكره في رسالة الجاحظ .

ونجد في رسالة الجاحظ ذاته المتفوقة المستعلية المعترزة بعلمها
" وكيف يرجو خيرك من يراك تطاول ابا جعفر وتخاشنه وتنافره ،
وأشهد بعد أنكم تخاشن عمرو بن بحر الجاحظ ، وتعاقله ثم تناظره

-
- (١) المصدر نفسه : ٩٦ .
 - (٢) هو عوج بن عوق : رجل قيل انه من ولد آدم - عليه السلام -
عاش الى أيام موسى . انظر اللسان : مادة (عوج) .
 - (٣) هو الغراب الذي بعثه نوح . . وهو في الفلك . . بعد انقطاع
الطوفان ليبري حمل جفت الارض فلم يعد اليه .
 - (٤) عنقاء مغرب : طائر اسطوري يوصف بالضخامة والشراسة ، وقيل
أنه يذهب بكل ما يأخذه ، فسمي مغربا .
انظر اللسان (مادة عنق) ج ١٠ ص ٣٧٦ .

وتطاوله " ١ " أو في قوله بعد أن طرح مائة مسألة معجزة " وقد سألتك ، وان كنت أعلم انك لا تحسن من هذا قليلا ولا كثيرا . . فان أردت أن تعرف حق هذه المسائل وباطلها وما فيها محال ، وفيها صحيح وما فيها فاسد ، فالزم نفسك قراءة كتيبي ولزيم بابي " ٢ "

والرسالة - بعد - ذات سخرية حادة تصدر عن مزاج طبع على التهمك والمهزل هو جماع شخصية الجاحظ بتكويناتها النفسية المعقدة كما تحوى كل خصائص الجاحظ الفنية من بعد عن السجع وايتار لللازواج مع ثقافة عريضة ، تظهر في الاستطراد المحكم والخروج من باب الى باب ، كل ذلك في إطار من الجدل والحوار والاحتجاج في ثوب من الشعر والامثال والحكم والاحاديث والقصص .

رسائل المهزل في الأندلس :

تتميز هذه الرسائل عن رسائل السخرية بأنها توظف طاقة اكبر للمهزل والتندر ، وقد كان النخل والبخل مادة غزيرة لهذا اللون من الرسائل - وقد تزعم ابن برد الاصفهري " ٢ " هذا اللون في الأندلس حين كتب رسالتين يتندر فيهما بالنخل والبخل وهما الهديمة والنخلمية .

-
- (١) رسائل الجاحظ : ١٠٩٥
 - (٢) المصدر نفسه : ١٣٠
 - (٣) هو أحمد بن محمد بن برد مولى أحمد بن عبد الملك بن شهيد ، ابو حفص الكاتب ، طبع الشعر بليغ الكتابة ، من أهل أدب ورياسة له رسالة في السيف والقلم والمفاخرة بينهما وهو أول من سبق الى القول في ذلك بالأندلس ، عاش بعد الاربعمين والاربعمائة . جذوة العقبتيس : ١١٥ ، ط مصر ١٩٦٦ .
- قال فيه ابن بسام : كان ابو حفص بن برد الأصفهري في وقتسه فلك البلاغة الدائر ومثالي السائر ، نفت فيها يسحره ، وأقام من أولها بناصع نظمه وبارع نثره وله اليها طروق ، وفي عروقها العالجات عروق ، ان كان جده ابو حفص الأكبر واسطة السليك وقطب رحى الملك بالحضرة اعظمى قرطبه في ايام سليمان وغيره من ملوك بني عامر وبني مروان ، وأول ما يشهد أن آل برد ==

أما التديعة فهي في تفضيل أهب الشاة على ما يفترض من الوطاء ، وغرضها في ظاهره الرد على من عابوا الكاتب باستعمال جلود الشياه ، فيجري معهم جوارا فكريا يدافع فيه عن وجهة نظره في استعمال هذه الغرش ، فهو لا يفضلها ليخل أو شح فيه بل ليهد نظره عنده حين رأى فيها منافع غابت عن الناس ،

والرسالة في مجملها تحليل لنفسية رجل بخيل وسير اغوارها لتطلع على مجامل مستتره لهذا الضعف الانساني ، والمرتكز النفسي لاسلوب هذا اللون من الرسائل يقوم على الجدال والاحتجاج وايراد الادلة لدعم الآراء ومن ثم نرى وجهين للموضوع المعروض :

وجهة نظر السائل المنكر ووجهة نظر المدافع القائل بصدق رأيه .
ويبدأ الكاتب أولا بسرد وبسط رأى الشخص المتهم وجوهه وعسواه معدنا المعائب التي تلحق بمن يستعمل جلود الشياه قائلا : " ا . . . عبتني - أعزك الله - بارتخاص الأشياء ومقارعة الاقوام في الشراء ، وقلت لم تؤثر ذلك الا للوم الخليفة ، والهمة الدقيقة ، والا فالشيء ربما غولي في شنه لطول الاستمتاع به ، وتعرف نماء فائدته . . . "

== جمهور كتابة ومحور خطابة ، وقد فخر أبو حفص هذا بذلك في كتابه الموسوم بـ " سر الأرب وسبك الذعاب " . . . وكانت وفاة جده هذا سنة ٤١٨ هـ .
انظر الذخيرة : ق ١ ، ج ١ ، ص ٤٨٦ ، ابن دحيه : المطرب : ١٢٧ ، النصلة : ٣٨/١ ، المغرب : ٨٦/١١ ، نفع التليب : ٥٤٥/٣ .

(١) الرسالة في الذخيرة : ق ١ ، ج ١ ، ص ٥٣٢ - ٥٣٥ .

ف نجد هنا أنه يذمه ويصفه بالبخل . هذه الخصلة الأولى . ثم
يورد سببا آخر لذمه ذلك أن أكثر الناس افتراضا لها ، من المعلمين
وقد قيل ان العقل لا يرضى عندهم ، فكيف تسلم في حسن الاختصار
لهم ، واختيار المرء قطعة من عقله ، وعيارا على نقصه أو فضله . وهذه
الخصلة الثانية وهي : ضعف العقل . وهناك اتهام آخر وهو ان هذه
الجلود من الصوف " زي رهبان البيع وأرباب الحانات ، وهم أضعف
الناس أخلاما ، وأدناهم طينة ، والقائلون بأن الله ثلاثة . . .
تعالى الله عما يقول الظالمون علوا كبيرا " وهذه الخصلة الثالثة :
وهي سوء الخلق وضعفه . ثم يعرض صاحب الرسالة القضية
من وجهة النظر المغايرة في أسلوب قوسى وحجج وأدلة مقنعة . ليكون
الرد على التهم الموجهة اكثر قوة واقناعا فيبدأ بتهمة البخل فيدحضها ،
بأن استعماله لمجلود الشياه بسبب ميزات الكثرة فيقول : " . . وأى
بساط منها أدل على التواضع ، وأعرب عن القناعة وأدفاً في السيرة ،
وألمن في المس وأخف في الحمل ، وأمكن للنقلة ، وأوفق لمقدار الحاجة ،
وأجد ربطول المتعة ، وأبقى على حدث الدهر ، وأغنى عن تكلف
التبطين ، ومراعاة أوقات الترتيع . . . تجد على الا بتدال ، وتمتق
مع الامتهان ، ولا تحوجك الى خياط ينازلك في السوم ، ويخجلك أمام
القوم . . . " ولها فوائد أخرى لأهل البيت أيضا " للعيال - فضلا
عك - على تقادم العهد ووقوع الاستبدال ، اكبر عون وأكمل انتفاع
في التمهيد للطفل الصغير ، واستعمالها في الخمير في سحرة الليلة
القرة . . . وان أدلج اليك ضيف يكرم عليك لم يكن بحضوره لوقته
عندك بنفس تقيسه به وتقرنه معه . . . " .

ثم ينفي عنه تهمة ضعف العقل ويبرر استعمال المعلمين لها
بسبب رجاحة عقولهم وثاقب نظرهم فيقول : " المعلمون نظروا الى
ضعف اكتسابهم ، وفكروا في تيسير ما تعود عليهم صناعتهم ، فأخذوا
بالأقوى والأرفى واعتمدوا على الأرخص والأوفق ، ثم علموا أنه ان تحاملوا
على أنفسهم وافترضوا ما يزينهم لم يلبث احدهم أن يقوم عن مجلسه
لبعض الامر ، أو لقضاء الغرض ، فتقوم حرب لعب الصبيان على ساق ،

وتبلغ بتعزيق ذلك الذي افترهه وغالى فيه ، وبالأيدي والأقدام والتراسي والازدحام ، مالا تبلغ انياب كلاب القنص في اعاب العقيرة ، فيمسود فيرى ما يستحق العين ويوجب الرين . وهذا النوع الذي أنسوا السي خيره ، وآثروه على غيره ، لو أقامه الصبيان مقام الطبل ، وجعلوه هدفا للنبل ، لم يكن أثرهم فيه الا أثر الندى في عم الصفا .

ثم يدفع عن نفسه تهمة سوء الخلق في بيان أن لبس الصوف ليس وفقا على المراهين ، وأهل الحانات بل هو " زي النساك ، ولباس المنقطعين للتعبد ، وعمدة الطراز الاول من السلف " .

وهكذا نرى أن الجدل والاحتجاج أول عماد تركز عليه رسائل التنذر ، وذلك من خلال المحاحكات والباس التافة من الاسباب ثوب الجد والوقار بتصيد العلل والاسباب كقوله : " ولا تحوجك السي خياط ينازلك في السم ويخجلك أمام القوم ، تنتح جبينك بفرق الاختلاف اليه ، وذل التكرار عليه ، وهو تهيج في دكانه واشتغل عن مقالاتك باستظاهرة محادثة صباه . . . " .

هذا الاتجاه من التفكير مرده الى غريزة الهغل الكامنة في النفوس والتي يجتهد الكاتب في دفعها عن نفسه ، ومن هنا يكون الموقف أكثر عزلا لان محاولة التبرير اكثر اقناعا وأشد تثبيتا لما يدافع عنه كدفعه لتهمة ضعف العقل عند المعلمين ، وتبلغ الفكاهة ذروتها حين يحاول الكاتب في امثال هذه الرسالة ان يوجد تبريرات بأسا نبيد لامجال للنقاش فيها كقوله عن هذه الجلود : " ولم يجعل الله عزوجل من هذا الجنس أقرب قربانا فدى به ، ابن خليه وسماه ذبحا عظيما في تنزيهه الا لسر من فضله سبق في علمه " .

الرسالة النخلية :

تندر بالهغل والبخلاء ، اعتمد ابن برد الا صغر القصص اسلوبا فنيا لها حين حكى عن شخص وعده ورهط من أصحابه بشيء من طلوع نخلة ، ولكنه لما حان طلوع النخل أقدم صاحبها بليل على جز طلوعها

وعند قدومهم أصبحوا علموا بفعلته من فتى لقيهم وسألهم مستفسرا عن حالهم فقالوا : " بآياتنا أنت لفرجوبين لقياك ظفرا بالمطلب ونجحا في المذهب ، جارك وصديقنا الذي نحن تلقاء منزله وفي حاشية محله وعدنا منذ عام بأن يسهم لنا فسي جنق نخلة لديه ، لم تتفقاً ترسة هجر عن مثلها ، ولا أدت قمارى بصرى الى شكلها ، فجنشنا للأكل منها وقطمئن قلبينا ونعلم أن قد صدقتنا وو ونكون عليك ممن الشاهدين " ١ .

قال الفتى : " يا لاخواني في الخيبة ، وشركائي في فوت الأمل ، أنا ساكن المحلة التي منيت هذه النخلة في ساحتها ، وقد صرمها منذ خمسة عشرة يوما . . . " ٢ فلما سمعوا هذا النبأ كتب اليه ابن برد هذه الرسالة مذكرا اياه بوعده السابق .

ولعل ابن برد استوحى قصة رسالته من القصص العربية القديمة التي تتحدث عن خلع الوعد ، كقصة " عرقوب " ٣ الذي يضرب به المثل

-
- (١) نأثر في هذا الى الآية : " ١١٣ " من سورة المائدة .
 - (٢) الذخيرة : ق ١ ، ج ١ ، ص ٥٢٩
 - (٣) يقول ابن قتبية : " والحرب تضرب المثل في الخلف بعرقوب . . . وكان عرقوب رجلا من العماليق ، فأتاه أخ له فسأله شيئا فقال عرقوب اذا طلع نخلي ، فلما أتاه قال : اذا ابلح ، فلما أبلح أتاه فقال : اذا أزهر ، فلما أزهر أتاه قال : اذا أرطب ، فلما أرطب قال : اذا صار شرا ، فلما صار شرا ، جزه من الليل ولم يحط أخاه شيئا .
- عيون الاخبار : ١٤٧/٣ ، ط دار الكتب ١٣٤٨ هـ

في اخلاف المواعيد ، وقد تناقل الشعر قصته كثيرا " ا " حتى أصبح علما في هذا المجال ، وقد استغل ابن برد هذه القصة ليتندر بالبخل وخلف الوعد معا . يغلب على الرسالة الطابع النفسي القصصي من عناية بالسرد والاداء الى وجود عقدة تدار حولها الرسالة ، هذه العقدة قوامها خيبة الامل ، بانتهيار الاحلام التي بنيت على وعد سابق . وقد صور ابن برد هذا التتابع في تدافع سردي مقنع ومحكم ، حيث يفتح الرسالة بتذكير صاحبه بما جرى في المقام الماضي " أما بعد : جعلك الله ممن المؤثرين على انفسهم ، والموقنين شحها ، والمنجزين مواعيدهم ، والمعطين صدقها ، فقد علمت ما سلف لنا في العام الفارط من عتابك ولبسنا شكته من ملامك ، لما كتمتنا صرام النخلة التي هي بارضا احدى الغرائب وفريدة العجائب ، هربا من أن تلزمك الاسهام في رطبها ، وحرصا على تعام لذة الاستبداد بها وقتل ويقد سألناك من جناها قليلا ، ورجونا ان تنيلنا منها ولو قليلا - لو علمت أن لكم به هذا الكلف ، واليه هذا النزاع لا مسكته عليكم ، وجعلت حكم جذاذه اليكم ، ولكنها ان شاء الله في العام الآنف غلتم عتاد نفيس لكم ، وذخر حبيس عليكم . . . "

ومن الخصائص الفنية لابن برد في هذه الرسالة اجراء الحوار الصريح القصير الذي يرمي الى تجسيم العقدة وتشخيص خيبة الامل وذلك باشارك شخصية ثالثة فيما أصاب الجميع من تلك الخيبة هذه الشخصية هو الفتى الذي لقيهم أثناء قدومهم على صاحبهم " فتى وضاح الجبين ، آخذ بالعيون ، في وجهه للادب شاهد وبين عينيه من الضرف رائد " . ولما كان غرض الرسالة التنذر بطبقة البخلاء ، وبغريزة البخل عامة نجدها قد حفلت بتسطر وافر من الايقاع الفكاهي في مثل قوله مخاطبا صاحب النخلة :

(١) كقول كعب بن زهير :

كانت مواعيد عرقوب لها لا

وما مواعيدها الا اباطيل

انظر الديوان : ص ٦ ، شرح السكري - القاهرة ١٩٥٠ م

وقال الاثنجعي :

وعدت وكان الخلف منك سحبية مواعيد عرقوب اخاه بيثرب

عيون الاخبار : ١٤٧/٣ .

- بعد أن طلبوا منه ما ادخره من التمر ليوم تفككه ويوم نوروزه -
" ولا تخشى منا ما أفسد به ابن الزبير عماله حين قال : " أكلتم تمرى
وعصيتم أمرى " (١) " اذا نحن اكلنا منها فرنا نصاب عنك أعداءك برا
وبحرا ولا نعصي لك أمرا ، ، وأطرف من ذلك قول : " نحن عصابة
نتحلى بأدب وندتعي الى حفظ غريب وصياغة قريض ، وربما لم تصدق
في هذا الطريق مضائنا ، ولا قبلت يقينا غنائنا ، فأردنا أن نصف لك
شيئا من كلام العرب في النخل وبيده نباته ، والشعوتلون حالاته ، فسان
سرك ماجئنا به ، وراقك ما أفضنا فيه ، جعلت جوائزنا تمرا ، وكان
ذلك لنا أجرا . " أو قوله له : " فيا أبا عبد الله امجدنا رطبنا نمجدك
خطبا " (٢) ومن ابلغ تندرته بصاحبه حين يخاطبه بجديده تهندا
في الظاهر بعيدة عن الهزل والا ضحاك " فلعن الله الشيطان ،
وأما ذنا منه وعلى الله على سيدنا محمد ، ولا صدنا عنه ، فانه يقول :
" نعمت العمة لكم النخلة ، " والخطاب لجميع المسلمين وأنت قد
استوليت على عمة من عماتهم ، تستبد بخيرها دونهم وتمسك معروفها عنهم
ونحن رجال ب من بني أخيها آتينا نعتفيها ، فان أنت سويتنا مع نفسك
فيما تدربه عليك ، وتملأ منه يدك والا نافرناك الى السلطان وآبنا عليك
أبناء الزمان . . . " (٣) .

والذى يبدو جليا أن ابن برد اتخذ الموضوع تعلقة لظهار
ثقافته اللغوية من حيث الألام بالغريب والشواهد والمترادفات ،
تحلى ذلك كله بتصيده لموقف مكنه من الاستطراد في الحديث عن
النخل وأسمائه وصفاته : " تقول العرب لصفار النخل : الجثيث
والودى ، والهراء ، والفسيل ، والآشاء ، والكافور ، والضمد والاغريض

-
- (١) انظر انساب الأشراف : ١٤٩/٥ ، تحقيق : محمد حميد الله
ط - القاهرة .
(٢) الذخيرة : ج ١ ، ص ٥٣٠ .
(٣) المصدر نفسه : ص ٥٣١ .

فاذا انعقد سميت السّياب ، فاذا اخضر قبل أن يشتد سمته
الجدال . . . " ١ "

أما أسلوبه عموماً فقوامه تفضيل الازدواج على السجع على نحو طريقة
الجاحظ في اطار من استعراض الثقافة العربية والإسلامية من سرد الامثال
وحل الشعر وتلويح بالاشارة للاحداث والاشخاص . ويلحظ أن ابن برد
ذهب في رسائله هذه مذهب سهل بن هارون " ٢ " في البخل في الرسالة
التي وجهها الى بني عمه من آل وعيون ، حين ذموا مذهبه في
البخل وعابوا شدة حرصه على التوفير والتدبير ، وفي رسالته يرد على علي
لائمه فيورد الامثال لمن يعتبر ، والاسلوب الفني يعنى بسرد
المعاني التي لا مهم من أجلها من انتقاصه بالبخل ، فيعرض سهل
هذا المأخذ ثم يبررها من وجهة نظره ويجد لها المخارج ، ويعمد
في احتجاجه الى الاستلال بالمأثور من القول والاتداء بالسلف الصالح ،
واتخاذ اقوالهم وأفعالهم حجة يسد بها الطريق على من يعيره بالبخل
والتقير ، كتوله : " عبتوني بقولي لخادمي : أحمدي عجنه خميراً
كما أجدته فطيراً ، ليكون أطيب لطمعه وأزهد في ريعه ، . وقد قال
عمر بن الخطاب رضي الله عنه لأهله : أملكوا العجين فإنه أربع الطحينين "
وقوله : " وعبتوني حين قلت للغلام : اذا زدت في المرق فزد في
الانضاج لنجمع بين التأدم باللحم والمرق ، ولنجمع مع الارتفاق بالمسرق
الطيب ، وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم : اذا طبخت لحماً فزيدوا
في الماء فان لم يصب أحدكم لحماً أصاب مرقاً " ٣ "

(١) المصدر السابق : ٥٣٠

(٢) قال فيه الجاحظ : من الخطباء الشعراء الذين قد جمعوا الشعر
والخطب ، والرسائل الطوال والقصار ، والكتب الكبار المخلدة ،
والسير الحسان المدونة . . . " له كتاب شعلة وغفراء ، كتاب
الاخوان والمسائل ، والمخزوم والهدلية . انشر : البيان والتبيين
٥٢/١ ، وذكر ابن النديم انه كان متحققاً بخدمة المأمون وصاحب
خزانة الحكمة له . كان حكيماً بصيحاً شاعراً . . . وله كتب كثيرة ورسائل
في البخل . الفهرست : ١٧٤ ، معجم الاداء ١١ / ٢٢٦ ،
وذكر وفاته سنة ٢١٥ هـ . عيون الاخبار : ١٣٨/٣ .
(٣) الجاهظ ، البخل : ٢٢ - ٢٣ - ط بيروت .

وأسلوب سهل في التندر أكثر اشباعاً من أسلوب ابن برد ، حيث
يعمد الى القصص الطريفة في ثنايا الرسالة على نحو الاستطراد في أسلوبه
عموماً مثال ذلك قوله "١" ؛ وبمعت زياد رجلاً يرتاد له محدثاً واشترط على
الرائد أن يكون عاقلاً مسدداً ، فأثابه به فكان موافقاً ، فقال : " أكنست
ذا معرفة به ؟ قال : لا ، ولا رأيته قبل ساعته ، قال : أفناقلته
الكلام وفاتحته الأمور ، قبل أن توصله اليّ ؟ قال : لا ، قال :
فلم اخترته على جميع من رأيته ؟ قال : يومنا قانظ ، ولم أزل اتعرف
عقول الناس بطلعهم وليلتهم في مثل هذا اليوم فرأيت شباب الناس جدراً
وشيابه لبساً ، فظننت به الحزم " . . . وسهل أقدر من ابن برد على
الجدل والاحتجاج وتصيد الأسباب والعلل ، ولعل عذر ابن برد في
ذلك أنه تكلم عن البخل ايحاء حين رمز اليه بتفضيل البخيل لجلود
الشيء وتمسكه بها ومدافعتها عنها أو بالبخل بثمر النخلة على الاصحاب
الذين وعدوا بذلك ، أما سهل فقد تحدث صراحة عن البخل ، وقد
كان أيضاً أقدر على ايراد النادرة مورد الجد والاهتمام كقوله : " . . . وكان
هشام يقول : ضع الدرهم على الدرهم يكون مالا ، ونهى أبو الأسود
الدؤلي وكان حكيماً أدبياً وداهية أريباً عن جودكم هذا المولد وعن
كرمكم هذا المستحدث ، فقال لابنه "٢" : اذا بسط الله لك في
الرزق فابسط ، واذا قبض فأقبض ، ولا تجاود الله فان الله أجود منك"
والرسالة - بعد - غنية بالحوار ، الذي يذهب عنها الملل ويبعد عنها
الرتابة ويضفي عليها خفة روح وسرعة خاطر ، ولا يخفي علينا تأثر
الاسلوب عموماً بطريقة المتناظرين من المتكلمين والتي ازدهرت في هذا
العصر ، فانا نلمح فيه أثر المنطق والجدل من الأقيسة والقضايا ، والدقة
في الحوار التماساً للأدلة ، أما الأسلوب الفني فيقيم على التنويع اللفظي من
سرد للمترادفات وايقار للازواج على السجع واكثر من الامثال وحل الشعر
وتلويع بالاشارة الى اشخاص وحوادث .

(١) المصدر نفسه : ٢٤ - ٢٥ .

(٢) المصدر نفسه : ٢٩ .

ثانيا : رسائل المناظرات والمفاضلات :

هي تلك الرسائل الادبية التي تعنى ببسط الأدلة والجدل والحوار، وترمي في الغالب الى اظهار براعة الكاتب في الاحتجاج والتمرس في الاساليب السائدة في عصره ، ولم تخرج في حقيقتها عن النزعة الادبية للمدح والذم والتي صارت لونا أسلوبيا قائما بذاته . ولعل نمو فن المناظرات يرجع اساسا الى صدر الدولة العباسية حين امتزجت الثقافة العربية بثقافات اخرى يونانية وهندية وفارسية ، وبرزت الفنون تأثيرا في العقلية العربية الفلسفة والمنطق، حيث اطلع المفكرون والادباء العرب على محاورات السفسطائيين ومجالاتهم ، ومن ثم كانت طبقات المتكلمين في المباحث العقائدية بما عرفوا من صورة جديدة لتحليل الافكار وتركيبها ، كما طرقت باب القياس والاستدلال والعلم ، وما الى ذلك من اصطلاحات المناطق . ولما كان الادب مرآة المجتمع تنمو اغراضه وتتجدد بنوعية ثقافته ، ولما صارت المناظرات الكلامية من دعائم ثقافة المجتمع كان من الطبيعي أن تترك آثارها في أدبه ، فهذه رسالة الشقندي "١" في فضل الأندلس بما حوته من مناظرة بين عصرى الطوائف والمرابطين وأنتهـارها لعصر ملوك الطوائف، وتفضيله لما ضم من الانبياء والشعراء وبخاصة من الملوك أنفسهم ، ومسـن الفقهاء والفلاسفة بالاضافة الى المدن والمناطق التي تتم عن خصائص فنية لهذا اللون من الرسائل ، وان كان موضوعها سياسيا أكثر منه أدبيا .

وأول ما يظالمنا في هذا المجال رسالة السيف والقلم للكاتب ابن برد الاصغر- الذي تقدم ذكره - وتذكر المصادر الأندلسية أنه هو أول من سبق الى القول في ذلك بالأندلس . "٢" ومضمون الرسالة مناظرة فكرية جدلية بين السيف والقلم في أحقية كل منهما بالسيادة والزعامة ، وهي في حقيقتها مناظرة بين المحارب والكاتب . ولا يستغرب أن يكون بين دعامتي الدولة "٣" كما يذكر ابن الأثير مثل هذا الصراع .

- (١) نفع الطيب : ١٨٠/٤
- (٢) جذوة المقتبس : ١١٥
- (٣) المثل السائد : ٧٣/١

ويقول ابن خلدون ^(١) : " اعلم ان السيف والقلم كلاهما آلة لصاحب الدولة يستعين بها على أمره ، الا أن الحاجة في أول الدولة الى السيف مادام أهلها في تمهيد أمرهم أشد من الحاجة الى القلم ، لأن القلم في تلك الحال خادم فقط منفذ للحكم السلطاني ، والسيف شريك في المعونة ، وكذلك في آخر الدولة حيث تضعف عصبيتها ويقل أهلها بما ينالهم من الهرم فتحتاج الدولة الى الاستظهار بأرباب السيوف وتقوى الحاجة اليهم في حماية الدولة والمدافعة عنها كما كان الشأن أول الأمر في تمهيدها ، فيكون للسيف مزية على القلم في الحالتين ، ويكون ارباب السيف حينئذٍ أوسع جاهًا وأكثر نعمة وأثنى اقطاعًا ، وأما في وسط الدولة فيستغني صاحبها ببعض الشيء عن السيف لأنه قد تمهد أمره ولم يبق همه الا في تحصيل ثمرات الملك من الجباية والضبط ومباغاة الدول وتنفيذ الاحكام والقلم هو المعين له في ذلك فتعظم الحاجة الى تصرّفه وتكون السيوف مهملّة في مضاجع اغمارها الا اذا انابت نائبة أو دعت الى سبب فرجة ، ومما سوى ذلك فلا حاجة اليها فتكون ارباب الاقلام في هذه الحاجة أوسع جاهًا وأعلى رتبة ، وأعظم نعمة وثروة ، وأقرب من السلطان مجلسًا وأكثر اليه تردداً . . . "

- (١) مقدمة ابن خلدون : ٢٥٧ ، ط / بيروت .
لعل من أول الاشارات التي وردت في المفاضلة بين السيف والقلم مارواه الجبهشباري : . . . ولم تزل العرب تفضل السيف على القلم ، وفي ذلك يقول السليط بن جرير بن لبيد النعري :
أتحقّرني ولست لذاك أهلاً وتدني الأصفرين من الخسوان
جبهابذة وكتابا وليسوا بقرسان الكريهة والطعان
ستعرفني وتذكرني اذا ما تلاق الحلقتان من البطان
ثم يورد قول البحتري :
تعنوله وزراء الملك راغسة
انظر : الوزراء والكتاب : ٢٨ .
وقد كان هذا الموضوع غرضاً شعرياً مفضلاً عند الشعراء قال فيه المتنبي :
حتى رجعت وأقلامي قوائل لي المجد للسيف ليس المجد للقلم
اكتب بنا أبداً بعد الكتاب به فانما نحن للأسياف كالخادم
انظر ديوان المتنبي ، بشرح العكبري : ١٥٩/٤ ط بيروت .
١٣٩٧ هـ - ١٩٧٨ م .

هذا التحليل التاريخي الدقيق لدور كل من الكتاب والجنود بالدولة من هذا العالم الفذ يوضح لنا فيسي جلاء أن دولة كالأندلس قامت منذ نشأتها على قاعدة عريضة من الجهاد والحروب ثم أتى عليها حين من الدهر طحنتها فيه الفتن المدمرة وتمزقت وحدتها وظهر بالتالي ما يسمى بالملوك والضوائف ، وكان هؤلاء في أئمة الحرص على مساندة الجنود واتخاذ اتباع لحماية العروش المزعزعة ، فظلت السيوف مشرعة سنين طويلة ، والأقلام نائمة في محابرها سنين أطول . . . كل ذلك جعل أصحاب القلم يحسون بتأخر مكانتهم عن رصفائهم . ولعل من الأدلة على ذلك ما نلمسه في كتابات بعض المعاصرين لتلك الفترة من الأدباء كأبي بكر الطرطوشي مثلا "١" . وهو من كتاب النظم "٢" ، فانه لم يتحدث عن أصحاب القلم وقيمتهم في الدولة بينما عقد فصلا خاصا للحديث عن سيرة السلطان مع الجنود وفيه يقول "٣" : اعلم أن الجنود عدد الملك ، وحصونه ومعاقله وأوتاده ، وهم حفاة الهيضة والذابون عن الحرمه والدافعون عن العورة وهم جفن الثغور وحراس الأبواب والعنيدة

(١) هو : محمد بن الوليد بن سليمان الفهري الطرطوشي ، يكنى أبا بكر ويعرف بابن وندقة ، درس على القاضي أبي الوليد الباجي بسرقسطة ثم رحل إلى الشرى وحج ودخل بغداد وتفقه فيها ثم سكن الشام مدة ودرس بها ، وكان اماما عالما عاملا زاهدا توفي بالاسكندرية سنة ٥٢٠ . الصلة : ٥٧٥/٢ ، وذكر الطيبي جماعة ممن روى عنه منهم ابوبكر بن العربي ، والصدفي وذكر من تأليفه : التعليق في الخلافيات في خمسة اسفار ، وله كتاب كبير عارض به كتاب الاحياء ، وكتاب سراج الملوك . بغية الملتصق : ١٣٥ ، ترجمة رقم ٢٢٥ ، الوفيات : ٢٦٢/٤ ، المغرب : ٢٤٢/٢ ، احسان عباس ، عصر الطوائف والعرابطين : ٢٨٩ . بيروت -

١٩٧٨ م

(٢) سراج الملوك : ٢٠٦ ، طبعة الاسكندرية : ١٢٨٩ هـ .

للحوادث . . . ولا يصلح الجند الا بادرار ارازمهم وسد حاجاتهم ،
والمكافأة لهم على قدر غنائهم وبلاتهم ، وجنود الملك وعددها وقف
سعود الأمة ونحوسها . . . " ثم يوصي الجند قائلاً " (١) : " أيها
الأجناد اقلوا الخلاف على الأمراء فلا تغفر مع الخلاف ولا جماعة
لمن اختلف عليه . . . قال تعالى : " ((ولا تنازعوا فتغشلوا وتذهب
ريحكم)) " . فأول الظفر : الاجتماع . . . وعماد الجماعة السمع
والطاعة . . . النصر مع التدبير ، لا ظفر مع بغى ، لا تغتربا لا قويا
بفضل قوتك على الضعفاء ، لا تجبن عند اللقاء ولا تقتل عند القدرة ،
ولا تسرف عند الظهور ، ولا تغل عند الغنائم ، ونزهوا الجسها عن
غرض الدنيا " .

هذا الاهتمام الواضح بالجندى على حساب غيرهم من الرعية وخاصة
أهل الدعاة الثانية - الكتاب - هو الذى دفع ابن برد للكتابة هذه
الرسالة والتي نحس فيها حلما أو أمنية بالمساواة بين دعامتي الدولة .

تحليل الرسالة : جعل الكاتب التنافس بين متساويين حتى يكتسب الموضوع
حدة الصراع والجدل المطلوب في المناظرة حيث قال : " إن التسابق من
جوادين سيقا في حلبة ، وقضيين نسقا في تربة والتحاسد من نجمين
أنارا في أفق ، وسهمين صارا على نسق ، والتفاخر من زهرتين تفتحتا
من كمامه وبارقتين توضحتا من غمامة لأحمد وجوه الحسد وان كان
مذموما مع الأبد . "

ويطرح القضية على هذا المستوى ، تنهياً الأذهان لنوع من الصراع
فريد ، ان ربما امتد أحد الجوادين بخطوة او خص أحد القضيين
بربوة ، أو كان أحد السهمين أنفذ مصيرا ، أو راح أحد النجمين أضواء تنويرا

(١) المصدر نفسه : ٣١١ - ٣١٢ .
(٢) الذخيرة : ق (١) ، ج (١) ، ص ٥٢٣ .

أوغدت إحدى الزهرتين أحدى غضارة ، أو أمست إحدى البارقتين أسنى انارة ، فالالمقصر يرتقب تقدما ، وتقارب الحالتين في النجاسة ، يشب نار المنافسة ، وان حال بينهما قدح النقاد ، وقبح نحاسند الاضداد " . وحتى لا يتهم الكاتب بالتحيز ضد أصحاب السيف ، وحتى لا ييخس أصحاب القلم حقهم نص من بداية المناظرة على أسباب التنافس بينهما وبررها بقوله : " ١ " ان السيف والقلم لما كانا مصباحين يهديان الى القصد من بات يسرى الى المجد ، وسلمين يلحقسان بالكواكب من ارتقى لساحات المراتب ، وطريقين يشرعان نهج الشرف لمن تقرب اليه وشفيعين لا يوهخر تشفعهما . . . جررا أن يسأل الخيلاء تفاخرا وآشما بأنف الكبرياء تنافرا . . . " فيبدأ الحوار بينهما ويستمر ويتسم بالعنف في الرد والاتهامات المتبادلة حتى يوفق الله بينهما وينهيا الى الصلح : " فأجمل ردا نرتديه ، وافضل حذا نحتديه ، وأهدى سبيل نقصد ، وأصفي منهل نرد ، موهقة نجرر أن يالها ، وشميل ميلها ، ومعاشرة نتجانى ثمارها ، ونقاد ونتماطى عقارها . . . "

الخصائص الفنية لاسلوب الرسالة :

يعني الكاتب بطرح القضية على بساط البحث والمناظرة عتسى نحو ما يدور في حلقات المتناظرين ، وذلك بالتماس الاسباب والمسببات الداعية لعقد المناظرة (كما في القطع الاول من الرسالة) كما يلتبس الكاتب - على لسان كل فريق - الأدلة المدعمة لوجهة نظره ، القائلة بزعامته وبإحقيته في السيادة من القرآن الكريم ومن المأثور وغير ذلك ، على نحو ما يفعل المتناظرون في مجالسهم . " فقال القلم : . . . والافضل من فضله الله - عزوجل - في تنزيله مقسما به لرسوله فقال : (ن . والقلم وما يسطرون)) وقال : (اقرأ وربك الأكرم الذي علم بالقلم)) فجسبل من مقسم وعز من قسم . فما تراني وقد حللت بين جفن الايمان وتناظره ،

(١) الا الرسالة كاملة في ملحق : ق ١ ج ١ من الذخيرة :

وجلت بين قلب الانسان وخاطره ؟ لقد أخذت الفضل برمته وقدت
الفخر بأزمته " ، ويلخذ الكاتب من مثل هذه الرسائل سببا لاستعراض
ثقافته في مناخي التفكير الدقيق المستقصي ، حين يحاول كل فريسيق
من المتناظرين أن يدفع حجج خصه ويفحمه بأسلوب المناطقة فسي
الشماس القياس كقول : القلم مدافعا عن صفر حجمه وقلة ثمنه " .
" . . . ألا وان الذهب مفدنه العفر وهو أنفص الجواهر ، والتسار
مكمنها في الحجر وهي احدى العناصر ، وان الماء وهو الحياة ،
أكثر المعاييس وجدانا وأقلها اثانا ، وقلما تلقى الاعلاق النفيسة
الا في الأمكنة الخسيسة " . كما أن الكاتب يصرح بانه كان يقصد من
رسالته اظهار براعته وبلاغته وذلك في الابيات التي ختم بها الرسالة ،
حيث يقول - موجها خطابه الى أميره أبي الجيش موفق العاصري -

يا أيها الملك السامسي بهمته
الى سماء قد أعيت الهمما
لولا طلابي غريب المدح فيك
لما وصفت قبل ملك السيف والقلم
وانما كان تعريضا كشفت به
من البلاغة وجهها كان ملتثما

ومثل هذه الرسائل لا تخلو من السخرية الحادة في محاولة لكسر
هيبة الخصم واذلاله ، والتهوين من شأنه كقول السيف عن القلم :
" يا الله ؟ استنتت الفصال حتى القرعي ، ورب علف تحت الراعدة
لقد امتدادا بيناع قصيره ، وانتفاضا بجناح كسيره ، أمستعرب
والفلس شمنك ، ومستجلب وكل بعقه وطنك ؟ جسم عار ودمع جار
تحفى فتتعل برها حتى يفود جسمك فينا . . . "

ولعل الباحث يستطيع أن يرى بوضوح تفضيل ابن برد لاصحاب
القلم ، ونصرته لهم ، خاصة اذا نظرنا فيما أورده من حجج دفع بها
أصحاب السيف ، وذلك انه وصفهم بتكبر ما أخلصه الأخاء وتوليد اسباب

الغتن ، أو في قوله على لسان السيف : " . . . أقضي فلا أنصف ،
وأمضي فلا أحرف ، أزرى بالوفاء ، وأهتك اللامة هتك الرءاء " .
كل ذلك وغيره كثير مقابل ما أضفاه على أصحاب القلم ، ولعله
يخص نفسه في هذا المقام بصفة خاصة وهل أنا الا قطب تدور
عليه الدول ، وجواد شأوه يدرك الامل ، شفيع كل ملك الى مطالبه
ووسيلته الى مكاسيه ، وشاهد نجواه قبل كل شاهد ، ووارد معناه قبل
كل وارد

وانا علمنا أن الرسالة مهداة الى أبي الحبش الموفق العامري ،
لم يغيب عنا ان بها منحا رمزيا قصد اليه ابن برد ليلفت نظره الى ضيعة
الكتاب والوزراء - وهو منهم - ويستحدي في أخذ بعض الحق لهم ممن
أصحاب السيوف والحرب ، ومن هنا نلتس له العذر ان جاءت أدلته
أقوى حجة وأنصع بيانا في حق القلم دون السيف .

رسائل الورود :

وهي رسائل أدبية كتبها الادباء على السنة الورود والأزهار . .
كل يفضل وردا أو زهرا بعينه ، وهي تسلك مسلك قصص الأمثال ،
والأساطير حين تجعل الكلام على السنة الحيوان أو النبات ، وهي
ربما رمي بها الى معنى عظيم من العظة والاعتبار . كما لا تخلو ممن
منحى رمزي قل أو أكثر ، والاسلوب قوامه الجدل والنقاش ، بالسراى
أو الدليل ، يرمى الى تنفيذ الرأى المعادى سواء بأدلة وبراھيم
من الكتاب والسنة أو بأدلة عقلية او استنباطية من الآثار والاخبار ،
أو بكل ذلك معا .

وأول ما يظالعنا في هذا المجال في الأندلس رسالة لابن برد
الأصفر اهداها الى ابن جمهور "أ" تحكي : " أن صنوفاً من

(١) ابو الوليد محمد بن جمهور ، صاحب قرطبة ، كان حافظا للقرآن
مجودا لحروفه وكان مشاركا في العلوم والآداب توفي سنة ٤٦٢ هـ
الصلة : ٥١٧/٢ .

الرياحين وأخباسا من أنوار البساتين ، جمعتها في بعض الأزمنة لخاطر
خطر بنفوسها وهاجس هيجس في ضماثرها ، لم يكن لها بد من
التفاوض فيه والتحاور والتعاكم من أجله " ١ "

وكان هذا الخاطر عقد لواء الرئاسة للورد على جميع أنواع
الأزهار والرياحين ذلك لأنه : " الأقرب حسبا والاشرف زمانا ،
ان فقد عينه لم يفقد أثره ، وأوغاب شخصه لم يغب عرفه " . وتظهر
نزعة الكاتب الجدلية حين تستند الى خصائص الورد ويستغلها
باستنباط أدلة عقلية منها يؤيد بها قضية . وهي الاجماع على مبايعة
الورد ، نحس ذلك حين يستغل اللون الأحمر للورد : " وهو احمر
والحمرة لون الدم ، والدم صديق الروح ، وهو كالياقوت المنضد ،
في أطباق الزبرجد ، وعليها فرائد المسجد ، وأما الاشعار
فبحاسنه حسنت ، وباعتدال جماله وزنت " . أما النرجس الأصفر
فيشكو من سقم جسمه في حب هذا الرئيس وهو الورد : " والذي مهبط لي
حجر الثرى ، وأرضعني ثدى الحيا ، لقد جئت بها أوضح من لبنة
الصباح ، واسطع من لسان المصباح ، ولقد كنت أسر من التعبد له ،
والشفغ به ، والاسف على تعاقب الموت دون لقاءه ، ما أنحل جسمي ،
ويمكن سقمي ، واذا قد أمكن البوح بالشكوى ، فقد خف ثقل البلوى " .
وأما البهار فقد سلم بالقيادة مباركا قائلا : " لا تنتظرن الى غضارة
منبتي ونضارة ورقتي ورقتي ، وانظروا اليّ ، وقد صرت حدقة
باهتة تشير اليه ، وعينا شاخصة تندى بكاء عليه :

ولولا كثرة الباكين خولسي

على أخوانهم لقتلت نفسي " ٢ "

-
- (١) الرسالة كاملة في الذخيرة : ج ٢ ص ١٢٧ .
نهاية الارب : ١٩٦٦/١١ - ١٩٧ ، ط القاهرة - سنة ١٩٣٥ م
(٢) البيت للخنساء ، ديوانها : ٨٨ ، ط بيروت ١٩٦٣ م .

أما الختري ^١ فقد استغل ابن برد خصائصه الطبيعية فسي جعله يعطي البيعة راضيا مقرا بفضل الورد عليه فقال : " والسدى أعطاه الفضل دوني ، ومد له بالبيعة يميني ، ما اجترأت قط اجلالا له ، واستحيا منه ، على أن أتفس نهارا أو اساعد في لذة صديقا أو جارا ، فلذلك جعلت الليل سترا ، واتخذت جوانحه كنا " .
والذي يعني أن ابن برد قد استغل خصائص الورد الطبيعية ووصفها بها على نحو جدال ومناظرة وحوار ، يدلي فيه كل زهر وورد بوجهة نظره ، لينتهي المجلس باجماع على كتابة عقد لهذه المبايعة ، نصه : " هذا ما تحالف عليه أصناف الشجر ودروب الزهر وسميها وشتوبها وربيعيها ، وقبظيها حيث مانجت من تلعة أو روبة ، وتفتحت في قراره أو حديثه عندما راجعت من بصائرها وألهميت من رشادها واهتدفت بما أسلفت من هفواتها وأعطت للورد قيادها ، وملكته أمرها ، وعرفت أنه أميرها المقدم بخصاله فيها ، والموقر بسوابقه عليها ، واعتقدت له على السمع والطاعة والتزمت له الرق والبعبودية وبرعت من كل زهر نازعته نفسه المباهاة له ، والانتزاء عليه في كل وطن ومع كل زمان . . . " .

أما ابو الوليد الحميدي ^٢ فقد أنكر مبايعة أزهار ابن برد للورد

-
- (١) الحسيري : نوع من الزهور ويسمى " النمام " .
(٢) هو اسماعيل بن محمد بن عامر بن حبيب ، الوزير الكاتب ياشبيلية له ولأبيه ، قدم في الأدب والرياسة توفي قريبا من سنة ٤٤٤ هـ الجذوة : ١٦٢ ، ترجمة رقم ٢٩٥ ، وذهب ابن سعيد إلى أن المعتضد بن عباد هو الذي قتله (المغرب : ٢٥٠/١) ، وابن الأبار هو الذي أقام قناته وصقل مراته فأطلقه شهابا ثاقبا . . . ولو تحاماه صرف الدهر وامتنع به طلق العمر لسد طريق الصباح ، وغير وجوه الرياح وله كتاب " الهدية في فضل الربيع " الذخيرة : ق ٢ ج ١ ص ١٢٤ ، البغية : ترجمة رقم ٥٣٤ .

وكتب رسالة للمعتضد بن عباد يباع فيها البهار ، ويذكر في
مستهلها أن أول من رأى كتاب مبايعة الأزهار للورد " نواوير فصل
الربيع التي هي حديرة الورد في الوطن وصحابتها في الزمن ، ولما قرأته
أنكرت ما فيه ومنت على هدم مبانيه ونقض معانيه ، وعرفت الورد بما عليه فيما
نسب اليه من استحقاقه مالا يستحقه ، واستهاله مالا يستأهله ،
ورأت أن مخاطبة من أخطأ تلك الخطيئة ، وأدنى نفسه تلك الدنية ،
تدبير ذبى ، ورأى غير مرضي ، فكتبت الى الاتحوان والخسيري ،
الاصفر كتابا قالت فيه : لو استحق الورد امامه واستوجب خلافه ،
لبنادرتها آباؤنا ولعقدتها أوائلنا ، التي لم تنزل تجاوزه في مكانه
وتسجي معه في أوانه ، ولا ندرى لأى شيء أوجبت تقديمه ورأت
تأهيله بما غيره أشكل له واحق به وهو نور البهار البادى فضله بسدو
النهار . . . " . وقد اتفق اقتضاب ابن بسام في ايراد هذه الرسالة
وقال في آخرها : " وطول أبو الوليد في رسالته هذه وختمها بمبايعة
الأزهار للبهار فرجمت عن تقديم الورد في خير طويل " ١

(١) الذخيرة : ق ٢ ج ١ ص ١٣٠ .

المعتضد : ابو عمرو عباد بن محمد بن اسماعيل ،
ملك اشيلية ، ولد سنة ٤٠٧ هـ امتاز بالشجاعة والقسوة
والعنف " كان شديد الجرأة ، قوى المنه ، عظيم
الجلادة ، مستهينا بالدماء " اعمال الاعلام : ١٥٦ ،
ويذكر أنه كانت له حديقة مليئة بالروءوس المحنطة من الملوك
والحجاب الذين أبادهم بسيفه ، البيان المغرب : ٢٠٥/٣
- ٢٠٦ ، وكان من أهل الأدب والشعر ، وتوفي سنة
٤٦١ هـ ، الجدوة رقم ٦٧٢ .

وأما أبو عمر الباجي^١ فيرسل الى ابن هود على لسان
السهار شاكيا الورد لما تعدى عليه واغتصب رئاسته قائلا :
" وقد علم الورد موقع امارتي ، وغني بلفظ ايمائي عن عباراتي ، وانها
ثحية الزهر حياك بها وخبثة دخرها لك ، وأهلك لها ، وقد
أتيت في أواني ، وحضرت وغاب أقراني ، ولم أعزل من خدمتك رتبتي
ومكاني ، ولم أعر من الحضور بين يدك نوبتي وزماني ، وانا عند
طبيع مسخر ومطوك يتصرف مدير ، حقيق بان يحسن السي^٢
فادني ، وجدير بأن يهتبل بي ولا أجفى لاني سابق حلبة النوار
وأول طلائع الأزهار وانا ناظر الفضل وعينيه ، ونضار الروض ولجينه
وقائد الظرف وفارسه ، وعاهد مجلس الانس وحارسه^٣ " .
وأما ابن حسداي^٣ الاسلامي فينتصر للنرجس حين

-
- (١) الفقيه أبو عمر الباجي : جليل القدر ، رحل الى المشرق
وحج ولقى قضاء حلب ، ثم عاد الى الأندلس فجل قسده
عند المقتدر بن هود ملك سرقسطة . وكان من بلفاء الكتاب
المغرب : ٤٠٥/١ ، الذخيرة : ق ٢ ج ١ ص
١٩٤ . القلائد : ١١٥ . اما المقتدر فكان من اعظم
ملوك الطوائف مع الدهاء والسياسة بالاضافة الى العلم والادب ،
توفي ٤٧٤ هـ / المغرب : ٤٣٧/١ .
(٢) الرسالة في الذخيرة : ق ٢ ج ١ ص ١٩٤ .
(٣) ابن حسداي : هو ابو الفضل حسداي بن يوسف بن حسداي ،
كان ابوه بالأندلس من بيت شرف اليهود ، متصرفا في دولة
ابن رزين باقليم السهلة ، وكان له في الادب باع ، ونشأ ابنه
أبو الفضل هضبة علاء وجندوة ذكاء وعني بالتحاليم وأسلم
وساد ، ونال حظا كبيرا من الشعر والنثر وبرع في علم الصدور
والهندسة والنجوم .
انظر : الذخيرة : ق ٣ ج ١ ص ٨٠ ، المغرب :
٤٤١/٢ ، النفح : ١٦٥/٢ - ٢٧١/٤ - ٢٧٣ ،
الحلة السيرا : ١٧٥/٢ ، المطرب : ١٩٦ ، اللائد :
٢٠٩ ، للخريدة : القسم الرابع : ج ٢ ص ٤٨٠ .

يجرى حوارا ، وليس بين النرجس وأحد الورود بل بين النرجس
وأحد حاشية الأمير المقتدر بن هود ، وذلك أن النرجس كان زاهيا
بنفسه ، شاعرا بحسنه ، فمر به ظريف من خواص الأمير ، فقطف النرجس
وجاوزة قائلا : " يا أيها الزهر الفارد والنوار الشارد ، الساحر
بحقدقه واجفانه ، الباهر بورقه وعقبانه ، مالي أرى قضيك غيراً
ذابلاً ومنابتك شعثاء ناخله " (١) . ولم تعرف ماذا كان جواب
النرجس لان ابن بسام لم يورد الرسالة كاملة وانما نجد أن النرجس عاد
يفتخر بذاته ويشكو حساده على مكانته لدى الأمير قائلا : " فليت
الرياض تعلم بمكاني فتدبل كندا ، وتذوى حسدا ، وتراني وقد
أنرت في افلك البهيج ، وزهرت في روضك الأريج " ، غازل عني
حسدهم بكيتهم ، فقد شجاهم تقدي قبل وقتهم " .

وكذلك نجد ابا مروان الجزيري- ولعله اول من كتب في
هذه الرسائل حين جعلها مقدمات لمقطوعاته الشعرية - يفضل البنفسج
على الأزهار جميعا في رسالته للمنصور بن أبي عامر حيث قال على
لسان البنفسج "٢" :

-
- (١) ساق ابن بسام فصلا من الرسالة في القسم الثالث ج ١ ص
٤٧٠ . وما بعدها .
- (٢) ابن الجزيري : عبد الملك بن ادريس الجزيري الكاتب ،
أبو مروان ، وزير من وزراء الدولة العاصمية وكاتب من كتابها ،
عالم أديب ، شاعر كثير الشعر غزير المادة ، معدود في
أكابر البلغاء ، ومن ذوى البديهة في ذلك له رسائل واشعار
مدونة ، ومن مستحسن مطولاته قصيدة له في الاداب كتبت
بها الى بنيه . قال صاحب الجدوة : لا أعلم لاحد مثلها في
معناها وتوفي سنة ٣٩٤ هـ . الجدوة : ٢٨٠ ، ترجمة
رقم ٦٢٤ ، البقية : ٣٦٤ ، المغرب : (١/ ٣٢١) ،
المطمح : ١٣ .
- (٣) الذخيرة : ق ٤ ج ١ ص ٣٣- ٣٤ ط القاهرة ١٩٤٥ م

"وقد ذهب البهار والنجس في وصف حنا سنهما والفخر
بمشابهما كل مذهب، وما منها الا ذو فضيلة غير ان فضلي عليهما أوضح
من الشمس التي تعلقنا ، واعذب من القمام الذي يسقينا . فاني
أتشبه بأحسن في شعرهما ببعض ما في العالم من جواهر الارض ومصايح
السماء ، وهي موت من الموات الصامت ، فاني أتشبه بأحسن ما زين الله
به الانسان وهو الحيوان الناطق . مع أنني اعطر منها عطرا ، وأحمد خيرا
واكرم امتاعا شاهدا وغائبا ، ويانعا وذاهلا وكلاهما لا يمتع الا ريشا
يصنع ، ثم اذا ذبل نستكره الانوف شمه وتستدفع الا كف ضمه ، وأنا
امتع رطبا ويابسا ، وقد خرتي الطوك في حزائنها وسائر الاطباء . . .)
ولعلنا لانعدو والصدق اذا رأينا في هذه الرسائل صدى
للحالة السياسية لعصر ملوك الطوائف ، وكان كل كاتب قد اتخذ من
ورد معين رمزا لأسيده أو وولي نعمته ، يجعل من تغرده بين الورود
تظييرا لتفرد أميره بين الامراء ، كما اننا قد لانعدو والصدق اذا عدناها
مناظرة بين الكتاب تشف عن الصراع والحسد في بلاطات الامراء ، فكل
يشكو حساده ويرجو التميز على أقرانه ، ألم يقل الباجي في رسالته
السابقة الى ابن هود على لسان البهار " اطال الله بقاء المقتر بالله
مولان وسيدى ومعلي حالي ومقيم أودى ، وأعانني من خيبة المناء
وعصمني معه ضمن اخفاق الرجاء ، ولا أشمت بي عدوا من الرياض
يناصرني ، وما سدا من النواوير يراقبي . . . " بل قال في صراحة
" وقد أتيت في آواني ، وحضرت وغاب أقراني " وقال ابن حسداى
الى ابن هود على لسان النرجس : " . . . فأزل عني حسدهم بكبتهم و
فقد شجاهم تقدمي قبل وقتهم " . وقال الجزيري لابن أبي عامر على
لسان البنفسج " . . . اني اعطر منها عطرا وأحمد خيرا ، واكرم
امتاعا شاهدا وغائبا " .

وهذه الرسائل أيضا تحتل مناحي من الرمز ابعد من ذلك فقد
تكون رمزا لتفاخر بنات الامراء والملوك " ١ " في الجمال والرتبة أو رمزا

(١) لعله من الدليل على ذلك ان المنصور بن أبي عامر سمي ==

لتنافس الجوارى داخل القصور لاحتياز قلب أحد الامراء كما يذكر احسان عباس "أ" ، أو أن مجلس الجماعة بقرطبة أصبح سوريا لا يملك الا الانعان والتسليم للحاكم في كل الأمور .

وقد يتساءل الباحث : لماذا اختصت الورود - بصفة خاصة - بهذه المفاضلات والمناظرات ؟ لم استطع الوصول الى نص يهدى الى حقيقة يطمئن اليها ، وتفسر بها نشأة هذا اللون ، ولكن الثابت أن قصيدة ابن الرومي في تفضيل النرجس على الورد والتي مقلعها :

==
بناته بأسماء الأزهار ، والثابت أن الشعراء قد وصفوا
الأزهار في قصائد هم على نحو يظهر فضائل بنات المنصور نفسه
من حيث قال ابن بسام في ترجمة الجزيري مثلا : ومن
شعره أيضا مما اندرج له في اثناء نشره الذي ملح فيه مخاطبته
على السنة كرائم المنصور بن ابي عامر بزهور رياضه مثل :
بهار العامرية قصيدة أولها :

حدق الحسان تقر لي وتفار
وتضل في صفتي النهى وتحار

ومن آخر لي نرجس العامرية :

حيثك يا قمر العلاء والمجلس

أزكى تحيتها عيون النرجس

ومن أخرى بنفسح العامرية :

شهدت لتوار البنفسج السن

من لونه الأحوى ومن ايناعه

انظر الذخيرة : ق ٤ ج ١ ص ٣٤ ط القاهرة ١٩٤٥ م

(١) تاريخ الادب الاندلسي (عصر الطوائف والمرابطين) ص ٢٩٣

خجلت خدود الورد من تفضيله
خجلا توردا عليه شاهد^١

قد تركت صدى كبيرا بين الشعراء الاندلسيين ، مثال ذلك
ما ذكره ابن الآبار في ترجمته لجمهور بن عبد الله بن أبي عبد ه حين
قال عنه " . . . وكان شاعرا مكثرا . فمن قوله من أبيات في تفضيل
الورد وكأنه يريد بها على ابن الرومي : "٢

خضعت نواوير الرياض لحسنه
فتذلت تنقاد وهي شوارد
وانابتى الورد في أغصانه
ذلت ، قداميت وهذا حاسد

والى هذا المعنى ذهب الحميدى حين ترجم السعيد بن محمد
ابن فرج بقوله : " . . . وله من قصيدة طويلة في الرد على أبي الحسن على
ابن العباس الرومي في النرجس . . . "٣

عني اليك فما القياس الفاسد
الا الذى رد العيان الشاهد
أزعمت أن الورد من تفضيله
حجل وناحله القضية عائد . "

-
- (١) ديوان ابن الرومي : ٦٤٣/٢ ، تحقيق حسين نصار ،
ط القاهرة : ١٩٧٤ م .
(٢) الحلة السيرة : ٢٤٧/١ - ٢٤٨ ، تحقيق حسين
مونس .
(٣) جذوة المقتبس : ٢٢٨ ، ترجمة رقم ٤٦٣ .

وقد حاول الدكتور احسان عباس تلمس مخرج لهذه الظاهرة في الأدب الأندلسي حين قال " ١ " : " أما القطع الشعرية والنثرية التي كتبوها للمفاضلة بين نور ونور ، وأحدهم يرد فيها على الثاني ، فقد استحوذوا بمقدرتهم الجدلية ، واتخذوا من الطبيعة موضوعا للجدل بدلا من أن يكون جدلهم حول شئون العقيدة إذلا كانت المناظرات في امور العقيدة مظنة خطر ، وما زال شأنها ضعيفا حتى ظهور ابن حزم ، وكانوا في الحالين يرضون لديهم ميلا عقليا أكثر من توفريهم على اقامة الصلة العاطفية بينهم وبين المنظر الجميل " .

فالدكتور عباس يحاول ان يربط هنا بين العداء الفكري للفلسفة والجدل بعصر المرابطين وبين هذه المناظرات ، ولكن الواقع التاريخي لا يدعم هذا الربط ، ولا يبرر وجود مثل هذه الصلة ، ان هذه القطع النثرية كانت في عصر الطوائف وما قبله ، ومن ثم لا معنى لا ستنتاج عباس بانهم قد اتخذوا من الطبيعة موضوعا للجدل بدلا من أن يكون جدلهم حول شئون العقيدة ، اما ارضاء الميل العقلي وحده فلا أغنه تفسيره كاملا يبرر كل هذا العداء من القوائد والقطع الشعرية . والرأى عندى ان هذه المناظرات كانت أدخل في باب شعر الطبيعة ووصفها ، وقد استفل الاندلسيون - لما فتح ابن الرومي هذا الباب - ما حبتهم به الطبيعة من جمال ، وأقاموا حول هذا الجمال موضوعا ادبيا تنافس الشعراء والكتتاب في ابداء البراعة فيه ، وهذا ولا نخلي الامر من التأثر العام بمدارس الجدل واساليب المناظرة والاحتجاج ، وذلك أن الموضوع بعناصره تكوينه يتيح لمثل هذا الاسلوب في العمل الادبي اكثر من غيره . هذا بالاضافة الى ان الادب الأندلسي انفرد عموما في شعره ونثره ، بظاهرة المعارضة قصيدة واحدة تشير عدة قصائد او رسالة تشير عدة رسائل

(١) تاريخ الادب الأندلسي : (الطوائف والمرابطين) :

أو كتابا يستمد عي آخرًا تذيلا عليه ، وهي ظاهرة لم نجدها بهذا الوضوح في أدب المشرق .

خصائص اسلوب رسائل المناظرات :

لعل أهم خصائص هذه الوسائل ميلها الى الاسلوب الخطابي حيث تتابع الجمل والمترادفات وتقسيم الجملة فقرا فقرا ، مع عناية خاصة بالايقاع ومراوحيه بين الاساليب البلاغية من سجع وازدواج وجناس وطباق مع رصانة هذا الاسلوب وجزالته ، وذلك بحل الشعر وتضمين الامثال والاستشهاد بالمأثور من القول . مثال ما جاء في رسالة السيف والقلم على لسان السيف : " جمعة رحي لا يتبعها طحن ، وجلجلة رعد لا يليها مزن . . . " . كما ان من الخصائص الفريدة لاسلوب رسائل المناظرات العناية الفائقة بالخيال ، وهو خيال متأثر بحكايات الاساطير في ادارة الحديث على السنة غير الانسان وتمثل لهذا (برسائل الورود) السالفة الذكر ، ولعلها قد تأثرت الى حد ما بمناحي الرمز في قصص " كليلة ودمنة " ، أما ان الجدل في خصائص هذا الاسلوب فهذا ما لا تحتاج الى التذليل عليه . وقد ذكرنا فيما تقدم أن هذا اللون عموما من ثمرات تلاقح العرب بالثقافات الأخرى ، وقد توسعت العقلية العربية في هذا الاسلوب في ظل الاوضاع السياسية والاجتماعية السائدة فدخل ميادين ارحب حينن طرق بساب السياسة وابواب الحياة العامة . وانا أردنا ان نعرف قيمة مثل هذه الرسائل الأدبية عند كتاب الاندلس أنفسهم فيحسن ان نرجع الى رسالة الباجي المتقدمة ، كأنموذج لهذا اللون ، فانها كانت في نظر ابن الحنات (١) وهو كاتب قدير - مثالا للبلاغة والبيان الرفيع ، حيث

(١) ابن الحنات : ابو عبد الله محمد بن سليمان بن الحنات - =

قال في وصفها : " بعثت اليك برسالة الوزير الكاتب أبي عمر الباجي في النهار منقولة بخطي على اختلاله واختلاف اشكاله ، الا أن حسن الرسالة ، وموضعها من البلاغة والجزالة يغطي على قماءة خطي ، ودناءة /ضبطي فاجتلتها - أعزك الله - عروس فكر ، لحظتها حير ، ولفظها سحر ومعناها بديع ، ومنتهاها رفيع ، ومرماها سديد ، ركب اللفظ الغريب ، فاعتنن له المراد البعيد يطمع ويؤيس ، ويوحش ويؤنس ، فاما اطماعها فيما تحرز من لدونة الفاظها ، وسهولة اغراضها ، واما اياسها فيما يعجز من امتثالها ، ويعد من منالها ، والله يمتعك برياض الآداب تجتني ثأزهارها وتنتقي خيارها " ١

ثالثا : الرسائل

ثالثا : الرسائل العاطفية :

هي تلك الرسائل التي يطفى فيها شعور العاطفة والوجد على غيره من المشاعر وهي رسائل الانفعال والتهيجان العاطفي قبل الفكر والخيال ، ولذلك يقل فيها الوصف ويرتبط الاسلوب وصياغته بالذات ، ويتراوح طبقا لذلك ، هدوا وثورة وحدة وانفعالا . قد تكون رسائل الوجد ديني او رسائل شكايات واعتذاريات او رسائل تتم عن لها احساس بالفقرية الروحية والضياح أو هي رسائل تعبير عن عاطفة الحب .

==
الرعييني زه قال فيه ابن بسام : وأبو عبد الله هذا زعيم من زعماء العصر ورئيس من رؤساء النظم والنثر في ذلك الأوان . . وكانت بينه وبين ابن شهيد متناقضات في عدة رسائل وقصائد اشرفت ابا عامر بالماء ، واخذت عليه بفروج الهواء / الذخيرة :
ق ١ ، ج ١ ، ٤٣٧ ، وقال ابن حيان : في سنة ٤٣٧ هـ نعي الينا ابو عبد الله الحنيط الشاعر الضير القرطبي ، بغية الانباء التحارير في الشعر . . كان اوسع الناس علما بعلم الجاهلية والاسلام ، عالما بالافلاك ، حاذقا بالطب والفلسفة ماهرة في العربية والآداب الاسلامية / نفس المصدر السابق :
انظر الجدوة : ص ٥٨ ، الخريدة : ٢ / ٢٢٣ .
الذخيرة : ق ٢ ، ج ١ ، ص ١٦٥ (١)

رسائل الوجد الديني :

يكتب بها من لم تسعده الظروف بزيارة بيت الله الحرام ،
ومسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم وقبره الشريف ، وهي بذلك تدخل
في باب رسائل العاطفة لما بها من شوق الى امنية عزيزة حرمتها النفس ،
وهي تصور هذه النفس المحرومة النائمة عن تلك الاماكن المقدسة حين
تتلمس ضربا من المزاء والسلوان المغمم بالحنين ، وقد يكتب بها الكاتب
على لسان من صدر من البيت الحرام كرسالة ابي القاسم ^١ بن الجعد التي
خاطب بها سيد المرسلين - عليه الصلاة والسلام . وفيها يقول ^٢ :
" قلبي يحبك معمور ومأعول ، وما عدل وعلى الايمان بك مفطور ومجبول
وتمثل ما عينته من عظيم آثارك مهول مشغول ومن لي بمقول لا يتخلله
خلل ، ولا يدركه في الصلاة عليك والدعاء لك ملك ، ولا يشغله
عن ذكر الله تعالى وذكرك سهو ولا خطل . . . " .

فابن الجعد لم يصد ر حقيقة عن البيت الحرام ولكنه - تنفيسا عن
ذاته المتلهفة - استعمار ذاتا قد صدرت ومن ثم اجتر تجربتها ، وتمثلها
بمعين احسانه . وهي تمثل لونا من احلام اليقظة ان يقول ^٣ :

-
- (١) ابو القاسم محمد بن عبد الله بن الجعد الفهرى المعروف بالاحدب
تولى خطة الشورى في بلده ريه ، وتقلد وزارة الراضى
ابن المعتمد بن عباد في رنده ثم كتب لابي الحسن علي بن يوسف
بن تاشفين ، وكان متفنا في المعارف والعلوم مقدا فسي
الأدب والبلاغة ، وله حظ جيد من الفقه والحديث ، وكان
فاضلا حسن العشرة توفي سنة ٥١٥ / انظر ترجمته فسي
القلائد : ١٠٩ ، الصلة : ٥٧٤ / ٢ ، المعجب ،
١٢٤ ، المطرب : ١٩٠ ، الخريدة : ق ٤٣ ج ٢
ص ٣٥٧ ، المغرب : ٣٤١ / ١ .
(٢) الذخيرة : ق ٢ ج ١ ص ٢٨٧ .
(٣) نفس المصدر والصفحة .

" ولما صدرت يا رسول الله عن زيارتك الكريمة ، وقد ملأت هيبتك ومحبتك أرجاء فكري ، وقضاء صدى وغشيني من نور برهانك ما بهر لبي ، وعمر قلبي ، لحقني من الأسف لبعث مزارك ، والحنين اللى شرف جوارك ، ما أودع جوانحي التهابا ، واوسع جوارحي اضطرابا وأشمر املى عودا ، اللى محلك المعظم ، واياها ، وكيف لا أحسن اللى قريك وأتهالك فى حبك ، واعفر خدى فى مقدس تربك ، وبك اقتديت فاهتديت ، ولولاك ما صمت ولا ضليت ، ولا سعيت ولا طفت ، بل كيف لا يتحرك نحوك نزاعي ، ويتأكد انقطاعي ، وبسبك استشفاعي واليك مفزعي يوم الداعي ، فلا تنس لى يا رسول الله عيادى بك وليادى واسراعى اللى زيارتك ، واعتزازى ، واذكرنى فى اليوم العظيم المشهود ، عند حوضك المورود ، وظلك الممدود ، ومقامك المحمود . "

وابن الجدى ان كتب هذه الرسالة على لسان من صور من البيت الحرام ، فقد كتب أخرى مهنتا ومن سعد لت بتلك الزيارة التى هبى الحلم والأمنية يقول : " كُتبت وقد هزني وافد البشرى ، واستخفنى رائد المسرة الكبيرة مما سناه الله عن قدومك محوط الجوانب والارجاء ، منوط الفخار بذوائب الجوزاء ، محطوط الآثار فى مواطن الرسل ، ومواطنى الأنبياء ، قبالها حجة مبروره ما أقم مناسكها ، وأوضح فى مناهج البر مسالكها . . . " ثم يغيب فى حلمه حين يتخيل هذا السعيد وقد شرع فى اتمام مناسك حجه : " . . . واهتز البيت المعتيق لطوافك واستلامك ، ورضيت العروة والصفاء عن كمال أشواطك ، وتهلل بطن المسيل لسعيك فيه وانحطاطك ، ثم بالموقف الأعظم من عرفه سطع عرف تخشعك ودعائك ، وارتفع خفض تضرعك واستخذائك وفى البيت الاكرم من المزدلفة خطى تقريك وتزلفك وزكا تهجدك وتتفلك ، وعند الافاضة فاضت الرحمة عليك ، وكملت النعمة لديك ، وأما منى

(١) المصدر نفسه : ص ٢٨٨ - ٢٨٩ .

(٢) الذخيرة :

ففيها قضيت مناك وأوطارك ، وقبلت هداياك وجمارك ، وحطت
خطاياك وأوزارك

ثم يختم رسالته بتمثله رحلة الحج كاملة بعد أن تنقل فسي
مشاعر الحج ومشارف المدينة المنورة ، ووقف على القبر الكريم ،
فيقول مهنتا لذلك العائد من تلك الرحلة : " فهناك الله مانحك
من جزيل الأجر في مواقف الحرمين وأطار لك من جميل الذكر في
الخافقين ، ولما قعد بي عن قصدك ما قعد ، ولم يمكني الوفسود
عليك في جملة من وفد . استنبت كتابي منابي . "

ونجد أيضا رسالة لابن ابي الخصال ^١ في نفس الغرض
يعبر فيها : " عن دمع يفسح ونفس يلفح و صدر باشواقه ملاّن يطفح
. . . وزفرة باحناء الضلوع تجي ، وتذهب ، وحشاشة بطرائق البعد
عنك تنهب " ^٢ ومرد ذلك الأسي وهذا الحزن أني : " لم
أعبر الى زيارتك لجة ولا موماه ولا أخطرت في معترك نفسا أنت منقذها
مجتبها ، ولا منلت بمعاهدك المشهورة ، ومشاهدك المطهرة .
فان كان هذا حاله فحق له ان ان يتعنى النفس وضيقتها بقوله :

(١) هو الوزير الكاتب الشاعر ابو عبد الله محمد بن مسعود بن أبي
الحضال الخافقي ، أصله من أهل شقورة ، سكن قرطبة ،
وكان مفخرة وقته متفنا في العلوم متبحرا في الآداب واللغات
وكان كاتبها وزيرا لابي الحسن علي بن يوسف بن تاشفين ، وله
ديوان رسائل شغف به أهل الأندلس ، وجعلوه اماما يحتذونه
ومن كتبه (سراج الأدب) ذكره المقرئ في النسخ :
١٨٤/٣ ، وكتاب ظل الغمامة وطوق الحمامة . ذكره ابن دحية
في المطرب : ص ١٨٢ . توفي قتيلًا سنة ٥٣٩ هـ ،
أو ٥٤٠ هـ ، وكان مولده سنة ٤٦٥ هـ ، انظر ترجمته في :
الصلة : ٥٨٩/٢ ، بغية الملتبس : ١٢١ ، ط مدريد
١٨٨٤ م ، الخريدة ق ٤ ، ج ٢ ، ص ٤٥٩ ، مجمع
الصيرفي : ١٤٧ ، المعجب : ١٢٦ .

" فوا آسفا الا أهب الي ذراك مستقبلا ، والا أكب على ذراك مقبلا
والا أصافح من تلك العرصات مدارس الآيات ومهبط الوحي والمناجاة
... " ثم يخيب في أحلامه داعيا ربه أن يبلغه أمنيته التي لا تزال حلما
وهي زيارة قبر الحبيب المصطفى - عليه الصلاة والسلام - " اللهم كما
جعلتني من أمته واستعملتني بسنته وشوقتني الى آثاره ، وشفلت
قلبي بتخيله وتذكاره ، وأريتني تلك المعالم المنيفة خيالا ، وخططت
منها في الضمير مثالا ، وأشهد تينسامل المسامح والغواد جمالا ،
فأشف بمرآها بصرا ضريرا ، وأكمله بسذاها بيرت بصيرا ... " .
ثم نجد ابن أبي الخصال يمتذر عن رسالته هذه ان " لو أوتيت
يارسول الله يارسول الله سوء لي لسبقت اليك كتابي ورسولي ، لكن
قل الوعد ، واستغل السفر وغادرني حرضا ولسهامهم بالوجد
والأسى غرضا ، أتبعهم نفسا لا يوهوب وقلبا يسحقه القلق والبشوب " .
ومن أجل ذلك " لم أملك يارسول الله الا رقعة تشكو بث التبريح
وتحية خفيفة المحمل طيبة الريح " ويختم الرسالة متشوقا الى قضاء
الحج وشهادة مواقيته ويشفع ذلك بقصيدة طويلة .

اما عن سبب كتابة مثل هذه الرسائل ، فهو كما يقول احسان
عباس : " (١) ... وسيلة للتعبير عن التدين الكامن في النفوس ،
ولكنها بالنسبة للأندلس الآخذة بالضياح تشبث الغريق بحبل النجاة ،
وتنفس عن الحيرة النبوية في ظل الأهواء المتنازعة والامارات المنقسمة
وكلما اشتدت وطأة الحياة السياسية على الأندلسيين وندهم اصبح
التفاتهم الى " مصدر الدين " أقوى ، وحنينهم اليه أشد ، تعلقا
منهم بخيط من خيوط الرجاء " . ورغم عمومية هذا التفسير وشموليته
فانه ينفذ الى شيء من حقيقة هذا الموضوع . وقد حاولت من نصوص
الرسائل أن استقرى أسبابا لكتابتها ، فوجدتها جميعا تلتقي عند

(١) عصر الطوائف والمرابطين : ٣٠٧ .

حد الرحلة الخطيرة وبعد المسافة وما يكتنف هذه الرحلة من مشاق وأهوال وصعاب تعتبر مخاطرة بالنفس الم يقل ابن ابي الخصال :-
" ولم أعر الى به زيارتك لجة ولا موماه ، ولا أخطرت في معترك نفسا " هنا يترجح أن الشوق مبعثه مشقة الرحلة التي جعلت أداء فريضة الحج تبدو في شكل أمنية عزيزة المنال . ان حرصها الكاتب في الواقع لجأ الى التعميؤض عنها في الخيال . وذلك بتمثلها واجترارها .

ولعله من الجدير بالذكر ان هذه الرسائل تؤكد على فكرة الكتابة والتدوين اكثر من المشافهة والخطاب وسندها في ذلك نفسي ، وهو ان الكتابة أكثر قبولا من المشافهة ، يقول ابن الجدي : " كتبت وقد هزني وافد البشرى " . ويقول ابن ابي الخصال : " كتبه يا واضح الأمر والاخلال " . وغني عن البيان ان هذا الغرض قد صار من أهم اغراض شعراء المتصوفة في الاندلس والشرق على السواء .

رسائل الغربة الروحية :

تصدر هذه الرسائل في الغالب عن اولئك الكتاب من ذوى التفوق العقلي والعلمي الذين لا يجدون من مجتمعهم المكافئة اللائقة بهم . فيتقدم عليهم في مراكز الدولة والحظوة لدى الحكام من لا يساويهم في رفعة المكانة ، ومن ثم فهي نغمة . مصدر يعبر فيها عن تجربة مريرة . يقول ابن زيدون في هذا المعنى " ١ " : " . . . ولم استغرب أن أسام مثل هذا الخسف في مسقط رأسي ومصق تلامي ، وأول أرض من ترابها جلدى ، فنظرت في مفارقة الوطن ، ان قد يمس ضاع النفاضل في وطنه وكسد العلق الغبيط في معدنه . . . " فهو هنا يصدر عن احساس بالاغتراب الروحي احساس الاديب بالقهر والضياع ومرده الشعور بالظلم وعدم التقدير وضيعة الولاء والذم احساس

الاديب بان صوته الصداح قد ضاع بينما ارتفعت أصوات من هم
دونه ، لهذا الاحساس زاد للادباء والشعراء يستمدون من صراعه قوة
دفع لا يداعهم .

وان كانت ثكبة ابن زيدون ذات بعد شخصي ضيق ، فهناك
لكبات أوسع وأشمل ، تتحول الى شكايات ذاتية مسببة الشـمـسـور
بالاغتراب . كما في رسالة الكاتب ابن الدباغ ^(١) التي يقول فيها "٢"
" كتابي وعندي من الدهر ما يهسد أسره الرواسي ، ويفقت الحجر
القاسي ، ومن أجلها قلب محاسني مساويا ، وانقلاب أولياءى اغاديا ،
وقصدى بالهفظة من حيث المقه ، واعتمادى بالخيانة من جانب الثقة ،
فقس بهذا على سواه ، وعارض به ما عداه ، ولا تعجب الا لثبوتى لما
لم يثبت له الخلق السرد ، وبقاى على ما لا يبقى عليه الحجر الصلد "
ومن ثم ، عاش الاديب مفتريا في وطنه بعيدا عن الناس يائشا من
خيرهم " انا والله فعلت خيرا فعدمت جوازيه ، وما أحمدت عوائده
ومباديه ، وزرعته فلم أحصد الا شرا ، ولا اجتنيت منه الا ضرا ، وهكذا
جدى فما أضع وقد أبى القضاء الا أن افنى عمرى في بؤس ، ولا أنفك
من نحوس " هذه المخاصمة مع الدهر والجور من الايام جعلته
يرى الموت أمنية عزيزة غالية لهذه النفس المعذبة وياليت باقية
قد انصرم وغائب الحمام قد قدم ، فمضى أن تكون بعد الصامت راحة
من هذا النصب ، وسلوه عن هذه الخطوب والنوب .

(١) هو ابو المطرف عبد الرحمن بن فاخر المعروف بابن الدباغ ،
نشأ في ظل الامير المقتدر بن هود ، وحدثت بينهما جفوة ،
فهاجر ولجأ الى المعتز بن عباد ، ثم الى المتوكل بن الافطس
ولكن سوء خلقه وكثرة فجوره لم تمكن له عند أحد من الامراء فرجع
الى سرقسطة وذبح في أحد بساطينها / انظر الخريدة ٢/٣٤٩ ،
القلائد : : ١٢٠ ، المغرب : ٤٤٠/٢ ،

(٢) الرسالة كاملة في الذخيرة : ق ٣ ج ١ ص ٢٥٢-٢٥٨ ،
وفي القلائد : ص ٢٢١ .

ولعل من أشد رسائل الفرية الروحية ايقاعا ما كتب به أحمد
ابن عباس "١" مخاطبا أهل غرناطة في أمر عشوه عليه بقوله : "٢"
" ، ، ، لم أعقر ناقة رضاكم فأسخط ولا أكلت من شجرة عقوقم فأشحت
واثما اعطيتمكم صفقة الطاعة لأكرم ، وانحرفت عنكم على زاوية المقه كسبي
لأهان ، ومنت على مهاد الثقة بكم لثلا اتهم ، ، ، وسبب
نفوره من قومه ، وع وتغريه عنهم ، ما اجتناه منهم من عدم التقدير والوفاء
بعد أن " أجهست نفسي في خدمة همواكم ، واتباع رضاكم ،
وصرت منقادا لرمز حمواجيك ، وتبما لركابكم ، على أنني ما أكلت من
حلوائكم ما يحطني في أموائكم ، ولا لحظت من دنياكم العريضة بلحظة ،
ولقد خينا من صفقات أرباحكم ، وصرنا على الحرمان من متاجركم ، وقنعنا
بشم قشاركم ، واستنشاق النسيم من لقاءكم . . . "

وقد يستعشر الاديب عبثا ثقيلًا ، لا يرجوله دفعا ،
ولا يستطيع منه خلاصا ، فيمضي يناجي النفس شاكيا حاله ، وضيعة
أمره وهوان شأنه كما في رسالة أبي الحسن الحصري "٣" التي قال

(١) هو وزير زهير الصقلي ملك المرية ، بد الناس في اربعة أشياء
المال ، والبخل ، والعجب ، والكتابة ، كما يروي ابن
بسام ، وكان حسن الكتابة جميل الخط ، مليح الخطاب ،
غزير الالب ، مشاركا في الفقه ، جماعا للدفاتر حتى بلغت
اربعمائة ألف مجلد ، وبلغ ماله خمسمائة الف مثقال جمعفية ،
وتوفي مقتولا سنة ٤٢٧ هـ .

انشر النسخ : ٥٣٥/٣ ، الاحاطة في اخبار غرناطة :
٢٥٩/١ - ٢٦٠ ، المغرب : ٢٠٥/٢ ، نقلا عن الذخيرة
ق ١ ج ٢ ص ٦٤٣ .

(٢) الذخيرة : ق ١ ج ٢ ص ٦٤٩ .

(٣) هو علي بن عبد الفني أبو الحسن القروي المعروف بالحصري ،
شاعر أديب رعيم الشعر ، حديد الهجو ، دخل الاندلس
وانتجع ملوكها بعد خراب بلده القيروان بعد الخمسين
واربعمائة / الجدوة : ٣١٤ ، قال فيه ابن بسام : كان بحر
براعة ورأس ضاعه وزعيم جماعة . ق ٤ ج ١ ص ٢٤٤٥ ، =

فيها " ١ " : " ماحياتي بين الحيات وثباتي في الجميع أو الثبات ،
وقد حانت وفاة الوفاء ، وخانت صفات الصفاء ، وأرداني الزمان بأرذائه ،
وأعياني يتقلب أعيانه ؟؟ الجاهل هو الحاظي ، والعالم مبخوس
الاحاظي ، والغاوي مقبول الدعاوي وما أبعد الخير من العير ،
والكيس من التيس ، والفضل من الفل ؟؟ إذا كان الجاه للجاهل ،
والباس على الباس ، والمنافق هو النافق وصوحت المراعي ، وقسل
المساعد والمزاعي ، فيا أهر ما أسهاك ، ويا موت ما أشهاك ،
المنية هي الأمنية ، فالهر بائر والحر حائر ، بين اخوان اخوان ،
وأجور جيران ، ان وصلوه ظرموه ، أو سألهم حرموه ، وان اجاب
بالصواب قالوا : أخطأ الجواب " .

ان هذه الشكايات التي كان سببها الشقاء والقهر أدت
بالتالي الى لون من الانصراف عن هذه الدنيا والمزف عنها والتفكير
بحياة أخرى أفضل وأكرم ، نجد هذا واضحا في رسال ابن ابي الخصال
والتي سمت بالشكوى الى مرتبة عالية من التشكي للنشر من حكام
وسلاطين وأمرء الى التوجه الى الله سبحانه وحده : " . . . الى الله
اشكوها نفسا قليلة الهدوء ، امارة بالسوء ، تعب جسعي في
مرادها ، ولعبت بي في ضلالات ارتيادها . . . " ٢ "

ويمضي متعففا عن دنيا الناس ، ونحس معه أن غرض رسائل
الاغتراب قد سما عن مجرد الغربة الروحية بين الناس ومضى يلتمس
طريقه في وجد وحنين أسر الى الذات اللغليا بعد أن غاق بدنيهما
البشر .

= و ذكر ابن خلدان في الوفيات : ٣٣١/٣ ، ان المذكور ابن

خالة ابي اسحاق الحصري صاحب زهر الآداب . / وانظر :

شذرات الذهب : ١٨٥/٣ ، الحله السيراء : ٥٤/٢ : ٦٧٠

(١) الذخيرة : ق ٤ ج ١ ص ٢٤٩ .

(٢) الرسالة كاملة في مخطوط (ترسل الفقيه الكاتب) ورقة ٧١

وقد نتساءل لم كان الاحساس بهذه الغربة منتشرا في الأدب الأندلسي ؟ لعل هذا الشعور قد تضخم لما بدأ الأندلسيون يستشعرون بكيانهم ، ويحسون بنبوغهم ، وتجاهل من حولهم ، لهذا النبوغ والاعجاب بكل ما يصدر عن المشرق من علم وأدب وفن .

ولعل منذر بن سعيد البلوطي^(١) قد عبر عن هذا المنحى النفسي الدقيق لما خطب في حضرة أمير الروم منتزعا اعجاب الحاضرين وقد ارتج على أبي علي القالي نجم الشرق فقال في نهاية خطبته مشيدا ببلاغته ، ولكن الذي أزرى به هو كونه أندلسيا وليس شرقي :

(١) هو منذر بن سعيد القاضي أبو الحكم ، يعرف بالبلوطي ، نسبة الى موضع قريب من قرطبة ، يقال له فحس البلوط ، ولي قضاء قرطبة في حياة الخليفة الحكم المستنصر بالله ، وكان عالما فقيها ، وأديبا بليغا ، وخطيبا على المنابر ورفي المحافل مصقعا ، وله اليوم المشهود الذي ملأ فيه الاسماع ، ذلك ان الحكم كان مشفوقا بالقالي يوءهله لكل مهم في بابه ، فلما ورد رسول ملك الروم أمره أن يقوم خطيبا جريا على العادة ، فلما شاهد أبو علي الجمع خانتته شجاعته ، ولم يساعده لسانه فسقط على الأرض ، فوثب البلوطي هذا وارجل خطبة عصماء أعجب بها من حضر وقال في ختامها الابيات المذكورة .

انظر الجدورة : ٣٤٨ ، نفع الطيب : (١) / ٢٤٠ .

هذا المقال الذي ما عابسه فند
ولكن صاحبه أزي به البلد
لو كنت فيهم غريبا كنت مطرفا
لكنني منهم فاغتالني النكد
لولا الخلافة أبقى الله بهجتها
ما كنت أبقى بأرض ما بها أحد

وقد عرّابن حزم عن دقائق هذا الشقور في قوله "١" : " ما
أشبهنا بالخرية التي خيرها يدفن ويشرها يعلن ، يتعب أحدنا
نفسه ، ويرهف حسه ، ويعارض السيف بفهمه ، والبحر بعلمه ،
والتاريخ بكائه ، والزمان بمضائه ، ونتائج فكره محجوبة وتنتجات
صدره غير مخطوبة :

ان يسمعوا رية طاروا بها فرحسا

عنه وما سمعوا من صالح نفنوا "

وقد ألف الفقيه أبو محمد بن حزم رسالته المشهورة في فضل
الأندلس وذكر علمائها ومشاهير رجالها وفيها يشير الى ان الاندلس
قد : " حضت من حسد أهلها للعالم الظاهر فيهم والظاهر منهم ،
واستقلالهم كثير ما يأتي به ، واستهجانهم حسنة ، وتتبعهم سقطات
وعثرات ، واكثر ذلك مدة حياتهم ، بأضعاف ما في سائر البلاد .
ان جاد قالوا سارق مغير ، ومتحل مدع ، وان توسط قال :
غث بارد وضعيف ساقط ، وان باكر الحيازة لتصب السبق قال :
متى كان هذا ؟ ومتى تعلم ؟ وفي أي زمان قرأ ؟ ولا الهل "٢"

(١) الذخيرة : ق ١ ج ١ ص ١١٥ ، ط القاهرة ١٣٣٩ هـ
وابن حزم المذكور : هو أبو المغيرة عبد الوهاب بن حزم وليس
أبو محمد الفقيه المشهور .
(٢) الرسالة في نفع الطبيب : ١٦٦/٣ ، تحقيق عباس .

ولعل هذا السبب نفسه هو الذي جعل ابن بسام يوافق كتابه الضخم الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة * ويطلب في مدح مسن يترجم له من الأدباء والشعراء ، وفي ذلك يقول في مقدمة كتابه المذكور^(١) : " . . . الا أن أهل هذا الأفق أبوا الأمتابعة أهل الشرق ، يرجعون إلى أخبارهم المعتادة ، رجوع الحديث إلى فتادة ، حتى لو نطق بخلق الآفاق غراب ، أو طن بأقصى الشام والعراق ذباب ، لجثوا على هذا ضا ، وتلوا ذلك كتابا محكما ، وأخبارهم الباهرة ، وأشعارهم السائرة مرمى القصة ، ومناخ الرديه ، لا يعبر بها جبان ولا خلد ، ولا يصرف فيها لسان ولا يد ، ففاظني منهم ذلك ، وأنفت ما هنالك ، وأخذت نفسي بجميع ما وجدت من حسنات دهرى ، وتتبع محاسن أهل بلدى وعصرى ، غيرة لهذا الأفق الغريب أن تعود بدوره أهله ، وتصبح بحاره ثابدا مضحكة ، مع كثرة أدبائه ووفور علمائه ، وقد يما ضيعوا العلم وأهله ، ويارب محسن مات احسانه قبله . وليت شمري قد قصر العلم على بعض الزمان وخص أهل الشرق بالاحسان ٢٢ " .

ومن هنا نطمئن إلى أن من أهم دوافع الاحساس بالفرة الروحية في الأندلس وجود فجوة عميقة بين الشاعر أو الكاتب وجمهوره ، وذلك أن الجمهور قد تعود انماطا من الخلق والابداع الادبي محددة وهي ماجأت به قرائح المشاركة ، ومن ثم لم تقبل بسهولة - ابداعات الأندلسيين الخاصة ، كالموشحات مثلا ، فيقول صاحب المعجب في ترجمته لابن زهر^(٢) : " ولولا أن العادة لم تجربا بيراد الموشحات في الكتب المجدة المخلدة " لاوردت له بعض ما بقي على خاطر مسن ذلك . . . "

(١) الذخيرة : ق ١ ج ١ ص ٢
(٢) المراكشي ، المعجب : ٢٤٦ تحقيق سعيد العريان ،
القاهرة ١٩٦٣ م .
ابن زهر : هو الوزير ابوبكر محمد بن الوزير ابي مروان ==

فالموشح عندهم لا يستحق التدوين والتخليد لانه اختراع
أندلسي محض خرج عن السنن الشرفي فاعتبروه فنا شعبيا محليا لم
يبلغ الى درجة الشعر الذي تتناقله الالسنة والكتب .

رسائل الاعتذار :

أشهر رساله اندلسية في هذا المجال هي رسالة ابن زيدون
المشهورة (بالجدية) والتي وجهها الواين جهور - أحمد ملسوك
الطوائف الذي نقم عليه لسبب من الاسباب فأودعه السجن بعد أن كان
وزيره وصاحب الحظوة عنده - مستعظفا اياه ليخرجه من السجن معتذرا
اليه ما بدر منه .

ونريد هنا أن نقف عند هذه الرسالة بتأن لنستشف من تحليلها
خصائص هذا اللون من الرسائل ، ونكتفي بها عن سواها لشهرتها في
الأدب الأندلسي بخاصة والأدب العربي عامة ، ثم لارتباط العاطفة
فيها بأحاسيس متباينة منها وقع الحب على نفس الكاتب - وقصته مع
ولاده مشهوره - ثم نكايه الوزير ابن عيوس به ، والأهم من ذلك سخط
اميره عليه وانزاله من عل والزج به في غياهب السجون حيث " الجناة
المفسدون والمصوى العقيدون ... " "أ" على حد قوله . ومن ثم
ننظر للرسالة نظرة أبعد من مجرد كونها استشفاع او اعتذار أو

== عبد الملك بن زهر .

قال فيه ابن دحيه : كان رحمه الله بمكان من اللغة مكين ،
ومورد من الطلب عذب معين ، كان يحفظ شعر ذي الرمة -
وهو ثلث لغة العرب - مع الاشراف على جميع أقوال أهل
الطب ، وتوفي سنة ٥٩٥ هـ / المطرب : ٢٠٤ ، تحقيق
الابيارى ، وحامد عبد المجيد . واهظر : معجم الادباء :
٢١/٧ ، نفح الطيب : ٣٤٠/٤ .

(١) الذخيرة : ق ١ ج ٢ ص ٣٥٥ ، والعبارة من رسالة بعثت بها
لمن عاتبه بشأن فراره من السجن يبرر بها فعلته .

تنصل من ذنب بل نرى فيها أطيافاً من المشاعر المختلفة كالحب واليأس والحسد والشعور بالظلم والمرارة كل هذه الاحاسيس مجتمعة تفاعلت لتنتج عنها هذه الرسالة التي يقول فيها : "١"

" يا مولاي وسيدى الذى وداى له واعتمادى عليه ، واعتمادى به ، ومن ابقاه الله تعالى ماضى حد العزم وارى زبد الأمل ، ثابت عهد النعمة ، ان سلهتني - اعزك الله - لباس نعمائك ، وعطلتني من حلي ايناسك واظمأتني الى برود اسمعك ، ونفضت بي كف حياطتك ، وغمضت عني طرف حيايتك بعد ان نظرا لاعمى الى تأميلي لك ، وسمع الأصم شائي عليك ، وأحسن الجناد باستحادي اليك ، فلا غرو ، قد يفض بالماء شاره ، ويقتل الدواء المستشفى به ، ويوتئى الحذر من ثأمه ، وتكون منية المتمني في أميته ، والحين قد يسبق حرص الحريص :

كل المصائب قد تمر على الفتى

وتهون غير شماتة الحسان "

هذا الاستهلاك يشيع جوا من الاستعطاف والانكسار ويتخلله

الطلب والرجاء " يا مولاي وسيدى .. . "

ثم يشفع ذلك بتأكيد أحقية ولاءه الخاص للسيادة " وواى

له واعتمادى عليه واعتمادى به .. . "

ونلاحظ هنا ان حروف الجر التي جاءت على نسق متسار " له ،

عليه ، به .. . " أدت دورا في تدرج المعنى لتحدث الهزة والاستجابة

المطلوبة ، فبعد أن كنّ الولاة أولا شفعه بالاعتماد وخته بالاعتداد .

(١) تام المتون شرح رسالة ابن زيدون (الجديده) للصفدي ،

تحقيق : أبو الفضل ابراهيم ، بيروت ١٣٩٨ هـ ١٩٦٩ م

وهذه دلالة الاقرار بالعجز المطلق ، وكأنه لاشعوريا ينبغي من نفسه تهمة التناول التي حبس ومن أجلها .

ثم تأتي عبارات الاستعطاف المشبع بالدعاء للأمير ابن جمهور وذلك باستعمال استعارات مركبة من مترادفات تبعد عن السجع والصفة

أبقاك الله ماضي حد العزم وارى زناد الامل

وغضضت غني طرف حمايتك .

ثم تطويل جواب الشرط تبعد تعداد الفواجع بهذه القطيعة

" فلا غرو قد يفص بالماء شاره . . . " يشف عن الهرب النفسي عند

الكاتب مع ملاحظة ما في الاستلاب وان سلبتني - اعزك الله - لباس

نعنائك من حده وجرح وظلم لا يطك معه المرء الا ان يرفع الصوت

متشغفا مسترحما . ولزيادة حدة الانكسار يوصى الاستلاب الى جعل

ابن زيدون خلوا عاطلا من كل حلي تزين . ونستشف البعد النفسي في

اظهار الضعف باشعاره حلي المرأة التي هي رمز الرقة والاستسلام ،

كما نحس دلالة الفاجعة من خلال اللفاظ المعبرة بها : اظمأتني ،

نفضت ، غضضت ، فتعللني والي هذه الحروف المجهورة يحدث جلجلة

قوية تضفي على الأمير المستعطف صفات العظمة والتقدرة على المنسج

أو الحجب .

وتنتقل الرسالة لمسار آخر عند ما ينتقل ابن زيدون ليؤكد ذاته ،

وهذا يعني لاشعوريا الرفض لهذا الواقع المعاش ، وكان لسان

حاله يقول : لست انا من يكون في هذا المقام ولي الباع الطويل فسي

الشعر والنثر ، وليس كل شعر او نثر بل بوجه خاص قولي فيك

يا ابن جمهور ، كل ذلك في اطار من العبالفة والتهويل عليه يبلغ من

أميره اذنا ضاغية فيقول :

" . . . بعد أن نظرا لاعمى الى تأميلي لك ، وسمع الأسم ثنائي

عليك وأحسن الجماد ، باستحمادي اليك "

أى ان مطلق حبي وولائي لك أحدث الخوارق والمعجزات

ثم يعود - وكأنه أحس بما في خطابه للأمير من جرأة - يلتبس العزاء في تصرف عجز عن تصور واقعه وأسبابه فعزاها الى الاقدار " فلا غرو قد يفص بالماء شاربته ويقتل الدواء المستشفى به . . . " ونلاحظ الايقاع الرقيق مع التزام فواصل السجع ، وفي البيت المستشهد به يشتغل ابن زيدون لشرح بعض الاسباب التي أدت الى ما هو فيه وخاصة عند ذكره " شماتة الحساد " فأعداؤه وحساده ان طلاب شماته ، وهذا بيت الداء وسبب البلاء ، وقد آن للأمير أن يدرك ذلك .

وفي الفقرة التالية يقول : " ١ " والتي لا تحلج وأرى الشامتين
أني لربيب الدهر لا أتضعض ، فأقول : هل انا الايدا أدمها
سوارها ، وجبين عض به الكليله ، ومشرقي الصفة بالارض صاقله ،
وسمهرى عرضه على النار مثقفة ، وعبد ذهب به سيده مذهب الذي يقول :

فقسا ليزد جروا ومن يك حازمًا
فليقس أحيانا على من يرحم "

فهو يظهر الجلد وطيب المعدن عند الشدائد ليخفي الحساد
الشامتين ويعقب ذلك برسم صورة مشرقه له ولأميره وكأنهما متساويان فسي
المنزلة فهو يد والامير سوار ، وجبين واكليله ، وسيف وصاقله وسمهرى
ومثقفة ، هذا الاحساس النسبي بالتساوي يوحي الامل بقرب الفرج
عند الكاتب .

" هذا العتب محمود عواقبه ، وهذه النبوة غمرة ثم تتجلي ،
وهذه النكبة سحابة صيف عن قليل تقشع ، ولن يرينني من سيدي ان أبطأ
سيه أو تأخر غير ضنين غناؤه ، فأبطأ الدلاء فيضا أملوها ،
وأثقل السحاب مشيا أحفلها ، وانفع الحيا ماصادف جدبا ، وألسن
الشراب ما أصاب غليلا ومع اليوم غد ولكل أجل كتاب ، لسه
الحمد على اهتباله ولا عتب عليه في اغفاله . . . " ٢ "

(١) تمام المتن : ٢٢ .

(٢) المصدر السابق والصفحة نفسها .

ونلاحظ هنا تعليل الكاتب لعتب سيده المحمود العواقب ، وربما فعل ذلك حتى لا يخلط كلامه من قبل حسانه على غير محمله ويفسر بأنه منادى للأمر ابن جهور ، ثم يقول : " ما هذا الذنب الذي لم يسمعه عقوق ، والجهل الذي لم يأت من وراءه حلمك ، والتطاول الذي لم يستغرقه تطولك ، والتحامل الذي لم يف به احتمالك ، ولا أخلوا من أن أكون بريئاً فأين العدل أو سيئاً فأين الفضل ؟

ألا يكن ذنب فعدلك واسسع

أو كان لي ذنب ففضلك أوسع

حنانيك قد بلغ السيل الزين ، ونالني ما حسبي به وكفى ، وما أراني الا لو أني أمرت بالسجود لآدم فأبيت ، ولستكبرت ، وقال لي نوح (اركب معنا) فقلت : (ساوى الى جبل يعصمني من الماء) وأمرت ببناء الصرح . . . وعكفت على العجل ، واعتديت في السبت ، وتعاطيت ففقرت . . . ورجمت الكعبة وصلبت العائذ على الشية ، لكان فيما جرى على ما يحتمل ان يسمى نكالا ، ويدعى ولو على المجاز عقابا . . . فكيف ولا ذنب الا تسمية أهداها كاشح ونبأ جاء به فاسق " ١ "

وفي هذه الفقرة يبلغ درجة من المرارة والاحساس بالظلم تجعله يلجأ الى السجع المقفى ليحتر على مهل شريط ذكرياته عليها تصود عليه بشيء يخفف من أحزانه ، فالمقابلات التي يوردها ترمي الى اظهار التعارض بين فعلته ، وما استوجبه من عقاب ، لكن حنانيك ، نحسبها صرخة مدوية تخرج من فؤاد مكلوم معنى ، ثم يعدد بعدها ذنوبها كبارا ، استوجبت غضب الله - سبحانه وتعالى - ومقتته ويقرنها بذنوبه افاذا هو بالبالنسبة اليها هين لا يحدث شرخا في نواميس الكون ، وذلك ادعى للاحساس بالظلم ، والاكثر من الاستشهاد بهذه الوقائع

يبعد بالرسالة بعض الشيء عن روح التحسر الذاتي ، وغلب جانب الفكر على الجانب الوجداني ، وربما كان ابن زيدون يقصد اليها بعمد مدلا على سعة اطلاعه ونضجه الثقافي ، وان هذه المعرفة جديدة أن ترفعه الى مصاف الوزراء والكبراء لا أن تزج به في غياهب السجون .

ثم يومئذ انه لا يزال يسير في نفس النهج الذي نهجه من قبل مع الأمير ولم يتغير أو ينحرف .

" ووالله ما غششتك بعد النصيحة ، ولا انحرفت عنك بعد الصاغية ولا نصبت لك بعد التشيع فيك ولا أزمعت بأسا منك مع ضمان ، تكلفت به الثقة منك ، وعهد آخذه حسن الظن عليك ، فقيم عيب الجفاء بأذمتي وعات العقوق في مواتي ، وتمكن الضياع من وسائلتي . . ولم ضاقت مذاهبي ، واكدت مطالبتي ؟ وعلام رضيت من المركب بالتعليق ، بل من الغنيمة بالاياب ، واني غلبنني المغلب ، وفخر علي العاجم ، الضعيف ، ولطمنتني غير ذات سوار ، ومالك لم تمنع مني قبل أن افترس ، وتدركني ولما أمزق ، أم كيف لا تتضم جوانح الاكفاء حسدا لي على الخصوص بك ، وتتقطع انفاس النظراء منافسة في الكرامة عليك وقد زانني اسم خدمتك وزهاني وسم نعمتك " .

في هذه الفقرة يتركز الكاتب على الضمائر لظهار حدة العاطفة المنشودة والاشعار بالمخاطبة الذاتية الخاصة المفردة ، ورفع الكلفة ثم الضرب على وتر الشعور بالعبء الشديد من شامة الحساد ، مع اظهار العجز الكامل عن دفعها وردّها ، وهذا الحسد من قبل الأعداء راجع الى كرم الأمير وعطفه على ابن زيدون ، وهذا الحسد ليس بمستغرب فكثيرا هم الذين يفيظهم منزلة هذا الاديب الكبير عنه الأمير الخطير ، ويتمنون ان ينالوا مثل ذلك .

ثم تتوالى الهزات النفسية في نفس الأديب والتي سببها عدم التوازن العاطفي بين الطرفين ، فمصطف وجب من قبل ابن زيدون يقابل بالجفاء والهجر والابعاد من قبل الأمير فيتوجه إليه بلمحة غتاب فيها شيء من الاستعطاف " . . . فما هذه البراعة ممن يتولاك ، والعميل عن لا يميل عنك وهلا كان هواك فيمن هواه فيك ، ورضاك عن من رضاه لك .

يامن يمز علينا ان نغارقهم

وجدانا كل شيء بعدكم عدم " (١)

ويختتم الرسالة بقوله : " اعينك ونفسي من أن أشيم خليا ، واستعطر جهاما ، وأكدم في غير مكرم ، واشكو شكوى الجريح السالعقبان والرخم ، فما أبست لك الا لتدر وحركت لك الحوار الا لتحن ، ونبهتك الا لانام ، وسريت اليك الا لاحمد السرى لديك ، وانك ان شئت عقد أمرتيسير ، ومتى أعذرت في فك أسرى لم يتعذر ، وعلمك محيط بأن المعروف ثمرة النعمة ، والشقاعة زكاة المروعة وقضيل الجاه ، تعود به صدقه :

وانا امرؤ أهدى اليك صنيفة

من جاهه فكأنها من ماله : " (٢)

فهو يتهم بكبرياء جريح نحسه في مرارة الكلمات وفي المقاطع المركزة البعيدة عن الصنعة اللفظية . في اطار من الأمانى " لعلي ان ألقى العصا بذراك ، يستقر بي النوى في ظلك ، وأستأنف التأديب بأدبك ، والاحتمال على مذهبك ، فلا أوجد للحاسد مجال لحظية ولا أدع للقادح مساع لفظة " (٣) .

هذه هي الارض التي يشدعها ابن زيدون عسى أن يكون بها مقامه ،

(١) نفس المصدر والصفحة .

(٢) المصدر نفسه : ٢٣ .

(٣) تمام المتن : ٢٧ .

ليستعيد سالف عصره ، وما نغم به من قبل ، ثم يعمد الى اظهار براعته الشعرية - كما اظهرها في النثر - ليرى الوزير سبقه بكل ميدان يجرى فيه .

ونلاحظ ان الشعر المستشهد به في الرسالة يمثل فواصل اسننر الاشياحية تجدد النشاط وتبقي الحدث في ذروة الحركة بل هي في بعض الفقرات تمثل قمة المأساة ، وخاتمة يبدأ من عندها وجه جديد كجانب جديد من التحسر والضيق . . . هذا بجانب الاستفادة الواعية من التراث العربي حكما وامثالا ومقولات وأشعارا وقد نحس أحيانا بعض التعقيد في فقرات الرسالة ، ولعل مره ذلك أن الموضوع يتبع مسن أعاق نفس غائمة يصفب التعبير والافصاح عنها بوضوح ، لذلك نجد الكاتب يلجأ الى استعمال الضمائر والجمل الاعتراضية مع التحديد والانقطاع المفاجيء في التعبير ، والاسلوب عموما يتراوح بين الاعتدال والثورة في اطار من انتقاء اللفظ وايقاع الجرس الموسيقي المؤثر ، ومن خصائص الاسلوب العاطفي بعمامة ، الاكثار من الجمل القصيرة المنفصلة ، وهي دلالة الانفعال المتدفق الجامح ، والنفس الهائمة المضطربة ، ثم يزاوج بجمل طوال مسجوعة - وهي دلالة الانشراح العاطفي بالحلم المنشود . كما يحس القارى ان الكاتب يتحدث عمع نفسه . كما يشف الاسلوب أيضا عن الحزن العميق والتشوف للحرية والانطلاق والبكاء على الحياة من منطلق الحيرة والقلق ، كما يمتاز بالدق الموسيقي المتراوح بين العنف والهدوء والانسياب والثورة . . . دقات الاحساس الغاضب الحاد ، والهاديء المستكين المستشفع .

رابعاً : الرسائل الوصفية :

ويقصد بها الرسائل التي توجه عناية خاصة للأوصاف اكثر مسنن
عنايتها بالمحتوى الفكري او العاطفي ، وغالبا ما تفتعل هذه الرسائل
قصة أو موضوعا يكون تعلقه ينفذ الكاتب من خلالها الى غرضه غرضه
الاساسي في الوصف ، وكثيرا ما تشر الرسالة الواحدة من رسائل الوصف ،
رسائل أخرى وخاصة عندما يدخل حلبة النزال كتاب آخر يقصد اظهار
البراعة والافتداز على مجازاة الرسالة الأصل ، ومحاولة التفوق عليها ،
ومن ثم نرى أماننا حشدا من الرسائل في وصف أشياء متعددة ومسنن
أهمها في الاندلس .

الطرديات :

الطرديات غرض شعري هام ، يصف الشعراء فيه الوحوش ،
والفزلان ، والطيور وعدو الصيد من كلام ورماح وسهام وصقور وخيول . . .
كما نجده غرضا نثريا رائعا لكتاب الرسائل الأدبية . ومن أمثلة ذلك رسالة
أبي عبد الله محمد المعروف بابن الحناط " ١ " ، التي تقص علينا
رحلة اصيد للكاتب مع رفيقه من أصحابه واتراجه ، فنراهم وقد توسطوا
" وهدات الرنا وعت لنا اسراب الطبا كأنما ألحسن الدمقس سريالا
واتخذن السندس سروالا " ٢ " ومن ثم تبدأ المطاردة والقنص وماهي
الا لحظات حتى غادروها " بين جريح مضرج بدمايه وقتيل يجسود
بذمائه " وبعد ذلك ينزل القوم للاستراحة والأكل والشرب في آخر
الليل ، ولعل وقوفنا على وصف الكاتب الدقيق للمجلس يوضح لنا
الغرض الاساسي لهذا اللون من الرسائل ، يقول :

فنزلنا معرسين ، وأقمنا مخيمين وشبت النار وتناشر الشرار

(١) تقدمت ترجمته

(٢) الرسالة كاملة في الخريدة ق ٤ ج ٢ ص ٢٢٣ - ٢٢٥ .

وظل طهارة اللحم من بين منضج

صفيق شواء أو قديد محجل

فلما قرب ، وصف الشواء وصهب "أ" ، تعاطينا لحمنا
كالمعقيق ، وتهادينا شحما كالشقيق ، ثم قام كل الى جواده يمشي
بمرفقيه كفيه ، ويمسح نسهه بين عينيه ، ونحن ان ذاك بحيث
تضاحك الورد والبهار وتمازج النور والأنوار ، وأرضنا بمخضر بنت
صاغ النور تاجه ، وحاك القطر ديباجه ، وسماوتنا غدافية الاهداب ،
هامة السحاب ، فماء الندى سكوب ، ورواق الطل مضروب ، والريح
تصفق والفصن يتثنى والقبرة تصرصر ، والليل يتفنى ، وقد خيم
السرور ، وجملت الكأس تدور ، ولا حديث يسقى بها ، غير
هاك ، وهاتها

ولعل أهم ما نلاحظه في هذه الأوصاف ارتباطها بالحالفة
الشمورية المسيطرة على الكاتب ، ان يطبع ما بنفسه من بهجة ومسرة
على مظاهر الطبيعة ، ومن ثم تبدو الاوصاف مشرقة مشعة متفتحة ،
فيتضاحك الورد والبهار وتتمازج النواوير ، ولتصف الريح ويتثنى
الفصن ، وتتفنى الطيور ، انه يضي أوصاف الحياة النابضة
بالحركة والمرح على هذه الموصوفات على اختلاف هياتها بحيث يكون
صور متكاملة لما يشعر به في نفسه من بهجة ومرح . أما الساقى الذى
يدير الدمامه " ففزال يدى فى كفه منها الغزالة ، وهلال تحفه من
أصدغه هاله ، تنفس الصبح من طرفه ، وعشمس ليل الشعر من فوقه .
كأن الجلنار من خده خلق والاقحوان من ثفره سرق ، ذو خصصر
صوال الوشاج وبشر كالدرة " ثم تضي هذه الرحلة الى مرحلة
جديدة وهي الانتقال من صيد البر الى صيد البحر " أقبلت الزوارق
تهفو بقوادم غرمان ، وتعطو بسوالف غزلان تخالها فى سائمه
أهله مكسوفة ، وتحسبها فوق مائه رعبل دهم مصوفه " .

(١) صهب الشواء : احمر ، والمصهب ، واللحم المختلط بالشحم .

اساس البلاغة ، مادة (صهب) ص ٥٤٨ .

ثم ركبوها باسم الله مجراها ومرساها وفي أثناء ذلك يشرح فسي وصف شبك الصيد والصفانير التي " كأظفار السنانير ، قد عطفها القين ، كالراء وصيرها الصقل كالألاء ، فجاءت أحد من الأبر وأرق من الشعر ، كأنها مغالب صرد أو نصف حلقة زرد ، ، ثم يمضي في الوصف التفصيلي لعملية الصيد والتي تنتهي باستخراجهم لحما طريا ، واشتوائه وأكله هنيئنا مريئا .

ولا يخفى علينا هنا أن الكاتب نجح ووفق في تصوير الحركة كما شحسه في اندفاع الزوارق بقوة وحركة الصيادين النشطة ، فأهدوا بها (أي الصنانير) الى مقر السمك ، وقذفوها في سماء لا زوردية الحبل فما هو الأريث قذف تلك الرجوم من غوره ، وطلوع الفينان ، أشباه النجوم من غوره تهرق بريق الصوام المسلوله . . . " ولعل أوضح ظاهرة نذكرها في رسائل الوصف الطردية عناية الكاتب بايجاد قدر من الحركة ، وذلك أن الموضوع من أساسه يرتبط بالبعد الشعوري المعبر عنه ، كما جاء في وصف الكاتب لحمامة انفردت عن الغها فبصر بها باز فجد فسي أثرها ليقتنصها ، وبعد أن يصف الباز جزءا جزءا " فكأنما اكتمل بلهب وانفعل بذهب . . . من رماحه اظفاره ، ومن سيوفه منقاره ، من اللواتي تنافس الطوك فيها ما وتمسكها عجايبها . . . " ثم يصف عملية مطارده للحمامة فيقول : " فلما ارتقت في السماء ، اتخذ اليها سلما من الهواء ، وهي تبعد منه بعد الأمل ، وهو يقرب منها قسرب الأجل ، واختطفها أسرع من اللحظ ، ولا محيد لها عنه وانحدر بها أقرب من اللفظ . . . " ولاهن خاقان أيضا رسالة في نفس الموضوع يصف فيها رحلة معثلة من الوزراء والجنند يحفون بالملك الأجل ، فضوا يتهمون وينجدون ويبحثون عن القنص في كل مكان ، وبينما هم كذلك " ان سنج لهم في البلسايط سانح ، وارتاع من الفوق ، ومر لا يستمسك بواضح الطريق ، فتارة يسلك مستبيننا ، وتارة لا يعرج شمالا ولا يمينا ، وما زالت الجياد تبارى استنانه ، وذوات المغالب تحاكي روغانه ، حتى عادت عليه الارض قضا ، وساقته اليها قبضا ، فملقته كف كائد ،

لا حباله صائد ، فأخذه صاعرا ، وهم الحمام قد تعرض فأغرا ، فدكاه بشفرته ، وقذف زاده في شفرته ومازلنا نستوفر عددها ، وتقصر أمدها حتى ملأت الحقائق وأتعبت الركائب ، وأذكت الهاجسرة شواظ لهيبها ، ولوت الصبا عناق هبوطها . . . " ١ "

ولا يخفى ما في هذه الرسالة من خصائص رسائل الوصف كالاتِّباط بالحركة الشعورية وتصوير الحركة العنيفة حتى ان القارئ يشعر بأن الأنفاس تتلاحق بسرعة عند قراءة هذه الفقرة . كما نستشعر فيها الشدة والجذب وقوة الطراد وسرعته ، ثم تهدأ الحركة العنيفة عندما ينزل القوم للراحة والتمتع بالطعام والشراب في بعض الحدائق التي يرسل ابن خاقان نفسه في وصفها بقوله :

" فلما الى حدائق امتد عليها من أرومتها رواق ، وغارلتنا من أزهارها جفون وأحداق ، فخططنا بساحتها وانسطنا في رحسب ساحتها ، ودارت بيننا راح تلقيناها بالراح ، ولوعا ، وحسبناها شمسا طلعت طلوعا ، ومازلنا نديرها كبارا وصغارا ، نجوم اتخذت الأفواه مفارا ، الى أي فتى اليوم أوهم . . . " وواضح في الرسالة التعارض بين بين الحركتين ففي ميدان الطراد حركة مثل مروق السهم ، وعنا حركة هادئة تتمثل في الفاظ الميل ، والمفازلة ، الحط ، ووزان الراح . . . الخ .

وصف المطر بعد القحط :

هذا الموضوع من اغراض الرسائل الوصفية المفضلة ، ان يتيح للكاتب مجالا خصبا للتفنن في الوصف ، ونجد الرسالة في الغالب تقسم الى فواصل ثلاث : حين تبدأ الأولى بالتسليم الكامل لقضاء الله وقدره والثانية في وصف الارض حالة جديدها وقحطها ، والثالثة وصف الارض حالة

اخضرارها وازدهارها عقب هطول المطر وتختتم الرسالة بحمد الله
وشكر نعمه .

ونعرض في هذا المجال لرسالة الكاتب ابي عمر الباجي : فنجده
يستهلها بقوله " ا " : " ان الله تعالى قضيا واقعة بالعدل واعطاها
جامعة للغبض ، ومنها يبسطها اذا شاء انعاما وترفيها ، ويقبضها
اذا اراد الهام وتقميها ، ويجعلها لقم صلاحا وخيرا ، ولاخيرين
فسادا وضيورا () وهو الذي ينزل الغيث من بعد ما قنطوا ، وينشسر
رحمته وهو الولي الحميد () . وبعد هذا التسليم لامر الله والايمان
بعدله في قضاءه يبدأ في التمهيد لوصف حال الارض المجذبة ، وذلك
بوصف الجذب في النفوس اولا ، وهي وقفة نفسية دقيقة يربط فيها
بين الجذب الروحي مثلا في الهلع والخوف وخيبة الأمل ، والجذب
المادي مثلا في الجفاف وموت الزرع وجفاف الضرع وغير ذلك . فيقول :
" وانه كان من امتسك السقيا ، وتوقف الحيا ، ما ربح به الآمن ،
واستطير به الساكن ، ورجفت الاكباد فزعا ، ونهلت الالباب حزمعا ،
وأذكت زكاه حرمها ، ومنعت السداء درها ، واكتست الرياض غيره
بعد خضره ولمست شحوبا بعد نضره ، وكادت يرود الرياض تطوى ،
ومدود نعم الله تزوى " .

والالفاظ توحي بحالة الجفاف والقحط من خلال المقابلات بين
الغبرة والخضرة ، والشحوب والنضرة . ثم كان ان " نشرتمالي
رحمته ، وبسط نعمته ، وأتاح منته وأزاح محنته ، فبعث الرياح
لوايح ، وأرسل الغمام سوايح ، بلاء رفق ورواه غدق ، ومن
سنا طبق ، استهل جفنها فدمع ، وسمح دمعها فهسمع ، وصاب
ونلمها فنقع .

وكان من جراء هذا الخير التعميم أن " استوفت الارض زيبا ، واستكملت من نباتها أثاثا وريبا ، فزينة الارض مشهورة وحلة الزهر منشوره " وان زوال الجذب المادي ، ليصاحبه بالمثل زوال الجذب الروحي " ومنه الرب موفورة والقلوب ناعمة بعد يوءسها ، والوجوه ضاحكة اثر عوسها ، وآثار الجزع محوه ، وسورة الشكر متلوة . . . "

وواضح هنا أن التعارض بين النعيم والبؤس ، والضحك والمبوس والجنز والشكر ايحاء موفق بالحالة الشعورية . وان كانت الحركة قوام رسائل الوصف الطردية ، فان اللون هو قوام هذا النوع من الرسائل ، يتعامل معه الأديب ببعدين : بعد داخلي وبعد خارجي ، بحيث يجعل تلوين الصورة خاضعا لتجربته ، واستعمال الألوان المتضادة والتعاضد من أنجح وسائل التصوير في هذه الرسائل كما نرى ذلك في رسالة لابي محمد بن عبد الففور^(١) ، ان يقول في وصف الارض حالة جديها : " قد غبط طير الماء ضباب اليهها ، وحجبت كاسف الرجاء نيرات النعما ، وشابت مفارق الرياض ، وغاضت مفعمات الحياض واقشعرت الربى ، وحل بنيت الحاجر عقد الحيا ، ويات أزهار الفيضان عليلات الاجفان ، تستسقي نجوم السماء ، وتتوسل بالشبه الى ذوات الانواء . . . " ^(٢)

(١) هو ابو محمد بن عبد الففور الكلاعي ، الوزير الكاتب . من بيت علم وأدب ، نشأ بين يدي ابيه ابي القاسم بن عبد الففور في دولة المعتمد بن عباد ، وابو محمد هذا كاتب لعلي بن يوسف بن تاشفين ، وقد نعته ابن خاقان بالتهور وكثرة التقعر والهوج ووعورة المنهج ، ويرميه بالحسد والحقد ، غير أنسه يثني على منشوره ومنظومه .

انظر : خريدة القصر : ق ٤ ج ٢ ص ٤٢٤ ، القلائد :

١٨٢ ، المطرب : ٢٢٦ . المغرب : ٢٤١/١ .

(٢) الذخيرة : ق ٢ ج ١ ص ٣٤٣ .

وعندما جاءت رحمة الله بنزول المطر : " نعمن وشي التلاع
بيد لطيفة ضاع ، ورصع تيجان الأكام ، ينطف الفعائم السجام ،
فاهتزت القطارية لذلك القطار ، واشتملت على محسنها من الأوطار ،
وضحك ثغر الروض بعد عبوس ، ونقل الى سعة الرحمة من ضحك البؤس ،
وسجلت فواحق الانهار مذانها ، ونشرت عرائس الازهار ذوائبها ،
ولعله قد وفق في الايحاء بواقع الحالين حين كسى صورة في اللوحة الاولى
بلون قاتم أسود نحسه في زهول الرياض وجفاف أحواض الماء . . .
- وكسا صورة في لوحته الثانية بلون مبهج كثير الالوان متعدد ها تعدد
الوان الأ زهار من أصفر واخضر واحمر ، لتوحي هذه الالوان جميعا
بصورة لامعة للربيع الطلق وقد كتب في هذا الموضوع أيضا أبو القاسم
ابن الجد فلم يخرج عن هذا الاطار المتقدم حين صور الجذب الروحي
لما أمسكت السماء قطرها " وصدع ليل اليأس صبح الرجاء ، وخلق
عامل البأس والى الرخاء . . . " أما الارض فقد " تأهيت رياض
النجاد لبرود الحداد ، واكتحلت أجفان الازهار بأشد النقع المثار ،
وتعطلت اجياد الانوار من حلى الديمة المذار " . (١)

ولما نزل المطر " اهتزت رفاة الثبات طريا لتفريد مكها ،
فكان صفاء قد نشرت على بسيطها بساطا منوقا وأهدت اليها من
زخارف يزها ومطارف وشيها ألقافا وتحفا " ولا يخفى هنا اثر الالوان في
الربط بين الصور وفقا للحالة الشعورية المصورة والمعبر عنها .

وكتب ابن أبي الخصال رسالة أيضا في هذا الموضوع لم تخرج
عما ذكرناه من خصائص : حين مهزلجذب بما أصاب النفوس من
الهلج والغزع ثم يستخدم اللون في وصف الصورتين وصورة الجذب ،
وصورة الارض المخضرة ، ولعله قد أظال بعض الشيء لما عني بوصف النهار
الممطر بقوله : " (١) " . . . وأتى الله بأمره فهبت الريح عاصفا واستهل

(١) رسائل أدبية (مخطط بدار الكتب) ورقة ٢٣ ، مجهول
المؤلف .

الرعد قاصفا ، ولمع البرق خاطفا ، انبعث غاما وأقام لزاما ونسي
مثل ارتداد الطرف احتكتك ضروعه ، وتفجر ينبوعه ، ووافى عباب السيل
يلتطم واقبلت غوارب الموج ترتكم ولعل الحديد في رسالته انه
اتخذها وسيلة لتذكير المؤمنين بأفضال الله ونعمه .

الزرزوريات " ١ " :

هذه الرسائل في مضمونها ترمي الى وصف أصحاب الكفاية
والادباء الذين يفتجعون الامراء والملوك لعرض بضاعتهم الادبية ،
التي ان لقيت القبول عاش صاحبها في بلاط ذلك الامير او الملك ،
وانقطع له بالمدح ووصف معاركه ورحلاته وغير ذلك ، ولذلك راج في
رسائل الادباء - وخاصة في القرن الخامس - غرض الشفاعات لدى ملوك
الطوائف الذين كانوا يحرصون على جلب الادباء من شعراء وكتاب ليدخرفون
القوائد في مدائحهم ، وينمقون الكتب والخطب بأسمائهم ، ومن أمثلة
هذه الرسائل رسالة لابن حسداى وزير بن المقتدر بن هود صاحب
سرقسطة وكتبه شفاعته للاديب أبي الحسن الحصرى لدى اميره
المذكور ومنها " . . . ، وما زال ذراك الرفيع سابغا على ذوى الاخطار
ظله ، غامرا لذوى الاداب افضاله ، باهرا فضله ، وأحقهم بأجزل البر
الوافى ، من هاجر اليه على بعد المدى مهلا بمحامده ومدائحه ،
مستشعرا ليمان قصده ، ومناجيه ، وهو الشيخ الفاضل الكامل أبو الحسن
ابن عبد الغنى . . . وهو البارح المتقدم في احسانه ، وتصرفه فسي

(١) الزرزور : بفتح أوله وضمه طائر من فصيلة العصفير ، طويل
الذنب مرقط يتلون ألوانا شتى ، يتميز بالحركة والنشاط ، فهو
يغرخ في البلاد الشمالية ، ويرحل في الشتاء الى العراق والشام
وجزيرة العرب ومصر والمغرب . / انظر الحيوان : ٢٠٧/٥ ،
تحقيق عبد السلام هارون ط القاهرة ١٣٨٦ هـ - ١٩٦٦ م

الابداع وافتتد
الابداع وافتتانه . . . والله تعالى قد شرف ربتك ونزه منصبك عن
الاصفاء الى تعميق الوشاة ، والاجازة لكيد المداة . . " ١ "

وهذه الرسائل تستعير صورة الزرزور - في سخرية لطيفة -
لما يمتاز به هذا الطائر من خفة حركة وفهم . . . اطارا نصب فيه
اوصافها الساخرة ، ولعل أول من استثار هذا اللون من الرسائل
الوزير الكاتب ابن سراج " ٢ " حين كتب لابن الجند رسالة شفاعنة
في أمر شخص يعرف بالزرزير - تصغير زرزور - يقول فيها : " ٣ " :
" كتبت أهرفي هذه ، والود صقيل الودائل ، مطلول الخمائيل ،
جميل البكر والاصائل ، والله تعالى يزيد أزهاره وضوحا وأطيواره
صروحا ، وغباءه تيامنا وسنوحا بمنه ، ويصل به - وصل الله علوك -
وكيت عدوك - شخص من الطيور يعرف بالزرزير ، أقام لدينا أيام
التحسير وزمان التبلغ بالتشكير ، فلما وافى ريشه ، ونبت بافراخه عشوشه ،
أزم عنا قطوعا ، وعلى ذلك الافق اللدن تدليا ووقوعا ، رجاء أن يلقي
في تلك البساتين معمرا ، وعلى تلك الغصون حبا وشرما ، وأننت
بجميل تأتيك ، وكرم معاليك تضع له هناك وكونا وتستمتع من نغمم
شكره على ذلك أغاد ريد ولحونا دون أن يلتقط في فنائك حبه ، او
يشترط من مائك غبة " . والملاحظ ان ابن سراج في هذه الرسالة
يتحدث عن زرزور - وهو شخص من الطيور - ولذلك جاء بالمصطلحات
والاشياء الخاصة بالطور من تحسين وشكير ، وريش ، وفرخ وعش ،
ووكون . . . "

-
- (١) الذخيرة : ق ٣ ج ١ ص ٤٨٥ .
(٢) ابن سراج - أبو الحسين سراج بن أبي مروان بن سراج ، كانت له
عناية كاملة بكتب الأدب واللغات مع الحفاظ والاتقان لما جمعه
منها . كان حسن الخلق كامل المروءة من بيت علم وفضل ، توفي
سنة ٥٠٨ هـ ، انظر : الصلة ٢٢٧/١١ ، المغرب : ١١٦/١
والقلائد : ٢٣١ ، بلفية الدعاة : ٥٧٦/١ .
(٣) الذخيرة ق ٢ : ج ١ ص ٣٤٧ .

ووصلت هذه الرسالة الى ابن الجند فأعجب بما فيها من ايماء
واستعارات ، ولطف اشارات فعارضها برسالة اتخذها تعلقة لادارة
الوصف على دعائم متعددة من هزل وسخرية وتلاعب بالالفاظ واستعراض
للثقافة فقال فيها "أ" : " وبعد فاني اعود الى ذكر ذلك
الحيوان الفريد ، والشيطان المرید فأقول : لئن سمي بالزرزير ،
لقد صغر للتكبير ، كما قيل حريقيقيص ، وسقطه يحرق الحرجة ،
ودويبيهة وهي تلتهم الارواح والمهج .

ومعلوم أن هذا الطائر الصافر يفوق جميع الطيور في فهم التلقين
وحسن اليقين ، فانما علم الكلام للمهج بالتسبيح ولم ينطق لسانه بقبيح ،
ثم تراه يقوم كالنصيح ، ويدعو الى الخير بلسان فصيح فمن أحب الاتعاض
لقي منه قس اياك بعكاظ ، أو مال الى سماع البسيط والنشيد ، وجد
عنده نخب الموصلي للرشيد ، فطورا بيكيك باشجن من مراشي أريد ،
وحينا يسليك بأحلى من أغاني معبد ، فسيحان من جعله هاديا
خطيبا ، وشاديا مطربا مطيبا " . ولعل هذا الزرزور لم يرق له
العيش في بلاد الغرب فيرجعه الابن الجند الى ابن سراج مرة
أخرى كما يتضح من المقطع الثاني من الرسالة نفسها حين يقول :

" ولما طار ببلاد الغرب ووقع ، وزقا في أكفافها وعقع ، وكاين

ما اتفق فيها هذا العام من عدم الزيتون في تلك البطون والشون ،
أزمع عنها فرارة ، ولم يجد بها قرارا ، لان هذا الثريب هذا الافق هو
قوام معاشه وملاك انتعاشه ، اليه يقطع وعليه يقنع ، كما يقنع على العسل
الذباب ، وتقطع الى العراد الضباب .

فاستغفه هائج التذكار ، نحو تلك الأوكار ، حيث يكتسي ريشه
حريرا ، ويحتشي جوفه بيريرا ، ويحتسي قراها نيرا ، ويفتدي على

(١) الذخيرة : ق ٢ ، ج ١ ص ٣٥٤ ،

(١)

رهطة أميرا ، فخذة اليك نازلا لديك ، ماثلا بين يديك ، يترنم بالثناء
ترنم الذباب في الروضة الغناء ، وقد هز قوادم الجناح لعادة الاستنجاح
وصبر من لمع الاسجاع ، ما يصلح للانتجاع واثقا بأن ذلك القطر الناضر
سنتسحه خدائقه ولا تلتفحه ودائقه . . .

ولعلنا لانتجاجة الى دليل في بيان ما تشفى عنه الرسالتان من
منحى رمزى بصور ضيعة الالاب وضيبي عيشة وضياح صوته مما يدفعه
الى أن يلتصق رياضاً أخرى ويصبح أشبه باصحاب الكدية المحترفين ،
ويوضح ذلك في رسالة أخرى لابن الجدي هذا على لسان الزرزور ، ولكن
خرج بها من الوصف ، بحيث جعلها تعلقه للحديث عن ضيغته واغترابه
قال في فصل منها " ١ " : . . . حتى اشتد منه الفقار واسود فرغته
والمنقار ، ولم يكن به الى العول افتقار ، فنهض وكسب ، واعرب عن
نجرته وانتسب وأخذ بالطباع في التوليد ، وصدح عزوا بببيت الوليد ،
الا ماغير منه وأحال ، ولا يعرف الممكن ولا المحال - :

لك الله عشا غص ليلا بأفـرخ

يعليا فرع الأثلة المتهدل

فباللعجب العجيب ، ولسان هذا الزرزور النجيب ، أنطقه
فضل الوزير بلسان ، نقله من نوع الزرازير الى نوع الانسان ، فشكر
وشعر ، حتى غلا مرجل اشده واستمر ، وأخذ عن وكنه في الرحيل ،
وباع مبرما من العيش بسحيل يتمنى لعز عزته بالندم ، ان يخضب
من أوداجه بدم ، لانه سقط من شجر زيتونه بعقم بطونه ، في هذا العام
ومنونه ، على خاليات من المير موحشات مثل جوف العير . . .

وتماز هذه الرسائل عامة بما فيها من أوصاف تعني بالتبوع
والاستقصاء والتفريع وايجاد مجال من القول في أمر هين وغرض بسيط

(كالرزور مثلا) باستعراض الكاتب لهدرته على البلاغة والبيان ، وهذا البطليوسي " ١ " به حل هدية المعارضة من خلال وصف الرزور الذي " ٢ " . . . أقام عندما زمانا لا يتألف الا زندا أو بانا ولا يلتقط الا غنبا أو سيساننا ، يتدرج في البساتين ، يشطب العنكب المنطقى والتين ، فذكرت له يوما والحديث دوشجون ، مشتبه الزيتون ، وأرضك الميثاء ذات الشجر والعيون ، وأطيار محامدك فيها السخ الحيامين فصق جناحا ، واجتزارتياحا ، وحن الى ذلك القطر ، وانتفض كما بلله القطر ، ورجع أطرابا وسألني الى مجدك كتابا ، فأنته ما أمتني . . . " وقد كتب البطليوسي في هذه الرسالة - كسا يتضح من نصها . في معارضته رسالة ابن سراج المتقدمة ، ولذلك نجده يحمل الرزور كتابه المذكور الى ابن سراج نفسه : " فأخذ الكتاب بمنقار وصفق من ريش الجناحين سرورا وطار ، ومن ركب - أعزك الله - الحناح ، وامتنى الرياح ، طوى البراح ، وهو آتيك كالبرق في لمعة تصفيلة الطائر المستحشر شره ، فان حل البساط فابن سريج والغريس ، وان احتفل السباط فابو جلمده وابن بيض " ٣ " .

(١) البطليوسي : ابوبكر عبد العزيز بن سعيد البطليوسي ، كان من جلة الأدباء وروّسائهم ، كاتبها مترسلا ، كتب للمتوكل بن الافطر ، ثم لابن تاشفين المرابطي من بعده ، وتوفي بعد سنة ٥٢٠ هـ قال فيه ابن بسام : " احد فرسان الكلام وحلمة السيوف والاقلام . من أسرة اصالة وبيت جلاله .

انظر : الذخيرة : ق ٢ ج ٢ ص ٧٥٣ ، التكملة ترجمة رقم ١٧٤٣ ، الكلاعي ، احكام ضعة الكلام ١٣٦١ هـ .

تحقيق رضوان الداية ، بيروت ١٩٦٦ م .

(٢) الرسالة كاملة في الذخيرة : ق ٢ + ج ٢ ص ٧٥٩ - ٧٦٠ .

(٣) ابوجلدده اليشكري : شاعر من شعراء الدولة الاموية من ساكنسي الكوفة خرج مع ابن الاشعث فقتله الحجاج ، وكان معاقرا للخمر

انظر اخباره في الاغاني : (١١ / ٢٩١ - ٣١٢) ، بيروت ١٩٥٧ م

وابن بيض : حمزة بن بيض الحنفي ، وهو شاعر كوفي أموي ماجن

توفي سنة ١٢٠ هـ / انظر معجم الادباء : ٢٨٠ / ١٠ ،

الاغاني ١٤٣ / ١٦ فوات الوفيات : ٣٩٥ / ١ ته احسان عباس

بيروت ١٩٧٣ م

ثم يوصي البطليوسي صديقه بقوله : " وانت بسيادتك تيسر له
في بساطتك ، وتفرش له من وردك ، وياسميك ، حتى تلبس من
أغاريد ، الحلل المنتشرة ، ويتشر على منابر ادواحك شبيها " ١ "

وكتب في شأن الزرور أيضا ابو عامر بن ارقم رسالة شفاعة ، وهو في
الواقع لم يرد منها سوى استعراض براعة اسلوبه على نهج وصفي متابع
كقوله : " ٢ " حيفوان يصفر كل أوان ، ويسفر بين الاخوان ،
رقيق الحاشية يعتمد على كروا ، ويستمتع بخدوا ، وينظر من يملك
عين كأنها عين ، ويلفظ بمنقار كأنه من قار ، يسلي المحزون بالمقطع
والموزون ، وينفس عن المكظوم ، بالمفثور والمنظوم ، مسكي الطيلسان
تولد بين الطائر والانسان ، قطع من منابت الريح ، الى منازل
الصقيع ، ومن مطالع الزيتون الى مواقع السحاب الهتون ، فصادف من
الجليد ، ما يذهب قنوى الجليد ، ومن التبرد ، مالا يدفعه الريش
والبرد ، فمني الهائس بما لم يعهد ، كفا وسم بالزور من لم يشهره .
ولما قال رايه ، أو كاد سعيه التفت الى عطفه أشمط ، وللى أديمه أرقط ،
فناح ثم سوى الجناح وقد أنكر مزاجه ، ونسي الحانه وأهزاجه ، ولا شك
أنه واقع بقائك ، راشف من انائك ، أمل حسن غنائك واعتناك . . "

وعباراته فيها افتتان في الصنعة المحسنة كالثورية والجناس مع الالتزام
الكامل بالعبارات المسجوعة مجارة لاسلوب عصره في غرض جديد .

- (١) شبيب بن شبيه ، من خطباء تميم ، انظر البيان والتبيين :
٢٤ / ١ ، ٣٢ ، ٤٧ ، ٩٤ ، اما ابن لسان الحمرة :
فهو عميد الله بن حصن وهو اعرابي نسابه ، أدرك الدولة الاموية
الفهرست : ٩٩ .
- (٢) الرسالة في الخريدة : ق ٤ ج ٢ ص (٤٠) الذخيرة :
ق ٣ ج ٢ ص ٤٠٥ - ٤٠٦ ، وابن ارقم تقدمت ترجمته :

ولما انتهى الموضوع عند ابن أبي الخصال ، حاول فيه شيئا من التجديد ، فجعل الرسالة أقرب إلى الخطبة الدينية حين أطال الألفية والتحميدات في أولها ، ثم جعل الزرور يتحدث عن نفسه بعد أن كان يتحدث عنه يقول "أ" : " . . . وقد أعفاكم زرور من النصب ومنه إلى السماء من الدعاء بسبب . . . الله يامن جعل الأرض قرارا وفجر خلالها انهارا ، وجعل لنا من الشجر الأخضر نارا ، ويامن جل عن الشركاء والانداد . . . وتعالى عن صاحبة والاولاد . . . " ثم يتبع هذا الاستهلال بما يناسبه من الجدية فذهب إلى ان الزرور أصبح شيئا قد جاوز الستين وغلب عليه الزهد والورع فأراد ان يخلق هذا اللقب الصباني الذي لا يليق بمن هو في مثل حاله فيقول :

" وما اقبح بمن جاوز الستين ، وأوهنت الأيام جل عمره المتين ، وقطعت أو كادت منه الوتين ، أن يوسم على ساعة من الكبر بزور أو يلقب بزور ، ولا سيما من أدرج القرآن بين جنبه وأرغفت الحكم من جانبيه ، وشهد كل نادى خبير ، وأنصت له الجلة كأن على رؤوسهم الطير . . . "

وابن أبي الخصال في هذا ربما كان يحاول التجديد في الموضوع فحاول الخروج به من دائرة الهزل إلى الجد فجعل الزرور أشبه ما يكون بإبطال المقامات ، حين أقامه واعظا وخطيبا ، يقرع الأذان بزواج الوعظ في مزاجية بين الشعر والنثر واستعراض لالوان متعددة من البلاغة والبيان ، ولكن رغم ذلك ، ظل عنصر الوصف ظاهريا على الرسالة كقوله "٢" : " إنما هو زرور عليه الليل مزور ، رسته النجم بأزاربها وذرت عليه من صبائبها ، فهو منعم الأوداج يدبغ الأيتلاف والأزدواج يباسطكم البعيد والقريب ، ويطارحكم المستعمل والغريب ويلقط الأحسان حبا ، ويضمره حبا ، ويلغظه لوله لواء رطبا ، لا جرم انه سابق الحبشة

(١) الرسالة في مخطوط ، ترسل الفقيه الكاتب ورقة ٣ ، لابن أبي الخصال .

(٢) المصدر السابق ورقة ٦٨ .

والمصلى بعد انجسه ، ، ، " ويمضي واصفا ولعدد ا صفاته حسنة
الزرزور العجيبة ، مستعرضا فنوله لاجالا منه بطلا مقامها حين يستلزم
رفد القوم وعظائمهم بلسان لرب منق " ، ، ، وان الطقسي لوالكسسم
نطقت ، وان صدقتي احسانكم صدقت " ويتبع لذلك بقصيدة طويلة
تستحث الناس على الكرم ، ولسان حاله يقول لسامية " ا : " ومثلكم
جمل المعروف نقدا ، وتابعه سردا ، أوأم الله الى كفه ، ولا أعدكم
مضاعفة عوضه وخلفه " . وبهذا يختتم الكاتب رسالته .

والملاحظ انه تحول فيها عن قضية الشفاعة والتوصية التي كان
يحتاجها الزرزور دائما - كما تقدم في رسائل من سبقوه - كما انه ممن
الممكن القول ان ابن أبي الخصال ، افتتح رسالة بخطبة دينية وانتهى
بها الى المقامه . خاصة ما أضافه على الزرزور من بلاغة تشمل الشعر
والنثر عند حثه الناس على السخاء والعطاء وهي تشبه الى حد كبير
أوصاف البطل المقامي . وبذا ينتهي هذا اللون من الرسائل
الوصفية .

ولعل المشرق قد عرف رسائل الوصف . خاصة الطرييات
- قبل الاندلس بزمن بعيد نفجد مثلا - رسالة لعبد الحميد
الكاتب " ٢ " في هذا الموضوع ، وهي نموذج لرسائل الوصف التي
نقلت الموضوع من الشعر الى النثر ومنها :

- (١) الصدر نفسه : ٥٧١ .
- (٢) عبد الحميد الكاتب : هو ابو غالب محمد عبد الحميد بن يحيى
ابن سعد ، الذي قيل فيه : " فتحت الرسائل بعبد الحميد
وكان كاتباً لمروان بن محمد آخر الخلفاء الأمويين ، وقتل معه
في مدينة بوعير المصرية سنة ١٣٢ هـ / انظر الوقيات : ٣٠٧ / ١
الفهرست : ١٧٠ ، الجهيشارى ، الوزراء والكتاب : ٧٢ ،
ط القاهرة ١٣٥٧ هـ .

"... واني أخبر أمير المؤمنين أننا خرجنا الى الصيد بأعدى
الجوارح ، وأثقف الضواري ، أكرمها اجناسا واعظمها اجساما . . . وقد
أمطرتنا السماء مطرا مذكرا ، فريت منه الارض ، وزهر البقل ، وسكن
القنم من مثار السنايبك ، ومششعبات الاغصير فثم برزت الشمس
طالعة ، وانكشفت من السحاب مسفره ، فتلألأت الاشجار وضحكك
النوار . . . فاذا نحن برعلة من غلباء وخلفه آرام يرتعن آنسات ،
قد أحالتهن الضباية عن شخصنا ، وأذهلهن انيق الرياض عن استماع
حسنا . . . " (١)

ثم يصف انطلاق الضواري والجوارح نحوها :

" فمرت تحف حفيف الريح عند هبوبها ، تسف الارض سفا ،
كاشفة عن آثارها في طالبة لخيارها ، حارشه بأظفارها ، قد مزقتها
تعزيق الريح الحراد ، فمن صائح بها وناعر ، وهاتف بها وناعق ،
يدعو الكلب باسمه ويفديه بأبيه وأمه ، وراكض تحت مفره ، وخافق يطلبه
الرمح ، وطامح يمنعه ، وسانح قد عارضه بارح . . . حتى امتلأت
أيدينا من صنوف الصيد ، والله المنعم الوهاب . " ثم ينتقل الى صيد
الطويور . . . وغير ذلك . . الخ .

ولا نشك في تأثير الاديب الأندلسي بهذه الرسالة وخاصة هذه
الحركة السريعة المتلاحقة التي صورها عبد الحميد بانطلاق الضواري
والجوارح مختلطة بحركة الصائدين المساعدين لها بالرمح والتي رأيناها
واضحة في طرديات الأندلسيين أضف الى ذلك ان عبد الحميد قد
ترك بصماته الواضحة على النثر الأندلسي . ولعله من الطريف ان
نلاحظ أن رسالة عبد الحميد الكاتب قد خلت من ذكر الشراب والقياف
والترف التي كانت عماد الرسائل الأندلسية . حيث التفنن في وصف
الخمرة والساقى والجواري المغنيات الى غير ذلك ، كما يتضح أيضا أثر
البيهتين المشرقية والأندلسية في ما انتظم الرسالتين من مشاعر
وأوصاف ، ولعل الجديد في رسالة الأندلس - أيضا - وعفها لصيد

(١) زكي صفوت ، جمهرة أسائل العرب : ٥٤٥/٢ ، القاهرة :

البحر وهو لون من الطرديات يسمى بالبحريات لم تعرفه طرديات
المشرق ، وذلك راجع لطبيعة البيئة الأندلسية .

كما نجد في المشرق رسائل المطر بعد القحط كرسالة الحجاج
الى عبد الملك بن مروان التي وصف فيها حال الارض قبل نزول المطر
يقوله : "أ" . . . حتى دقت الارض واقشعرت واغبرت . . . وثار في
نواحيها اعاصير تذر دقاتي الارض عن ترابها ، وأمسك الفلاحون بأيديهم
من شدة الارض واعزوا واعتزازها وامتناعها . ثم ارسل الله بالقيسول
يوم الجمعة ، فأثارت زبرجا منقطعا مشطرا ، ثم أعقبه الشمال يوم
السبت فطحطحت عنه جهامه ، وألغت منقطعة وجمعت متمصرة حششى
انتضد فاستوى أو طما وصحا ، وكان جونا مرثعنا ، قريبا رواعه ،
واعتدت عوائده يواهل منهمل منسجل . . .

وقد أورد ابو علي القالي في الآمالي قطعا صغيرة في وصف المطر
بعد القحط ومثال ذلك ما رواه عن الاصمعي قال : سمعت اعرابيا يذكر
مطرا أصاب بلادهم في غب وجدب فقال : "ب"

وقد أورد ابو علي القاب

" تدارك ربك خلقه وقد كليت الامحال ، وتقاشرت الآمال ،
وعكف اليأس ، وكظمت الانفاس ، وأصبح الناشي مصرما ، والمترب
معدما ، وجفيت الحلائل ، وامتهنت العقائل ، فأنشأ سحابا ركاما ،
كنهورا سجاما ، بروقه متألقة وعوده متعمقة ، فسح ساجيا راكدا ،
ثلاثا غير ذى فواق . . . "

ولعل هذه النماذج المشرقية تختلف عن رسائل الأندلس في
عنايتها بالاغراب في اللفاظ والصور ، ثم هي مقطوعات صغيرة ترمسي
غالبا للاخبار وليست رسائل أدبية ذات بداية ووسط وخاتمة كما عرفتها
الأندلس التي جاءت أوصاف رسائل كتابها أخصب لان مجالاتها كان في
حضن الطبيعة الأندلسية الجميلة الغناء ، ولكن ذلك لا يعني عدم تأثر
الأندلسيين بهذه الآثار المشرقية . . .

(١) البيان والتبيين : ٩٩/٤ ، تحقيق عبد السلام هارون ،

ط مصر ، ١٣٩٥ هـ - ١٩٧٥ م

(٢) الآمالي : ١٧٣/١ ، ط القاهرة ١٣٤٤ هـ - ١٩٢٦ م

الفصل الثاني

رسالة التوابع والزوابع لابن شهيد الأندلسي

إذا نظرنا إلى الخيط القصصي في الأدب العربي يمكن أن نميز بوضوح وجود تيارين فيه قديم قوامه القصص الخيالية والأساطير الشعبية وما تحويه من أيام العرب وما يدور حولها من وقائع بالإضافة إلى قصص الجن والفول وما أشبه ذلك وتتميز هذه القصص بأنها ذات خيال جامع وتيار وجد بعد الإسلام قوامه قصص السيرة النبوية وما تحويه من أخبار صحيحة وغير صحيحة عن الرسول صلى الله عليه وسلم وصحبه الأبرار وغزواتهم . . . حتى إذا وصلنا إلى العصر العباسي نجد تغيراً في شكل القصة العربية بسبب تمازج الثقافة العربية لثقافات أخرى ، وأصبح هناك نوعان من القصص مترجمين خيل ، وقصص عربي أصيل ، ومثال الأول كليلة ودمنة لابن المقفع ، وهو ضرب من الخرافات على لسان الحيوان قصد به الترمز والأيحاء ، ونقد الحكام والأوضاع في عهدهم ، وكتاب الف ليلة وليلة وإن اختلفت عن كليلة ودمنة في خلوه من الفاية الخلفية واحتفاله بالخيال والمخاطر وعالم السحر والمعجائب .

أما القصص العربي الأصيل ، فلعل المقامات أول أشكالها ، كما تدخل في دائرتها رسالة ابن شهيد التوابع والزوابع ورسالة الغفران لابن العلاء المعري وحتى بن يقظان لابن طفيل . . الخ .

والذي يهمنا من هذه اللوحة السريعة عن تاريخ القصة فسي الأدب العربي هو أن هذا الفن أصيل في أدبنا وقد طرقت الرسائل هذا الميدان في الأدب الأندلسي كما في قصة ابن شهيد التوابع والزوابع أو " شجرة الفكاكة " كما تسمى أحياناً .

أما موضوع الرسالة ، فهو رحلة يقوم بها الكاتب الى عالم مجهول غير عالما ، لم يصله بعد احد من الناس عالم الجن والشياطين حيث صدر الادب والشعر والخطابة التي تلى على بني البشر الموهوبين . وقد أثارت هذه الرحلة تساؤلات الباحثين ، من أين استمد ابن شهيد هذه الرسائل ؟ ومضوا يلتمسون اوجه التأثير والتأثير فيها ، خاصة بيهنبا وبين رسالة الففران لابي العلاء المعري للشبه بين الرسالتين من حيث الجو العام الذي تدوران فيه . فذهب الدكتور أحمد ضيف الى أن ابن شهيد هو المتأثر حين قال " ١ : " ولعل ابن شهيد كان يقلد ابا العلاء في ذلك لانه ادرك عصره ولان شهرة ابي العلاء كانت ذائعة في المشرق والمغرب ، وكان اهل الاندلس يقلدون اهل المشرق في كل شي " . ولكن الذي يبدو ان الدكتور ضيف أدنى برأيه هذا نظرا لشهرة أبي العلاء الواسعة في المشرق والاندلس ولم يلتفت الى التاريخ الزمني الذي الفت فيه كل من الرسالتين والذي يقد يثبت عكس ما توقع . ان ان الراجح أن ابا العلاء تأثر بابن شهيد وان ادرك ابن شهيد عصر المعري ، اما شهرة المعري فتقابلها شهرة ابن شهيد في الاندلس والمشرق أيضا ، ولا أدل على احتفال المشرقيين به مما أورده صاحب اليتيمة " ٢ له من الشعر والنثر ، بالإضافة الى فصول من رسالته التوابع والزوابع والواقع أننا يمكن أن نستدل على تاريخ تأليفها من بعض ماورد فيها من الاخبار والحوادث ، فقد جاء في الرسالة : " . . . أما أبو محمد فانتضى علي لسانه عند المستعنين وساعده زرافة استهواها من الحاسدين . . . " ٣

- (١) بلاغة العرب في الأندلس : ٤٨ ط القاهرة ١٩٢٤ م
- (٢) انظر اليتيمة : ٣٥/٢ - ٥٠
- (٣) رسالة التوابع والزوابع : تحقيق بطرس السبيتي ص ١٦٦ - ط بيروت ١٩٥١ م

ومعروف أن هذا الخليفة قد حكم ما بين سنة ٤٠٣ و ٤٠٧ هـ^١ وقد دعا ذلك بعض الباحثين كالدكتور زكي مبارك إلى القول بأن الرسالة الفتى في تلك الفترة "٢" ، وعلى هذا تكون قبل الغفران بعشرين عاما ، لان الغفران ألفت سنة ٤٢٤ هـ ، ويعلى الدكتور احمد هيكل على هذا بقوله " على أن هذا الرأى ليس دقيقا ، فقد اشتملت التوابع والزوابع على نصوص يرجع تاريخها إلى ما بعد هذا ، من ذلك قصيدة ابن شهيد الذى قالها وهو فى سجن بنى حمود . فالمرجح أنه قالها أيام القاسم ابن حمود الذى يغلب ان يكون قد سجن ابن شهيد لصلته بمنافسة الأثر يحيى بن حمود ، وقد كانت خلافة القاسم سنة ٤١٣ هـ ، وفيها كذلك مايو آخر زمن تأليفها عن هذا التاريخ ، فقد اشتملت على بعض رثاء ابن شهيد لابي عميدة حسان ابن مالك ، وكان هذا ضمن وزراء المستظهر سنة ٤١٤ هـ ، وهكذا فان تاريخ الانتهاء منها يجب ان يكون بعد هذا التاريخ ولكن ليس بكثير لاننا لانجد فيها تاريخا متأخرا ، عن هذا التاريخ ، ولأن فى الرسالة أبياتا يمدح بها ابن حزم ويذكر شافعيته ، ومعروف ان ابن حزم كان شافعي في هذه الفترة ، ثم تحول إلى الظاهرية فعلى هذا يكون قد أتمها سنة ٤١٥ هـ "٣" .

أما الغفران فقد كتبها المعرى ردا على رسالة ابن القارح والتي جاء فيها أن مؤلفها كتبها حين نيف على السبعين وانا علمنا أن مولده كان ٣٥١ هـ فإضافة سبعين عاما لهذا الرقم تكون النتيجة ان الرسالة كتبت حوالي ٤١٢ هـ تقريبا .

ورسالة الغفران كانت ردا عليها ، فلا شك فى تأخرها وخاصة أن المعرى اعتذر عن تأخير رده لأنه مستطيع بغيره ، كان من المعقول أن تكون رسالة الغفران كتبت حوالي سنة ٤٢٤ هـ وهذا ما يسند نص

-
- (١) المعجب : ٩٠ / والمستعنين : هو الخليفة الاموى سليمان بن الحكم الذى انتقلت الخلافة فى قرطبه بعد مقتله إلى بنى حمود .
 - (٢) النشر الفنى : ٣١٩/١ .
 - (٣) احمد هيكل : الادب الاندلسى من الفتح إلى سقوط الخلافة ، ط القاهرة ١٩٦٢ م

نص في الغفران نفسها ان يقول فيمن يتحدثون عن الفيب :
" ولا يجوز ان يخبر مخبر منذ مائة سنة أن امير حلب حرسها الله ثني
سنة أربع وعشرين وأربعمائة اسمه فلان بن فلان " ١ ،

وحاصل هذا الكلام ان رسالة ابن شهيد سبقت رسالة المعري
بنحو تسعة أعوام .

ويقول بروكلمان في كلامه عن ابن شهيد " والحق انه صنف
رسالة رائعة ، نقد فيها أدب معاصريه ، واسلافهم ، وأخرجها
مخرج رسالة الى وادي الجن ، والواقع ان هذا الاطار الفني اطار
الرحلة الى ماوراء العالم المنظور ، انما استعاره بعد عشرين سنة ،
على وجه التقريب أبو العلاء المعري الشاعر السوري واصطنعه وسيلة
لنقد مشاهير الشعراء في الجاهلية والاسلام . " ٢

وهذا ما يؤيد سبق ابن شهيد أيضا وان كان بروكلمان قد
جعل المدة بينهما عشرين سنة ، فقد أبعد بعض الشيء عن المدة التي
هي اقرب للواقع وهي تسع سنوات .

واهتم النقاد - أيضا - قداسي ومحدثون بتحقيق الشخص
المرسلة اليه الرسالة او الذي خاطبه بها ابن شهيد بقوله : " لله أبا
بكر . . . " فمن أبو بكر هذا ؟ ؟ الواقع أن هناك شبه اجماع
على أنها وهداة الى ابي بكر بن حزم صديق ابن شهيد وقد نص على
هذا الحميدى بقوله : " ٣ " : " يحيى بن حزم ، ابو بكر ، شيخ
من شيوخ الادب ، وله في ذلك ذكر ، وهو الذي خاطبه ابو عامر بن
شهيد برسالة " التوابع والزوابع " التي سماها " شجرة الفكاكة "

-
- (١) رسالة الغفران ، تحقيق بنت الشاطي ، ص ٤٥٠ ، ط القاهرة ١٣٨٨ هـ - ١٩٦٩ م .
 - (٢) الامبرا طورية الاسلامية وانحلالها : (١٧١) . ترجمة نبيه امين فارس
منير اليعلبي - بيروت - ١٩٥٤ م .
 - (٣) جذوة المقتبس : ٣٧٤ ، ترجمة رقم ٨٨٧ .

كما أشار ابن بسام الى أنه أبو "١" بكر بن حزم ، وأسرته بشهورة في الأندلس ومنها الفقهاء والوزراء والأدباء وتابعه على ذلك ابن سميذ "٢" . ثم جمهرة النقاد والمحدثون كالمرحوم أحمد ضيف ، الذي قال "٣" : " كتب أبو عامر هذه الرسالة الى صديقه ابن حزم ، فقد عاش في عصر أبي بكر بن حزم هذا ، فتصادفها وتحابا . وكان لكل منهما دالة على صاحبه ، وكل منهما اديب وعالم وكانت بينهما رسائل ومكاتبات يعرضون فيها آرائهم وما يجول بنفوسهم " . وقد شدت عن هذا الاجماع الدكتور احمد هيكل الذي يرى أن الرسالة موجهة الى أبي بكر الكاتب المعروف باشكياط "٤" ، ويعمل هيكل رأيه هذا " بأن أبا بكر بن حزم قد توفي صغيرا ، وقيل تأليف الثوابع والزوابع بزمان طويل ، فقد مات بالطاعون الذي اجتمع قرطبة ٤٠١ هـ كما ذكر أخوه ابو محمد بن حزم في كتابه طوق الحمامة "٥" ، على أن صلة ابن شهيد ببني حزم كانت بينه وبين أبي محمد وأبي المفيرة ولم تعرف له صلة بأبي بكر هذا ، فأغلب الظن أن الأمر التمس على ابن بسام حين رأى الرسالة موجهة الى أبي بكر ، وحين علم أن ابن شهيد كانت له صلة ببني حزم ، وحين علم أيضا أن من بني حزم

- (١) الذخيرة : ق ١ ج ١ ص ٢٣٠ .
- (٢) المغرب في حلى المغرب : ٧٩/١ ،
- (٣) بلاغة العرب في الأندلس : ٤٨
- (٤) الاديب الأندلسي : " من الفتح الى سقوط الخلافة "
- (٥) اشكياط : الكاتب أبو بكر بن محمد بن القاسم من أهل وادي الحجارة يعرف باشكهاده ، ارتحل الى المشرق لما ضاقت به حضرة قرطبة عند تغلب دولها وتحول ملوكها ، فجال في العراق وحلب ودمشق - ثم رجع الى الأندلس وحل بحضرة عند ملكها مجاهد العامري ونال من بلوغ الآمال ما ليس عليه مزيد . نفع الطيب : ٢٩٨/٢/٢ ، ت محيي الدين عبد الحميد ط - مصر ، ١٣٦٧ هـ - المغرب : ٣١/٢ ، وقال عنه : " اشكهاط " ، الذخيرة : ٢٣٠/١/١ .
- (٦) انظر ص ١١٦ تحقيق فاروق سعد ، ط بيروت ١٩٧٢ .

من كان اسمه أبابكر وغاب عن صاحب الذخيرة أن أبابكر هذا قد مات قبل تأليف الرسالة بزمان طويل .

ولعل رأى الدكتور هيكل على جانب كبير من الصواب وذلك لأن أبابكر اشكياط هذا كان من الذين ينقدون أبابكر عامر ويعيبون عليه استباحته كنوز غيره ، ولذلك نجد هذه القضية قضية الأخذ قد أخذت حيزا من الرسالة وفصل فيها أبو عامر القول من حيث الحسن والقبح . وذلك لأن أبابكر كان مفرما بمعارضة مشاهير الشعراء والكتاب ويروى ابن بسام أنه عرض على أبي بكر هذا فصولا من كلام ابن شهيد فقال : " ففرحسان إلا أنه عثر عليهما " فوصل خبره إلى ابن شهيد فكتب إليه بما ملخصه : " ما أغيرك أبابكر ، على نظم ونثر ، لو اليك كان العلم ، أو يكفك كان الفهم . . لم تترك الأرض اعلاما ، ولا لغيرك انصافا ، عرضت عليك الدر منظوما ، فقلت : نعم ما صنعت لسوا اخترعت ، وما أحسن ما اطلقت لو ابتدعت معرضا بالتقصص ومشيرا إلى التلخيص . . . لأقطعن حبالك هاجرا ، ولأتركن ليلك ساهرا " ١

ولعل ابن شهيد متأثر في رسالته بحادثة المصراع ، التي تحكي صعود الرسول صلى الله عليه وسلم إلى السموات العلى بصحبة جبريل عليه السلام بعد أن جاء من مكة على دابة يقال لها البراق إلى بيت المقدس وانما للنس التآثر المباشر بالانتقال من مشهد إلى مشهد عند ابن شهيد في مقابلته لتوابع الشعراء والكتاب بمن كان الرسول صلى الله عليه وسلم يمر بهم من طوائف المعذبين ، والمنعمين فيسأل رائده ودليله جبريل عنهم ، والفرق بينهما هو ان المصراع واحداً حقيقياً واقصية ثابتة بينما احداث التوابع والزوابع خيال فان جامع انطلق إلى ابواب الفناء مراتداً لأبواب غير مألوفة محققا لذاته منتصرا لها في عالم يقدر الفن والمواهب هاربا من مجتمع لم يلق فيه غير النكران

كما أنه من المناسب أن نشير هنا الى مقامة بديع الزمان المسماة
بالابليسية^(١) والتي تدور حول لقاء حدث بين بطلها وبين
شيخ من شعراء الجن حيث طلب الجني من عيسى بن هشام بطل المقامة
أن ينشده من أشعار العرب فأنشده لامرئ القيس وطرفه وعبيد ولبيد
فلم يطرب لشيء من ذلك ثم انشده لابي نواس فطرب وشهق وزعف . . .
ثم أنشد الجني من شعره فاذا هو ينشد قصيدة جرير :

بان الخليط ولو طوعت ما باننا

وقطعوا من حبال الوصل أقراننا

فقال له عيسى بن هشام : " يا شيخ هذه لجرير قد حفظها
الصبيان وعرفها النسوان ، وولجت الاخبية ، ووردت الاندية " .

فكان جوابه " ما احد من الشعراء الا ومعه معين منا ، واننا
املت على جرير هذه القصيدة ، وانا الشيخ أبو مرة "

وفكره لقاء شياطين الشعراء ومحادثتهم قديمة عرفها العرب
وآمنوا بها منذ زمن بعيد ذلك ان لكل شاعر شيطانا يقول الشعر على
لسانه وتروى في ذلك روايات ، عن الاعشى أنه خرج يريد حضرموت لمدح
قيس بن معد يكرب وفي الطريق عاج الى خيمة عائذا من المطر فاذا
فيها شيخ ، فسأله عن حاله فأخبره مقصده فطلب منه ان يسمعه
من شعره الذي أعده لمدح ذلك الرجل الذي يريد الذهاب اليه ،
فأنشده :

رحلت سمية غدوة اجمالها

غضبا عليك فما تقول بدالها ؟

فسأله عن سمية التي شبب بها فأجاب الاعشى بانه لا يعرفها ،

انما هو اسم ألقى في روعه ، فما كان من الشيخ الا انه نادى باسمية
اخرجه ، فخرجت الجارية فقال لها انشدي عمك قصيدتي التي مدحت
بها قيس بن معد يكرب ونسيت بك في اولها ، فأشدت القصيدة كاملة
لم تحرم منها حرفا ، وهكذا في قصيدته التي مطلعها :

ودع هريرة ان الركب مرتحل

فهل تطيق وداعا ايها الرجل

فاضطرب الاعشى ونفشته رعدة ، ولكن الشيخ طمأنه بانه هاجسه
مسجل بن أثاره الذي يلقي على لسانه الشعر ، ومثل هذا يروى ايضا
عن الصحابي الجليل جرير بن عبد الله البجلي في الجاهلية .
وقالوا ان اسم شيطان أمرء القيس لا قظ بن لاحظ ، وشيطان
النايفة الزبياني يسمى هانر وهو شعر الجن "١" .

ولعل هذا من خرافات العرب في جاهليتهم ان رأوا في الشاعر
ما يميزه عن غيره من حيث القدرة على القول فنسبوا هذا الى تأييد قوة
خفية فسروها بالجن والشياطين ، والا كيف نفسر تنقيح بعض الشعراء
لقصائد هم لفترة طويلة كزهير مثلا ، ونصائح ابي تمام للبحترى بتتنقيح
الشعر قبل نشره بين الناس ، وقول الفرزدق - وهو شعر تميم -
بأن خلع ضرس اءون عليه من قول بيت من الشعر في بعض الاوقات . . .
وغير ذلك ، ولعل هذا ما يمكن ان يسمى اليوم بالالهام الشعري او الموهبة
الفطرية . ولا نشك في تأثر ابن شهيد بالمقامة الابليسية بالذات ،
فقد التقى بتابع البديع زبدة الحقب وناظره وتفوق عليه وخاصة في وصف
الماء - بينما نراه أهمل معظم الكتاب الذين عاصروا البديع بالاضافة
الى ان ادب ابن شهيد - بعامه - متأثر جدا بأدب الهمداني
كما أسلفنا .

(١) اورد الشيخ محيى الدين عبد الحميد هذه الروايات في معرض شرحه
للمقامة الابليسية / انظر شرح المقامات - ٢٧٢ - ٢٧٥ .

ومن هنا نستنتج ان فكرة الرحلة الى عوالم خارج عالمنا هذا هي من تأثير قصة الاسراء والمعراج النبوية ، وان فكثرة اللقاء بشياطين الشعراء من موروثات الاساطير العربية . وقد تمازجت الفكرتان لتخرجنا التوابع والزوابع .

تحليل الرسالة :

تبدأ بمدخل يذكر فيه ايمن شهيد مناسبة كتابته للرسالة ، فيقول : "١" " وكان لي في صبوتي هوى اشتد به كلني ، ثم لحقتني بعد ملل في أثناء ذلك الميل ، فاتفق ان مات من كنت اهواه ، مدة ذلك الملل فجزعت وأخذت في رثائه يوماً في الحسائر "٢" ، وقد أبهمت عليّ أبوابه وانفردت فقلت :

تولي الحمام بغببي الخدور وفاز الردى بالفرزال الغرير

الى أن انتهيت الى الاعتذار من الملل الذي كان ، فقلت :

وكنت مللتك لا عن قلبي

ولا عن فساد جرى في ضميري "

ثم يرتج عليه القول فيتصور له فارس على فرس أدهم ، قد اتكأ على رحمه ، وصاح به " اعجزا يا فتى الاندلس " ؟ فيجيبه أبو عامر : " لا وأبيك للكلام أحيان ، وهذا شأن الانسان " .

فأعانه على اكمال قوله الأول ، فقال له قل بعده :

(١) الرسالة في الذخيرة : ق (١ ج ١ ص ٢٣٥ ، وما بعدها ، كما

طبعت منفصلة مصدرية بدراسة تاريخية ادبية ، بإشراف بطرس

البيستاني .

(٢) الحائر : البيستان .

كشمل ملال الفتى للنعميم
اذا دام فيه وحال السرور

فيثبت ابن شهيد اجازته هذه ويسأله : من يكون ؟ فيجيبه
بأنه زهير بن نعيم من أشجع^(١) الجن وقد تصور له رغبة فسي
اصطفائه ، وهو فيه ، ثم تحادثا وانعقد بينهما لواء محبة وصدقة ،
وصار هذا الجن تابعا لابن شهيد يستدعيه في انشاء الابيات
التالية :

والى زهير الحب يا عز انه
اذا ذكرته الذكرات اتاهها
اذا جرت الافواه يوما بذكرها
يخيل لي أنني أقبل فاهها
فأعشى ديار الذاكرين وان نأت
اجازع من داري هوى لهواها

ويمكن أن نقسم الرسالة الى مشاهد أو فصول :

المشهد الأول :

في أرض الشعراء ، يلتقي فيه بالشعراء على تسلسل تاريخي
من جاهليين كأمراء القيس ، وطرفة ، وقيس بن الخطيم ، واسلامييين
ومحدثين كأبي تمام والبحترى وأبي نواس وأبي الطيب تيسائلهم ويساجهلم
ينشدهم ويستشدهم ويعارضهم لينتزع الاعجاب واجازات التفوق برضاهم
اورعما عنهم ، ونحس انه لم يقف من الشعراء الا على من يعتبرهم اندادا
وأكفاء له . ومن ثم أضرب عن ذكر كثير ممن رأى شاعر يتهم دونه .

(١) لعله من الطريف أن يجعل أبو عامر تابعه من أشجع ليكون بينهما
قراية ونسب إذ انه هو أيضا من قبيلة أشجع العربية .

المشهد الثاني :

في أرض الكتاب ويسميهم الخطيباء ، وهم عنده أصحاب
الرسائل الديوانية خاصة لهذا نجده يفرق بين الجاحظ وسهل بن
هارون بقوله : " ١ " : (. . .) وقد وجدنا من ينسب العقل الى سهل
أكثر من نسبه الى الجاحظ . ولو شهد الجاحظ سهلا يخادع للرشيد
ملكا ، ويدير له حربا ، ويماني له اطفاء جمرة الفتنة مستظلمعا
في ذلك كله بعقله ، وجودة علمه ، لرأى ان تلك الشياسة غير مستطير
المقال ، في صفة غراميل البفال ، وغير الكلام في الجردان ،
وينات وردان ، ولقلم ان بين العالم والكاتب فرقا .

ومن هذا نتبين الانحناء العظيم على سهل لأنه كاتب سلاطين
بينما الجاحظ مؤلف دواوين مع أن كلا منهما محسن في بابهِ ولكن غاية
أبي عامر كانت النوع الأول من الكتاب امثال سهل بن هارون .

ولقد استحدث ابن شهيد بدعة جديدة لم ترد عن العرب بجعله
شياطين للكتاب او الخطباء أسوة بالشعراء فنراه يلتقي بشيطان
عبد الحميد والجاحظ ويدع الزمان الهمداني وأبي القاسم الا فليلي
وغيرهم . فيحاورهم ويسمعهم ويسمع منهم القول والنقد ثم ينتزع منهم
شهادات الاجازة والتفوق .

المشهد الثالث :

في مجلس ادبي من مجالس الجن ، يتدارس فيه بعض القضايا -
الادبية التي كانت تشغل باله ويوضح فيها آرائه ويدعها بشعره ونثره
ومن أهم تلك القضايا قضية الاخذ والمعارضات عند الشعراء .

أما المشهد الرابع :

فكان مجلسا أدبيا لحيوانات الجن يحكم فيه ابن شهيد بيين
قطعتين لحمار ويفل عاشقين كما يلتق ببعض حيوانات ادركها فسي
عالم الانس كبقلة ابي عيسى فيحادثها ويناقشها في بعض الامور ،
وبهذا تختتم الرسالة او ما وصلنا منها .

سبب كتابتها :

لعل نظرة فاحصة في حياة الكاتب تعيننا كثيرا في الرواية
الواضحة لفرض كتابتها ، بل وتبرر لنا ما بها من سخرية وحدة ومسرارة
واحساس بالذات المتفوقة : فهو سليل اسرة عريقة حسبنا ونسبنا وجاهها
وثراء ، فوالده نديم المنصور بن ابي عامر المستبد بأمر قرطبة - وعاطله
على تدمير وبلنسية لفترة طويلة ، فشهد الابن صولة أهية وعزه ،
ويحدثنا ابن بسام^(١) عن الحظوة التي لقيها كاتبنا وهو صغير فسي
قصر ابن ابي عامر ، والهيات التي كان ينالها من ابن ابي عامر وزوجته
... وما الى ذلك حتى بلغ رتبة الوزارة ، ولكنه لم يصل الى منزلة الكتابة
في الديوان ليلقب بالوزير الكاتب ، على شدة نشوته التي بلوغ هذا
الشرف اسوة بغيره من الوزراء الأدباء .

ثم تأتي نكبة قرطبة على يد البربر المؤيدين لسليمان المستعين
سنة ٤٠٣ هـ ، حيث هوى المجد العامري وخربت قرطبة " واصبحت
عجوزا نتنة ، ورغم ذلك عجز الفتى عن فراقها وطاب له الموت على
عواها "

هذه النكبة وأدت في نفس الشاب فرح الطفولة وطموح السيادة ،
وقد ظل ونيا للعامريين مقيما على ودهم وان دعت الحاجة احيانا

(١) انظر الذخيرة : ١٩٦/١/١ ت عباس

لمدح غيرهم من الحكام ، ولكن بعض ولاية العامريين الذين أصبحوا سادة في جهات الاندلس تنكروا لحقه مما زاد الجرح غورا والالم مرارة أضف الى ذلك زجه في السجن من قبل الحموديين بسبب السعيات والوشليات والتبدل السريع للملوك والحكام ، في هذا العصر القلق .

ومن هنا فان نفس الاديب المرهفة الشاعر ضافت بها الدنيا ولم تجد خلاصا في عالم الاديباء ولا في عالم القصور والسياسة ، بجانب ذلك كان ثقل السمع مما قعد به عن الكتابة للسلطين كما قعد بالجاحظ بروز عينيه وبابن الا فليبي ورم أنفه على حد قوله . وذلك مما زاد في حساسيته ، ولعل كل هذه العوامل تفسر لماذا قال ابن شهيد الى "اللهو البطالة" فيقول ابن حيان فيه - بعد ان اشاد بجودة شعره ونثره :-

(. . .) غلبت عليه البطالة فلم يحفل في آثارها بضياح دين ولا مروءة فحط في هواه شديدا حتى اسقط شرفه ووهم نفسه راضيا في ذلك بما يلذه فلم يقصر عن مصيبة ولا ارتكافا قبيحة ، وكان مع ذلك اصح الناس رأيا لمن استشاره ، واضلهم عنه في ذاته ، وأشد هم جنابة على حاله ونصابه وكان له في الكرم والجود انهماك ، مع شرف وباطلة ، حتى شارف الاملاق (١)

ان كل هذه الموهبات النفسية الحادة من مجد زائل واحلام يقظة بطفولة سعيدة الى واقع قاسي وخصومات سياسية وأدبية بجانب تشويه خلقي بضعف السمع مع احساس بالغربة الروحية لعبقرية ضائعة جعلت ذات ابن شهيد تجاهد لتجد متنفسا لهذا الضيق بالشراب والكرم والفكاهة المرة الحادة . . . بالاحساس بالذات المتفوقة. لهذا جاءت رسالته مزيجاً من هذه العوامل وكأنها قطعة من نفسه .

والرسالة من واقعها معرض يرينا ان ابن شهيد من خلاله صورة عامة للادب والارباب في عصره ، مظهراً براعته ومراناً عزيزته ينقد هم والسخرية بهم ، كل ذلك في اطار من القصص والخيال المبتكر البديع ، ولعل أهل اغراض الرسالة - بعد وفقتنا القصيرة على التكوين النفسي لابن شهيد - محاولته اظهار فذتفوقه وعبقريته حتى يرضى ذاته المستعلية ، ولعل هذا العلو أو الاحساس به هو الذي حمل على الطيران الى ديار الجن ومنازل التوابع. (١)

حيث ركب الجواد برفقه صاحبه زهير بن نعيم وسار بهم " كالطائر يجتاب الجو فالجو ، ويقطع الدوّ فالدو حتى التمتحت ارضا لا كأرضا ، وشارفت جوا لا كجونا . . . فقال لي : حلت ارض الجن ابا عامر . . . " (٢)

وهذا الاحساس جعله يقول عن نفسه على لسان صديقه ابي بكر " كيف أوتي الحكم صبياً ، وهز بجذع نخله الكلام فأساقط عليه رطباً جنياً ؟ أما ان به شيطاناً يهديه وشيطاناً يأتيه ؟؟ واقسم أن له

(١) التوابع : جمع تابع وهو الرثي من الجن يتبع الانسان ، وفي الحديث : أول خبر قدم المدينة يعني من هجرة النبي صلى الله عليه وسلم - امرأة كان لها تابع من الجن ، والتابع هنا : جنى يتبع المرأة يجيبها ، والتابغة ، جنية تتبع الرجل تحبه ، وقولهم : معه تابعه اى من الجن / لسان العرب : مادة (تبع) ج ٨ ص ٢٩ والزويعة : أو الزويج : اسم الشيطان - او رئيس الجن ، ومنه سمي الاعصار زويعة ويا زويعة ، ويقال فيه شيطان مارد . ترتيب القاموس المحيط ، الطاهر احمد الزاوى ، مادة زيج ج ٢ ص ٣٨ ط مصر ١٩٤٠ ، التوابع : رسالة التوابع : ١٢٢ .

ثابته تنجده وزابعة توئده ، ليس هذا في قدره الانس ولا هذا النفس
لهذه النفس (١) ونلمح ايضا ذاته المستعلية في عبارات الاجازات ،
والتفوق التي استخلصها من توابع الشعراء والكتاب الذين التقى بهم
كقول عتاب بن حينا " تابع أبي تمام له " ما أنت الا محسن على اساءة
زمانك وقول ابا الاحسان تابع أبي نواس وهذا والله شيء لم تلهمه نحن
وقول حارثة بن المغلس صاحب ابي الطيب عنه ((ان امتد به طلسق
العمر ، فلا بد ان ينفث بدرر ، وما أراه الا سيحتضر ، بين
قريحة كالجمر ، وهمة تضع اخمصه على مفرق البدر) وهذه النفس
المتفوقة ملأت دنيا الناس وشغلتهم بجمعها لاصناف الأدب فهل
يجاز شاعرا أم خطيب ؟؟ ويأبى الا بكتيبيهما فيجاز بأنه شاعر وخطيب
من صاحبي عبد الحميد والجاحظ بينما يضرب / يدبغ الزمان الارض برجله
عند ما سمع وصف الكاتب للماء - فانفجرت له فغاب في جوفها لما لحقه
من الخزي والانكسار وبالتالي ينفذ الجمع " والابصار الي ناظره والاعناق
تحوى مائله " .

وبجانب ذلك فالرسالة رد علي ينافح به ابن شهيد عن اديبه
ونبوغه خصومة وحساده يتنقص اديبهم واستحداث ما يعجز به منافسيه الذين
لا يملون من الطعن والاعتراض عليه ، وهذا ليس بمستغرب على رجل
عبقري متفرد عدم فرسان الكلام ودهي بغباوة اهل الزمان فكلامهم :
" ليس ليسيويه فيه عمل ولا للفراهيدي اليه طريق ولا لليمان عليه سمه)
وقد نص في رسالته على ثلاثة اشخاص من هؤلاء الخصوم وهم : ابو
محمد وأبو القاسم وأبو بكر " أما ابو محمد فانتض علي لسانه عند
المستعين ، وساعده زرافة استهواها من الحاسدين ، وأما ابو بكر

فأقصر ، واقتصر على قوله : له تابعه ثوبه ، وأما أبو القاسم
والأفليلي فمكانه من نفسي مكين وحببه بفوقه أدى د خيل ، على انه حامل
علي ، ومنسب الي " ١ "

فليس بغريب ان ان ينتضي ابن شهيد سلاحا حدا من السخرية
المريرة الشرسة للهزء والاضحاك ، واظهار الجهالة والغفلة بهو " لا " ،
فراه قد جعل لابن الافليلي - وهو عالم بالنحو واللغة - تابعا يسمى
أنف الناقة وهو اسم يحمل معنى من السخرية ثم صب عليه سوط نغمته ،
بالمناظرة والمعارضة حتى أخسزاه وفي ذلك يقول بعد انتهاء المجلس
" وعلت أنف الناقة كآية ، وظهرت عليه مهابة ، واختلط كلامه ، وبدا
منه ساعتئذ بواد في خطابه رحمه لها من حضر ، واشفق عليه ممن
أجلها من نظر " ٢ "

وفي موقف آخر نجد تابع أحد معاصريه بعد المناظرة قد " قل
واضحمل ، حتى ان الخنساء لتدوسه ، فلا يشغل رجليها " كما نرى
تابعة معاصر آخر أوزة تسمى العاقلة وتكنى بام خفيف ، وهي ذات حظ
من الادب فتحاول ان تناظره في النحو والغريب ، فيزجرها في سخرية
حادثة يقول : (يا أم خفيف بالذي جفل غذاءك ماء ، وحشا رأسك
هواء ، الا أيما افضل : الادب أم العقل ؟ قالت بل العقل ،
قلت : فهل تعرفين في الخلائى احمق من اوزة . . قالت : لا ،
قلت : فتطليسي عقل التجربة ، ان لا سبيل لك الى عقل الطبيعة ،
فاذا أحرزت منه وبوءت منه بحظ ، فحينئذ ناظري في الادب "

(١) لم نعلم من الادباء من يسمى بأبي محمد وله صلة بابن شهيد غير ابي
محمد بن حزم فقد كان صديقه وبينهما مراسلات ومكاتبات ولكن لم يرد في
اخبارهم ذكر لخصام او شجار ، وربما حصل شيء من ذلك . وان كانوا
اصدقاء فان ابن حزم معروف بسلطة لسانه . وهناك من معاصريه ابو
محمد بن الفرضي القاضي وهو رجل ذو حظ من العلم والشعر ولكن
لم نعرف له صلة بابن شهيد ، بالاضافة الى الخلاف في موته ففي
الذخيرة سنة ٤٠٠ هـ فلم يترك ان حكومة المستعين ، وفي النسخ
٢٣٩/٢ سنة ٤٠٣ هـ فيما يرجح كون المقصود بابي محمد هو ابن
حزم واما ابوبكر فشجأه في الضموض شأن ابي محمد وقد رجحنا
سابقا انه المعروف باشكياط .

(٢) جميع النصوص التي بين الاقواس مقتبسة من فصول رسالة التواضع التي
في الذخيرة في ج ١ ص ٢٤٥ - ٣٠١ .

وان كان ابن شهيد قد اتخذ رسالته معرضا لاروع انتاجه
الشعري والنثري فمن الطبيعي ان تتضمن آراءه النقدية التي تقوم بها
جودة الشعر والنثر والتي من جرائها اكتسب عداوة معاصريه ، واهم هذه
الآراء نظرية الجمال الفني المطلق للعمل الادبي ، ومعياره في ذلك قدرة
الاديب وبراعته وحسن سبكه وصياغته بحيث " يتناول الوضيع فيرفعه ،
والرفيع فيضفه ، والقبيح فيحسنه " ولعل هذا يفصر انشاءه للقطع
الوصفية الصغيرة في برغوث وبعوضة وثلعب والتي يضي فيها على هذه
المخلوقات الضعيفة صفات الشجاعة المرهوبة وذلك بألفاظه الجزلة ومعانيه
الفخمة . فقد جاء في وصفه للبرغوث مثلا : " اسود زنجي ، واهلي
وحشي ، ليس بوان ولا زميل وكأنه جزء لا يتجزأ من ليل . . . يكمن
نهاره ويسرى ليله ، يدارك بطعن موهم ويستحل دم كل مسلم و ، مساور
للأساوره ، يجرذيله على الجبابرة ، يتكفر بأرفع الثياب ، وبهتك سترة
كل حجاب ، ولا يحفل بجواب . . .) ويقول في وصف الثعلب :
(أدهى من عمرو وأفتك من قاتل حذيفة بن بدر ، كثير الوقائع فسي
المسلمين ، مغرى باراقة دماء الموءذنين ، اذا رأى الفرصة انتهزها ،
وانا طلبته الكماة أعجزها . . .) وسدة الامر ولحمته عنده الموهبة
الفضية وليس العلم والدراسة والتحصيل ومن هنا سخر باين الاخليبي
الذي يزعم انه ابو البيان لتلقيه ذلك عن الموءذنين وذلك لان البيان
لا يكتسب بالتعليم انما هو من تعليم الله سبحانه وتعالى حيث قال :
((الرحمن علم القرآن ، خلق الانسان ، علمه البيان)) .

وجوعر نظريته النقدية ان البون شامع بين الموهبة والاكتساب ،
وذلك سبب خصومته للفقيرين وسخريته بهم وايمانه بمعجزهم وجد بهم ،
وجمودهم على التلقي والاكتساب فقط ، ومن هنا نجد عند ما يتحدث عن
ضرورة العلم والجلوس الى العلماء يرينا انه نيسج وحده يقول : (. . . وقليل
الالتماح من النظر يزيدني ويسير المطالعة من الكتب يفيدني ، ان صادف
شن العلم طبقه ، ولم اكن كالثلج تقتبس منه نارا ، ولا كالحمار يحمل
اسفارا ، فطعننت ثغرة البيان دراك ، وأعلقت رجل طيره اشراك ،
فانثالت لي العجائب وانهاالت علي الرغائب . . .)

ومن المشكلات التي شغلت ابن شهيد - ايضاً - ذوق العصر في احتفاله بالسجع ، عبر عن ذلك على لسان تابع الجاحظ حين نقده بقوله : (انك لمخطيب وحائك للكلام مجيد لولا . مغرى بالسجع فكلامك نظم لانثر)

ومن ثم دافع عن نفسه الاتهام - وضحا انه بذلك يجارى ذوق عصره مع علمه بأصول البيان واسبابه ، فقد دعى ببقاوة اهل الزمان وعدم فرسان الكلام فحركهم بالازدواج ، كما أجازله تابع الجاحظ ان يرمي قومه التي هم تلك حالتهم (بسجع الكهان . فمضى ان ينغمسك عندهم ، ويظير لك ذكرا فيهم . .)

أما السرقات الادبية فكانت من قضايا عصره النقدية وكان من المتهمين بها فنراه يبدى فيها رأياً حاسماً فيجيز للشعراء الاخذ حسب قانون وضعه هو بقوله : (" اذا اعتمدت معنى قد سبقك اليه غيرك ، فاحسن تركيبه ، وارق حاشيته ، فاضرب عنه جملة ، وان لم يكن بد ففي غير العروض التي تقدم اليها ذلك المحسن ، لتتنشط طبيعتك ، وتقوى منتك) " .

ولعله بهذه القاعدة يبرر لنا سرغرامه بمعارضة قصائد النفعول الذين التقى بهم في رحلته ، وهو يقسم أهل صناعة الكلام الى ثلاث طبقات متباينون في المنزلة ، متعاضلون في شرف المرتبة ، على مقدار احسانهم وتصرفهم :

" فمنهم الذي ينظم الاوصاف ويخترع المعاني ويحرز جيد التأليف ، الا أنه يجرى في الابيات القليلة والماخذ القريبة فان اكثر عليه وازد حمت ، وقف وانقل وتلاشى واضمحل ، ومنهم الكارع في بحر الغزارة ، يمر مر السيل في اندفاعه لا يشكو الغشل ، ولا يكل على طول العمل ، فذلك الالسن يوم حرب الكلام ، لا تخطي ضريته ، ولا تصاب غرته ومنهم من يتجافى عن الكلام ، ويروغ عن المقال ، فاذا مني به أخذ بأطراف المحاسن ، وشارك في انحاء من الصنعة ، وجلّ ما عنده تلفيق وحيله ، وبذلك يصاحب الايام ، ويجارى لا ابناء الزمان

ومن خرج عن هذه الطبقات الثلاث لم يستحق اسم البيان ، ولا يدخل
في اهل صناعة الكلام . " ١)

وله أيضا نظرات نقدية كثيرة ضمنها رسالته كالعلاقة او النسب
بين الجروف ودوره في ترتيب الكلمات وعلاقة التأثير الجسمي وتركيب
الاعضاء بالبيان وصور الكلام " فمن كانت نفسه مسئولية على جسمه ، كان
مطبوعا روحانيا يطلع صور المعاني في أجمل هيئاتها ، ومن كان جسمه
مستوليا على نفسه من اجل تركيبه ، كان ما يطلع من الصور ناقصا عن
الدرجة الاولى .

الخصائص الفنية لاسلوب الرسالة :

قسم الكاتب الرسالة الى مشاهد وفصول في محاولة منه لاجساد
بداية قصصية مشوقة فترى العناية بالسرد والاداء حتى يحكم هذا
الاطار .

ولعل أهم مقومات اسلوبه القصصي ما نجد فيه من خيال قوامه شيء
من الاساطير والخوارق وليس ادل على ذلك من اختيار الميدان
الذي دارت فيه حوادث قصته ، وطريقة استدعا المتابعة كما نحس
صدى الصور الاسطورية الخيالية في استدعاء بعض من قابلهم كتابي
تمام (فانطلق ماء العين عن وجه فتى كقلقه القمر ثم اشتق الهواء
صاعدا لينا من قمرها حتى استوى معنا ")

ومن خصائص الاسلوب العناية الفائقة بتصوير الاخلاق والاشكال
للتوابع الذين لقيهم في اطار من التحليلات النفسية ، فصاحب الجاحظ
عتمة بن ارقم (شيخ اصلع ، جاحظ العين اليمنى ، على رأسه قلنسوة
بيضاء طويلة) وصاحب المتبني حارثة بن المغلنس (فارس على فرس

بيضا . كأنه قضيت على كتيب ، وسيداه قناة قد اسنله ها الى عنقه ،
وعلى رأسه غمامة حمراء ، قد الرخلى لها عذبه صفراء) .

أما تابع ابن الا فليلي (جني اشمط ربيعه وارم الانف ، يتظالم
في مشيته ، كاسرا لطرفه وزاويا لأنفه . .) بجانب ذلك نجد اهتماما
خاصا عند الكاتب بالاوصاف الدقيقة يعمد اليها في اناة وتمهل ، ولعل
مرد ذلك الى ضعف حاسة السمع عنده حيث يجد تعويضها في الولوج ،
بالصور المرئية المنتقاة المتنوعة وأوضح مانرى هذه النزعة في لقاءه بحسين
اللدنان صاحب ابي نواس وكيف سار اليه يقول : " وسرنا بنختاب أد يارا
وكنائس وحانات حتى انتهينا الى دير عظيم تصبى روائحه ، وتصول
نوافحه . . . واقبلت نحونا الرهابين مشددة بالزنانير ، وقد قبضت على
العكاكيز بيض الحواجب واللحي اذا نظروا الى المرء استحيا ، مكثرين
للتسبيح ، عليهم عدى المسيح . . وجاءوا بنا الى بيت قد اصطفيت
دنانه ، وعكفت غزلانه ، وفي فرجته شيخ طويل السبله ، قد افترش
أضغاث زهر ، واثكأ على زق خمر ، وييده طرجهاره ، وحواليه صبية
كأطب تعطوا الى عراره . . . " . فنرى هنا تتابع الوصف بدقة ليشخص
الموصوف فلا يغادر منظرا صغيرا ولا كبيرا الا وقف عنده يفرد له اوصافا
مقصودة لذاتها باسلوب جزيل رشيق يعني برسم صور حسيه ذوقية ،
كما نحس ان الكاتب قد وفق في ايجاد تلك الهزة التي يرمي اليها
الاسلوب القصصي وذلك بايجاد قدر من التوقع والمفاجأة وهما عماد
عنصر التشويق في القصة نحس هذا عندما تجاوز الركب الشاعر قيس بن
الخطيم ولم يعرج عليه فاذا فارس يشد في أثرهم كأنه الاسد على فرس
كأنها العقاب وهو في عدوه ذلك ينشد :

طعنت ابن عبد القيس طعنه نائر

لها نفذ لولا الشعاع أضاعها

وملاحظ في أسلوب الرسالة ظاهرة الحوار حيث نجد في بداية
كل مجالس يبدأ دائما (فقال لي زهير)

ونجد في بعض المجالس مطولا كما في مجلس الجاحظ وعبد الحميد
بل قد يهتم ابن شهيد بايجاد قدر من الحوار الداخلي يديره و- مع
نفسه ، فلما نقده صاحب الجاحظ بقوله : (. . كلامك نظم
لا نثر) " فقلت في نفسي : قرعك الله بقارعته " ولما زجره صاحب عبد
الحميد واتهمه باللكنة نراه يستدرك " فقلت في نفسي طبع عبد الحميد
ومساقه ، ورب الكعبة . . " ولما احتدم نقاشه مع صاحب الفيلسفي
أنف الناقة ، وقال عن ابن شهيد لم اعرف على من قرأ ؟ " فقلت في
نفسى العصاة من العصابة " .

ولعل المشهد الاخير من الرسالة قد خص بقدر كبير من الفكاهة
المضحكة حين يحكم ابن شهيد بين بغل وحمار عاشقين وقد نظم كل
منهما قصيدة يصف عواه ويشكو تباريح الصدود والهجر فيحكم للبغل
على الحمار : " وقلت للمنشد ماهويت ؟ قالت هو هويت بلفة الحمير ،
فقلت والله ان للروث لرائحة كريهة وقد كان أنف الناقة أجدر ان
يحكم في الشعر " (١)

وكذلك لا يقل لقاؤه مع بغلة ابي عيسى اضحاكا عن موقفه من
الحكم بين العاشقين :

" وقالت لي البغلة : اما تعرفني أبا عامر ؟ قلت : لو كانت
ثم علامة فأما طلت لثامها ، فاذا هي بغلة ابي عيسى ، والخال على
خدها ، فتبايكينا طويلا ، واخذنا في ذكر ايامنا ، فقالت : ما أبقت
الايام منك ؟ قلت : ماترين ، قالت شب عمرو عن الطوق ؟ فما فعل
الاحية بعدى ، أهم على العهد ؟ قلت : شب الفلطان وشاخ الفتيان

(١) انظر المشهد كاملا في التزييع والزوابع : ٢٠٢ - ٢٠٥ .

وتنكرت الخلان . . . وقالت بحرمة الادب الا ما أقرأتهم مني السلام ،
قلت ؛ كما تأمرين وأكثر) .

ولا يخفى ان ابن شهيد كان حاد المزاج في رسالته ، لذلك
لم تخل فكاهته من شراسة وسخرية بالمعارضين . وقد حرص ابن شهيد
ان يجعل للرسالة بعدا مكانيا حين اختار بلاد الجن مسرحا لقصته ..
وبعدا زمانيا حين تدرج تاريخيا في لقاء الشعراء والكتاب ..

الخاتمة ؛

المقامة والرسالة الأدبية هما اللونان الشريان المختصان بالنثر الفني الخالص ، دون ألوان النثر الأخرى ، ولذلك فبينهما من التقارب والمماثلة الواضحة في الأغراض المطروقة ، وأساليب الأداء مما جعلني أجمع بينهما في هذا البحث . فإذا نظرنا في موضوعات وأغراض المقامة بشقيها التقليدي وغير التقليدي ، ونظرنا إلى أغراض الرسالة الأدبية نجد التشابه إلى حد كبير فالمقامات حينما تسخر وتهزل ، وتتهكم تذكرنا بالرسالة الأدبية المختصة في هذا المجال .

وان كانت المقامة قد اعتمدت السخرية في ثياب المكدين مثلا ، فقد اعتمدتها الرسائل الأدبية في ثياب البخلال والفضوليين ، وكل من المقامة والرسالة الأدبية طرقتا الأسلوب الفني للسخرية والهزل والتهكم عن طريق إيراد النكتة البشرية ممثلة في التصوير (الكاريكاتور) للشخصيات وفي التناقض الذي يأتي به الكاتب في : جوانب الشخصية الواحدة ليصدر بالتالي حكمه عليها ، وان كانت المقامة قد تصل إلى درجة الاسفاف أحيانا حين تخرج بالنكتة البشرية عن مقتضيات الذوق العام ، وتعرض لشيء من التهتك والمجون ، وتجريح الحياء ، وما إلى ذلك ، فقد سلمت الرسالة الأدبية بوجه عام من هذا الاسفاف .

والمقامات عندما تصف تذكرنا بالرسائل الأدبية الواردة فسي هذا الغرض ، ويقصدان معا من خلال إيراد الوصف إلى أحكام الأسلوب ، وإظهار البراعة اللفوية والادلال على سعة ثقافة الكاتب .

والذي يبدو لنا من دراسة النثر الأندلسي في تلك الحقبة - عصر الطوائف والعرابطين - أن الأندلسيين قد شغفوا بقالب المقامة بوجه خاص ، ومن ثم صبوا في وعاءه نثرهم الأدبي ، فلو جعلنا رسالة ابن برد الأصغر في السيف والقلم ورسائل المناظرة بين أنواع الورود من باب المقامة لما جانبا الصواب كثيرا ، هذا وان كان الكاتب يحرص حين يصب نثره الفني في وعاء المقامة على إيجاد قدر من التأثير الدرامي ،

فهو تأثير محدود . كما سبق ايضاحه في باب .
والمقامة عندما تصح او شهجو ، أو تتغزل لهي من باب الرسالة
الأدبية العاطفية عندما تطرق أبواب الشعر وتوس دائرة المواطف
الانسانية ، فترقى وتفسو ، وتشف وتحت في اطار ما يتيح ذلك
من مؤثرات أسلوبه عامة .

أما المقامة الجامعة فتأخذ من الرسالة الأدبية بالكثير
من باب ، وتتعلق منها بأكثر من سبب حيث تقص ، وتصف ، وتجادل
وتسخر وتهزل .

فالربط بين المقامة والرسالة الأدبية يكمل الصورة المثالية للنشر
الأدبي الفني الخالص في الأندلس ، إذ تلتقيان في معظم الأغراض
للتعبير عن مناهي سياسية واجتماعية وخلفية وفكرية وأدبية ، وان
اختلفتا بعض الشيء في أسلوب التعبير فهو اختلاف في القالب ،
وليس في المحتوى . فالمقامة التقليدية حكاية قصيرة يسودها شبهة
حوار درامي قوامها بطل وراو وعقده ، وبين الراوي والبطل صلة
وثيقة ونسب هونسب العلم ، فذلك نجد الراوي باحثا عن البطل
في شتى الأصقاع ، وملتقيا معه في جميع أحواله على أشكال مختلفة لتحل
بذلك عقدة المقامة .

أما غير التقليدية فهي رسالة تكون أولا تكون في قالب قصصي ،
وفي القالب تخلو من عناصر المقامة التقليدية كالبطل والراوي والعقدة .
فهذه الأشكال الفنية من التعبير - أعني المقامة والرسالة الأدبية -
تلتقي في مصب واحد حين تعبر عن أحوال المجتمع وما يعتره من تقلبات
سياسية واجتماعية وخلقية وفكرية وأدبية . عبرت تعبيرا فنيا عن طريق الوصف
والقصص والسخرية والمفاخرات والعاطفة وغير ذلك .

من هنا جاز لنا أن ننظر للرسالة والمقامة نظرة شاملة لا تغل بها
اختلافات طفيفة قد تطرأ على الأسلوب أو المعالجة الدرامية ، وهما
يلتقيان في الأسلوب الثرى التقاءها في الأسلوب الفني من حيث

تزاوج الشعر بالثر ، وجودة تد اللفظ ، وتضمين الأخبار والأشكال والنوادر والحكم واستعمال المحسنات اللفظية والمعنوية بمختلف أساليبها . وقد يختلفان شيئاً ما حين تعمد المقامة - في الغالب - الى التزام السجع والصيغة الخطابية ، وتعمد الرسالة المزاجية والصيغة الذاتية ، عدا رسائل المناظرات فهي خطابية النزعة .

وبعد ، فالرسالة أقدر من المقامة على طول النفس والامتداد ، أما المقامة فأقدر على وحدة الغرض حين تسلك نهج الجهارة والقصر لتضمن التأثير المنشود ، ويقابل ذلك اعتماد الرسالة جانب الأناسة والتجويد في الإيقاع لتضمن الاحتفال بأكثر قدر من الذاتية والفنائية في التعبير الذي لم تعرفه المقامة .

.....

مصادر البحث ومراجعته

أولاً : المصادر المخطوطة :

ابن أبي الخصال : أبو عبد الله محمد بن مسعود الفافقي .
١- ترسل الفقيه الكاتب - مخطوط بالاسكوريال تحت
رقم ٥٣٨ أدب .

السرقسطي : أبو الطاهر محمد بن يوسف المازني التميمي :
٢- المقامات اللزومية ، مخطوط بمعهد المخطوطات
العربية بالقاهرة تحت رقم ٧٩٤ . أدب .
مؤلف مجهول :

٣- رسائل أدبية ، مخطوط بدار الكتب المصرية تحت
رقم ٤٦٥٠ . أدب .

مؤلف مجهول :
٤- مجموعة رسائل سياسية وأخوانية اندلسية ، مخطوط
بمعهد المخطوطات العربية بالقاهرة تحت رقم
٤٢١ . أدب .

مؤلف مجهول :
٥- مخطوط بالاسكوريال رقم ٤٨٨ ، لا عنوان له .

المصادر المطبوعة :

ابن الأثير : أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن أبي بكر القضاءسي
٦- اعتاب الكتاب ، تحقيق صالح الاشر ، ط دمشق ١٩٦١ م
٧- التكملة لكتاب الصلة ، نشر عزة العطار ، ط القاهرة ١٩٥٦ م
٨- الرحلة السيرة ، تحقيق حسين مونس ، ط القاهرة ١٩٦٣ م
٩- المعجم في اصحاب الصدي ، ط مدريد - ١٨٥٨ م .

ابن الأثير : غنياء الدين :
١٠- المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر ، تحقيق أحمد الحوفي
وبدو طبانة ، القاهرة - ١٣٧٩ هـ - ١٩٥٩ م

البحتري : ابو عمادة ، الوليد بن عبيد الطائي :

١١ - ديوان البحتري ، تحقيق حسن كامل الصيرفي ،

القاهرة ١٩٧٤ م .

ابن بسام : ابو الحسن علي الششتري :

١٢ - الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة

القسم الأول ج ١ ، ج ٢ ، تحقيق احسان عباس ط بيروت

١٣٩٨ هـ - ١٩٧٨ م

القسم الثاني ج ١ ، ج ٢ ، تحقيق احسان عباس ط بيروت

١٣٩٨ هـ - ١٩٧٨ م

القسم الثالث ج ١ ، تحقيق احسان عباس ط بيروت

١٣٩٩ هـ - ١٩٧٩ م .

القسم الرابع ج ١ ، تحقيق احسان عباس - ط بيروت

١٣٩٩ هـ - ١٩٧٩ م .

القسم الأول ج ٢ ، مطبوعات جامعة القاهرة ،

١٣٦١ هـ - ١٩٤٢ م

القسم الرابع ج ١ ، مطبوعات جامعة القاهرة ، ١٣٦٤ هـ

١٩٤٥ م .

ابن بشكوال : ابو القاسم خلف بن عبد الملك :

١٣ - الصلة ، ط القاهرة ١٩٦٦ م

البغدادي : أحمد بن علي ، الخطيب

١٤ - تاريخ بغداد ، ط بيروت د . ت .

البغدادي : عبد القادر بن عمر :

١٥ - خزنة الأدب ، تحقيق عبد السلام هارون ، ط القاهرة

١٣٨٧ هـ - ١٩٦٨ م

البكري : أبو عبيد الأويني :

١٦ - سمط اللالي - القاهرة : ١٣٥٤ هـ - ١٩٣١ م

البلاذري : أحمد بن يحيى :

١٧ - أنساب الاشراف ، تحقيق محمد حميد الله ، القاهرة ١٩٥٩ م

- البيهقي : أبراهيم بن محمد :
- ١٨ - المحاسن والمساوي ، ط بيروت ١٣٩٠ هـ - ١٩٧٠ م
التطيلي : أحمد بن عبد الله بن هريوة :
- ١٩ - ديوان الاعشى التطيلي ، تحقيق احسان عباس ، ط :
بيروت ١٩٦٣ م .
- ابو تمام : حبيب بن أوس الطائي :
- ٢٠ - ديوان أبي تمام ، تحقيق محمد عبده عزام ، القاهرة ١٩٦٤ م
التوحيدى : ابو حيان ، علي بن محمد .
- ٢١ - الأمتاع والموائسة ، ط - بيروت ، د . ت .
- الثعالبي : أبو منصور ، عبد الملك بن محمد بن اسماعيل النيسابورى :
- ٢٢ - يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر ، تحقيق محمد محيى
الدين عبد الحميد ، بيروت ١٣٩٣ هـ - ١٩٧٣ م
- ٢٣ - المنتحل ، ط الاسكندرية ١٣٢١ هـ .
- الجاحظ : ابو عثمان ، عمرو بن بحر :
- ٢٤ - البخلاء ، ط بيروت ، د . ت .
- ٢٥ - البيان والتبيين ، تحقيق عبد السلام هارون -
القاهرة ١٣٩٥ هـ .
- ٢٦ - الحيوان ، تحقيق عبد السلام هارون ، القاهرة ١٣٨٦ هـ
- ١٩٦٦ م .
- ٢٧ - مجموعة رسائل الجاحظ ، تحقيق عبد السلام هارون ،
القاهرة ١٣٨٤ هـ - ١٩٦٤ م .
- ابن الجوزى : عبد الرحمن بن علي :
- ٢٨ - المنتظم في تاريخ الملوك والأمم - ط حيدرآباد ١٣٥٨ هـ
الجهشياري : ابو عبد الله ، محمد بن عبد القدوس :
- ٢٩ - الوزراء والكتاب ، تحقيق مصطفى السقا ، وابراهيم الابيارى
عبد الحفيظ شلبي - القاهرة ١٣٥٧ هـ - ١٩٣٨ م
- الجوهري : اسماعيل بن حماد :
- ٣٠ - الصحاح ، تحقيق أحمد عبد الغفور عطار ، القاهرة ١٣٧٧ هـ

حاجي خديفه : مصطفى بن عبد الله ، الشهير بخال من جلبي :

٣١ - كشف الظنون ، ط بغداد ١٩٤١ م .

الحريري : القاسم بن علي :

٣٢ - المقامات الأدبية ، القاهرة ١٩٥٥ م

ابن حزم : أبو محمد ، علي بن أحمد :

٣٣ - جمهرة أنساب العرب ، تحقيق عبد السلام عارون -

القاهرة ١٩٦٢ م .

٣٤ - طوق الحمامة في الألفة والالاف ، تحقيق فاروق سعد ،

بيروت ١٩٧٢ م .

الحصري : ابو اسحاق ابراهيم بن علي القيرواني :

٣٥ - زهر الآداب ، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد ،

ط بيروت ١٩٧٢ م

الحموي : ابو عبد الله ، ياقوت بن عبد الله

٣٦ - معجم الأرباء ، ط مصر د . ت

٣٧ - معجم البلدان ، ط بيروت ١٣٧٦ هـ - ١٩٥٧ م .

الحميري : ابو عبد الله محمد بن أبي نصر الازدي :

٣٨ - جذوة المقتبس ، القاهرة ١٩٦٦ م

الحميري : محمد بن عبد المنعم :

٣٩ - الروض المعطار ، ط بيروت ١٩٧٥ م

الحنبلي : ابو الفلاح عبد الحبي بين العماد :

٤٠ - شذرات الذهب في اخبار من ذهب ، ط بيروت د . ت

ابن حيان : أبو مروان حيان بن خلف بن حيان :

٤١ - المقتبس من انباء أهل الأندلس ، تحقيق محمود مكي ،

ط بيروت ١٣٩٣ هـ - ١٩٧٣ م .

ابن خاقان : الفتح بن محمد بن عميد الله القيسي :

٤٢ - قلائد المقيان ، تحقيق محمد العنابي ، ط تونس د . ت

٤٣ - مطمح الأنفس ومسرح التأنس في ملح أهل الأندلس ،

القاهرة ١٣٢٥ هـ .

ابن الخطيب : ابو عبد الله محمد بن عبد الله بن سعيد السلماني ،
لسان الدين :

٤٤ - اعمال الأعلام ، تحقيق أحمد مختار العبادي ، الدار
البيضاء ، ١٩٦٤ م .

٤٥ - الاحاطة في اخبار غرناطة ، تحقيق محمد عبد الله عنان ،
ط القاهرة ١٣٩٣ هـ - ١٩٧٣ م .

ابن خلدون : عبد الرحمن بن محمد :

٤٦ - المقدمة ، ط بيروت د . ت .

٤٧ - كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في اخبار العرب والمجم
والبربر ومن عاصرهم من ذوى السلطان الأكبر ط بيروت
١٣٩٩ هـ .

ابن خلكان : شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر :

٤٨ - وفيات الأعيان ، ط بيروت ١٩٧٢ م

الخنساء : تماضر بنت عمرو :

٤٩ - ديوان الخنساء ، ط بيروت ١٩٦٣ م

ابن خيبر : ابو بكر محمد بن عمر الأمدى الاشبيلي :

٥٠ - الفهرسة ، ط القاهرة ١٣٨٢ هـ - ١٩٦٣ م

ابن دحية : عمر بن الحسن بن علي بن أحمد :

٥١ - المطرب من اشعار أهل المغرب ، تحقيق ابراهيم اليباى ،

حامد عبد المجيد ، ط الاميرية ١٩٥٥ م .

ابن أبي دينار : ابو عبد الله أحمد بن أبي القاسم الرعيني :

٥٢ - المونس في اخبار افريقيا وتونس ، تحقيق محمد شحام ،

تونس ١٩٦٧ م .

الرازي : محمد بن أبي بكر عبد القادر :

٥٣ - مختار الصحاح ، ط بيروت ١٣٥٨ هـ - ١٩٣٩ م .

ابن الرومي : علي بن العباس بن جريج :

٥٤ - ديوان ابن الرومي ، تحقيق حسين نصار ، ط القاهرة

١٩٧٤ م .

- الزيطوي : محمد مرتضى :
٥٥ - قاج الروس ، ط بيروت ١٣٨٣ هـ - ١٩٦٣ م
ابن أبي زرع : ابو الحسن علي بن محمد :
٥٦ - الأنيس المطرب بروض القرطاس في اخبار ملوك المغرب
وتاريخ مدينة فاس - ط الرباط - ١٩٧٣ م
ابن زيدون : ابو الوليد احمد بن عبد الله :
٥٧ - ديوان ابن زيدون ، تحقيق ، سيد كيلاني ، القاهرة :
١٣٨٥ هـ - ١٩٦٥ م .
الزمخشري : أبو القاسم محمود بن عمر :
٥٨ - اساس البلاغة ، ط القاهرة ١٩٦٠ م .
الأزهري : أبو منصور ، محمد بن أحمد :
٥٩ - تهذيب اللفظة ، تحقيق عبد الحلیم النجار ، محمد علي
النجار ، ط القاهرة ١٣٨٤ هـ - ١٩٦٤ م .
ابن سعيد : محمد بن عبد الملك :
٦٠ - المغرب في حلى المغرب ، تحقيق شوقي ضيف ،
القاهرة ١٩٦٤ م .
ابن سلام : محمد بن سلام الجمحي :
٦١ - طبقات فحول الشعراء ، تحقيق محمود شاکر ، ط القاهرة
١٩٧٤ م .
ابن أبي سلمى : زهير :
٦٢ - ديوان زهير ، شرح ابي العباس ثعلب ، ط القاهرة
١٣٦٣ هـ - ١٩٤٤ م .
السلوى : ابو العباس احمد بن خالد الناصري :
٦٣ - الاستقصاء لاخبار دول المغرب الأقصى ، تحقيق ،
جعفر الناصري ، محمد الناصري ط الدار البيضاء ،
١٩٥٤ م .
السيوطي : جلال الدين عبد الرحمن :
٦٤ - بغية الوعاه ، تحقيق ابو الفضل ابراهيم ، ط القاهرة :
١٣٨٤ هـ - ١٩٦٤ م

- الشريشي : أحمد بن عبد المؤمن القيسي :
- ٦٥ - شرح المقامات الحريرية ، تحقيق ابو الفضل ابراهيم ، ط القاهرة ١٩٧٢ م .
- الشهاب : احمد بن محمد بن عمر الخفاجي :
- ٦٦ - ریحانة الالباء ، تحقيق عبد الفتاح الحلو ، القاهرة : ١٣٨٦ هـ .
- ابن شهيد : أبو عامر ، احمد بن عبد الملك :
- ٦٧ - رسالة التوابع والنزوابع ، تحقيق بطرس البستاني ، بيروت ١٩٤٦ م .
- الصفدي : خليل بن اييك :
- ٦٨ - تمام المتون شرح رسالة ابن زيدون (الجديدة) ، تحقيق ابو الفضل ابراهيم - ط - القاهرة ١٣٨٩ هـ - ١٩٦٩ م .
- ٦٩ - الوافي بالوفيات : ط فراتزشتايز بيفيسيا ١٣٨٤ هـ - ١٩٧٤ م .
- ٧٠ - نكت الهيمن في نكت العميان : ط القاهرة د . ت .
- الأصفهاني : أبو عبد الله محمد بن محمد بن حامد المصروف بالعماد الكاتب :
- ٧١ - خريدة القصر وجريدة العصر ، القسم الرابع ج ١ ، ج ٢ ، تحقيق عمر الدسوقي ، وعلي عبد العظيم - ط القاهرة ١٩٦٤ م .
- الأصفهاني : أبو الفرج ، علي بن الحسين :
- ٧٢ - الأغاني ، ط - بيروت ١٩٥٨ م .
- صفوان : ابو البحر :
- ٧٣ - زاد المسافر ، تحقيق عبد القادر محداد ، بيروت ١٩٣٩ م .
- الضبي : احمد بن يحيى بن احمد بن عميره :
- ٧٤ - بغية الملتس ، ط مدريد ١٨٨٤ م .
- الضبي : ابو العباس المفضل بن محمد :
- ٧٥ - المفضليات ، تحقيق يعقوب لايل ، بيروت ١٩٢٠ م .

- الطرطوشي : ابوبكر محمد بن الوليد القرشي :
- ٧٦ - سراج الملوك ، ط الاسكندرية ١٢٨٩ هـ - بعناية
أنطون غندور .
- ابن الطقطقا : محمد بن علي بن طباطبا :
- ٧٧ - الفخرى في الآداب السلطانية ، بيروت ١٣٨٦ هـ -
١٩٦٦ م .
- المسكرى : ابو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل :
- ٧٨ - الصناعتين ، تحقيق علي محمد الجاوي ، ومحمد ابو الفضل
ابراهيم ، ط القاهرة ١٩٧١ م .
- الفيروز ابادى : مجد الدين :
- ٨٠ - القاموس المحيط ، القاهرة ١٣٥٧ هـ - ١٩٣٨ م .
- ابن قتيبة : ابو عبد الله محمد بن مسلم الدينورى :
- ٨١ - عيون الأخبار ، ط القاهرة ١٣٤٨ هـ .
- القفطي : جمال الدين ابي الحسن علي بن يوسف .
- ٨٢ - انباه الرواه ، ط القاهرة ١٣٧١ هـ - ١٩٥٢ م
- القلقشندى : أبو العباس احمد بن علي :
- ٨٣ - صبح الأعشى في صناعة الانشاء ، ط المؤسسة المصرية
العامة للتأليف والترجمة والنشر - د . ت .
- القالبي : ابو علي اسماعيل بن قاسم البغدادي :
- ٨٤ - الأمالي ، بيروت سنة ١٣٩٨ هـ - ١٩٧٨ م
- كعب : ابن زهير :
- ٨٥ - ديوان كعب ، شرح السكرى ، القاهرة ١٩٥٠ م .
- الكلاعي ، ابو القاسم ، محمد بن عبد الغفور :
- ٨٦ - احكام صنعة الكلام ، تحقيق رضوان الداية ، بيروت ١٩٦٦ م
- المتنبي : أحمد بن الحسين :
- ٨٧ - ديوان المتنبي ، شرح العكبرى ، بيروت ١٣٩٧ هـ -
١٩٧٨ م .

- المحيي : محمد أمين بن فضل الله :
- ٨٨ - خلاصة الأثر في اعيان القرى الحادى عشر ، بيروت د . ت
المراكشي : احمد بن محمد بن عذارى :
- ٨٩ - البيان المغربي في أخبار الأندلس والمغرب ، تحقيق :
ليفى بروفنسال - بيروت ١٩٦٧ م .
- المراكشي : ابو عبد الله محمد بن عبد الملك الانصارى :
- ٩٠ - الذيل والتكلمة ، تحقيق احسان عباس ، بيروت ١٩٦٥ م
المراكشي : محيى الدين عبد الواحد بن علي :
- ٩١ - المعجب في اخبار المغرب ، تحقيق سعيد العريان ،
القاهرة ١٣٨٣ هـ - ١٩٦٣ م .
- المرزباني : ابو عبد الله ، محمد بن عمران :
- ٩٢ - نور القيس ، تحقيق رودلف زلهام ، ط بفسيدان -
١٣٨٤ هـ - ١٩٦٤ م .
- المسعودى : أبو الحسن - علي بن الحسين بن علي :
- ٩٣ - مروج الذهب ، تحقيق محيى الدين عبد الحميد ،
بيروت ١٩٧٣ م .
- المصرى : أبو العلاء ، أحمد بن سليمان التنوخي :
- ٩٤ - رسالة الففران ، تحقيق بنت الشاطي ، القاهرة ١٣٨٨ هـ
- ١٩٦٩ م .
- المصرى : احمد بن محمد التلمساني :
- ٩٥ - نفع الطيب من غصن الأندلس المرطيب ، تحقيق احسان
عباس ، ط بيروت ١٣٨٨ هـ .
- ٩٦ - ازهار الرياض في اخبار القاضي عياض ، تحقيق مصطفى
السقا ، ابراهيم الابيارى ، عبد الحفيظ شليبي -
ط القاهرة ١٣٥٨ هـ - ١٩٣٩ م .
- ابن منظور : ابو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم :
- ٩٧ - لسان العرب ، ط بيروت ١٣٧٥ هـ - ١٩٥٦ م

مؤلف مجهول :

٩٨ - الحلل العوشيه في ذكر الاخبار المراكشيه ، تحقيق سهيل زكار وعبد القادر زمامه ط - الدار البيضاء ١٣٩٩ هـ -

٠ م ١٩٧٤

ابن نباته : جمال الدين المصري :

٩٩ - شرح العميون في شرح رسالة ابن زيدون (الهزلية)

تحقيق ابو الفضل ابراهيم ، القاهرة ١٣٨٣ هـ - ١٩٦٤ م

الانباري : كمال الدين عبد الرحمن بن محمد :

١٠٠ - نزهة الالباء في طبقات الأدباء ، تحقيق ابو الفضل

ابراهيم ، القاهرة ١٣٨٧ هـ - ١٩٦٨ م

الانصاري : عبد الرحمن بن محمد الاسيدى الدباغ :

١٠١ - معالم الايمان في معرفة أهل القيروان ، تحقيق : محمد

أبو النور ، محمد ماضور ، القاهرة ١٩٧٢ م

أبونواس : الحسن بن هاني :

١٠٢ - ديوان ابي نواس ، ط القاهرة ١٨٩٨ م

ابن النديم : ابو الفرج محمد بن أبي يعقوب اسحق الوراق :

١٠٣ - الفهرست : ط طهران ١٣٩١ هـ - ١٩٧١ م

النوهري : شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب :

١٠٤ - نهاية الأرب في فنون الأدب ، ط القاهرة :

٠ م ١٩٢٣ - ١٣٤٢ هـ

الهمداني : بديع الزمان احمد بن الحسين :

١٠٥ - المقامات الهمدانية ، شرح محمد محيي الدين عبد الحميد

ط القاهرة ١٣٨١ هـ - ١٩٦٢ م

الورغي : ابو عبد الله محمد بن أحمد الورغي :

١٠٦ - مقامات الورغي ورسائله ، تحقيق عبد العزيز الفيواني ،

ط تونس ١٩٧٢ م

المراجع الحديثة :

أمين ، أحمد :

١٠٧ - ظهرا الاسلام ، ط بيروت ١٣٨٨ هـ - ١٩٦٩ م .

الأشتر : عبد الكريم :

١٠٨ - نصوص مختارة من الأدب العباسي ، ط بيروت ١٩٦٩ م

بروكلمان ، كارل :

١٠٩ - تاريخ الأدب الاسلامي وانحلالها في الأندلس ،

بيروت ١٩٥٤ م ، ترجمة نبيه فارس ، ومشير البعلبكي

بلنثيا : آنخل :

١١١ - تاريخ الفكر الأندلسي ، ترجمة حسين مؤنس ، ط

القاهرة ١٩٥٥ م .

الأحدب : ابراهيم الطرابلسي :

١١٣ - كشف المعاني والبيان عن رسائل بديع الزمان ،

بيروت ١٨٩٠ م .

خالص ، صلاح :

١١٣ - اشبيلية في القرن الخامس ، بيروت ١٩٦٥ م

خفاجي : محمد بن عبد المنعم :

١١٤ - أبودلف الخزرجي ، المكتبة الصغيرة : د . ت .

الزركلي : خير الدين :

١١٥ - الاعلام ، ط بيروت ١٣٨٩ هـ - ١٩٦٩ م .

الزيات : أحمد حسن :

١١٦ - تاريخ الأدب العربي - ط بيروت - د . ت .

سالم ، عبد العزيز :

١١٧ - تاريخ مدينة المريه الاسلامية . ط بيروت ١٩٦٩ م .

١١٨ - قرطبة حاضرة الخلافة في الأندلس ، بيروت ١٩٧١ م

شارل ، بلا

- ١١٩ - ابن شهيد الاندلسي ، عمان ١٩٦٥ م .
الشرتوني : سعيد الخوري :
- ١٢٠ - اقرب الموارد ، بيروت ١٨٨٩ م .
الشكعة : مصطفى :
- ١٢١ - الألب الاندلسي ، بيروت ١٩٧٥ م .
- ١٢٢ - بديع الزمان الهمذاني ، القاهرة ١٩٥٩ م .
الصدريقي : محمد أحمد :
- ١٢٣ - ابن الحريري ومقاماته ، ط طهران ، ١٩٥٣ م .
صفوت : أحمد زكي :
- ١٢٤ - جوهرة رسائل العرب ، القاهرة ١٣٥٦ هـ .
ضيف : شوقي :
- ١٢٥ - الفن ومذاهبه في النثر العربي ، القاهرة ١٩٧٧ م .
- ١٢٦ - المقامة ، القاهرة ١٩٧٦ م .
- ١٢٧ - ابن زيدون ، القاهرة ، د . ت .
ضيف : احمد :
- ١٢٨ - بلاغة العرب في الأندلس ، ط القاهرة ١٣٤٢ هـ -
١٩٢٤ م .
العيادي : عبد الحميد :
- ١٢٩ - المجلد في تاريخ الاندلس ، ط القاهرة ١٩٦٤ م .
عباس : احسان :
- ١٣٠ - تاريخ الأدب الاندلسي (عصر الطوائف والعرابطين)
بيروت ١٩٧٨ م .
عبود ، مارون :
- ١٣١ - أدب العرب ، ط بيروت ١٩٦٨ م .
غومس ، غارسية :
- ١٣٢ - الشعر الاندلسي ، ط القاهرة ١٩٥٦ م .

- كحاله : عمر رضا :
- ١٣٣ - الأرب الصربي في الجاهلية والاسلام ، دمشق -
١٣٩٢ هـ - ١٩٧٢ م .
- كره ، محمد
- ١٣٤ - رسائل اليلفاء ، القاهرة ١٣٦٥ هـ - ١٩٤٦ م .
- مبارك ، زكي :
- ١٣٥ - النشر الغني في القرن الرابع ، ط بيروت ١٩٧٥ م
مجمع اللغة العربية :
- ١٣٦ - المعجم الوسيط ، ط القاهرة ١٣٩٢ هـ - ١٩٧٢ م .
- عده ، الشيخ محمد :
- ١٣٧ - شرح مقامات الهمذاني : ط بيروت سنة ١٩٢٤ م
مكي : الطاهر أحمد :
- ١٣٨ - دراسات اندلسية ، القاهرة ١٩٨٠ م .
- المويلحي : محمد بن ابراهيم بن عبد الخالق :
- ١٣٩ - حديث عيسى بن هشام ، القاهرة ١٣٣٠ هـ .
- هلال : محمد غنيمي :
- ١٤٠ - الأرب المقارن ، ط بيروت د . ت .
- ١٤١ - النقد الأربي الحديث ، ط القاهرة .
- هيكل : احمد :
- ١٤٢ - الأرب الأندلسي من الفتح الى سقوط الخلافة ،
القاهرة ١٩٦٢ م .
- اليازجي : ناصيف بن عبد الله بن ناصيف :
- ١٤٣ - مجمع البحرين - ط بيروت ١٨٨٠ م - ١٢٩٧ هـ .

الدوريات :

بروكلمان ، كارل :

١٤٤ - مقال بعنوان : " بديع الزمان الهمداني " دائرة المعارف الاسلامية - الجزء الثالث (الترجمة العربية) .

اليومي : محمد رجب :

١٤٥ - مقالة : " من رائد فن المقامة " ، مجلة الثقافة المصرية

سنة ١٩٧٩ م .

الشاروني : يوسف :

١٤٦ - مقالة " المقامة في تراثنا العربي " مجلة الفيصل سنة

١٣٩٨ هـ .

عاشور : عبد القادر :

١٤٧ - مقالة " نشأة فن المقامات " مجلة المقتطف مج ٧٧ ،

سنة ١٣٤٩ هـ - ١٩٣٠ م .

عزام : عبد الوهاب :

١٤٨ - مقالة " بديع الزمان الهمداني " مجلة الرسالة مج ١

عدد ٤١ سنة ١٩٣٤ م .

الصمري : علي حسن :

١٤٩ - مقالة " نشأة المقامة " مجلة الأزهر مج ١٦ ، سنة

١٣٦٤ هـ .

فهرس الموضوعات

	المقدمة
١٧ - ١	التمهيد
٢٦ - ١٨	الباب الأول : نشأة المقامات في الشرق
٢٦ - ١٩	أولاً : تعريف المقامة لغة واصطلاحاً
٥٩ - ٢٧	ثانياً : أول من أنشأ المقامة
٧٣ - ٦٠	ثالثاً : أثر بديع الزمان نسي من خلفه
٧٧ - ٧٤	رابعاً : خصائص المقامة المشرقية
١٨٣ - ٧٨	الباب الثاني : المقامات الأندلسية
٩٠ - ٧٩	الفصل الأول : انتقال فن المقامة الى الأندلس
١٣٤ - ٩١	الفصل الثاني : المقامات الأندلسية التقليدية
	الفصل الثالث : الموضوعات المقامية بين المشرق
١٤٧ - ١٣٥	والمقامة الأندلسية التقليدية
١٨٣ - ١٤٨	الفصل الرابع : المقامات الأندلسية التقليدية
	الباب الثالث : الرسائل الأدبية في الأندلس ،
٢٧١ - ١٨٤	انواعها وسماتها
	الفصل الأول : رسائل السخرية والهزل والمناظرات
٢٤٩ - ١٨٥	ورسائل العاطفة والوصف
٢٧١ - ٢٥٠	الفصل الثاني : رسالة التواضع والزواج
٢٧٤ - ٢٧٢	الخاتمة :
٢٨٨ - ٢٧٥	المصادر والمراجع :